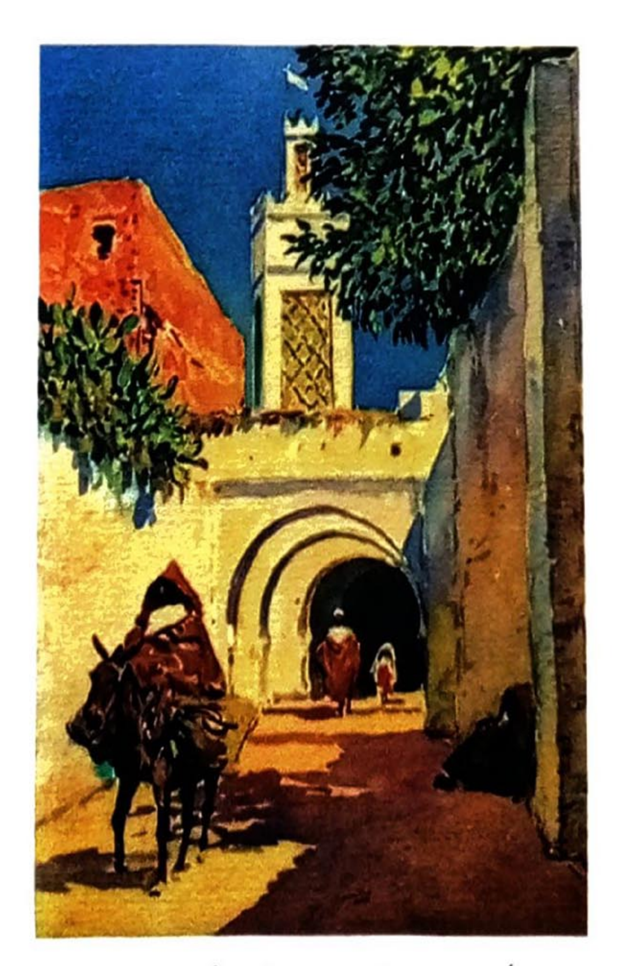
التهامي الوزاني

الزاوية



تقديم ومراجعة

عبد العزيز السعود

منشورات باب الحكمة

الزاويـــة

نشر هذا الكتاب
بدعم من



وزارة الثقافة
والشباب والرياضة

العنوان : الزاوية

المؤلف : التهامي الوزاني

تقديم ومراجعة : عبد العزيز السعود

الإيداع القانوني : 2020MO2080

ر دمك : 978-9920-653-18-3

تصميم الغلاف : أحمد البقالي

لوحة الغلاف : ماريانو بيرتوتشي

الطبعة الأولى 2020

مطبعة باب الحكمة

منشورات باب الحكمة

تطوان ـ المغرب : 0539 70 15 78

baytalhikma@outlook.sa

التهامي الوزاني

الزاوية

تقديم ومراجعة
عبد العزيز السعود

تقديم

ولد التهامي بن عبد الله الوزاني في تطوان في 6 صفر الخير من عام 1321 هجري موافق 4 ماي 1903 ميلادي، ونشأ يتيم الأب في بيت جده بدرب شرفاء وزان بزنقة المقدم من حارة البلد في كفالة أمه وجدته التي أنسته بحنوها وحبها مرارة فقدان من يعول الأسرة. وقد تردد منذ صباه الباكر على الكتاب فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن على يد ثلة من الفقهاء المدررين فبز أقرانه، وكما عرف عنه مصاحبته لمن فاقوه سنا ممن تركوا بصماتهم في ذهنه ونفسيته إما لعلمهم أو لخبرتهم وتجربتهم في الحياة. و لم يتسن للوزاني استكمال تعليمه فلم يرحل إلى فاس ولا إلى المشرق كما فعل أقرب أصدقائه وخلانه ولكن رحل إلى الزاوية الحراقية بمسقط رأسه يطلب شيخ التربية وانغمس في علم الباطن بدل الظاهر وارتدى بذلة التصوف والسبحة، فلم يعرف عنه أنه طلب العلم بطريقة منتظمة بعد حفظه للقرآن الكريم إلا سنة ونيف كما يذكر عن نفسه فكان كل ما حصله من علم وثقافة إنما أتى ثمرة مطالعاته واجتهاداته وفطرته التي فطر عليها.

وتعد شخصية التهامي الوزاني شخصية مبهرة بكل صدق فهي ذات أبعاد متعددة واهتمامات متنوعة وأيضا ذات انشغالات شتى، فهو ذلك الرجل العصامي في ثقافته وتكوينه والذي مارس الكتابة صحافيا فأصدر جريدة «الريف»، وكاتبا فأبدع في السيرة الذاتية والرواية والمقالة ومؤرخا فكتب في تاريخ المغرب وتاريخ المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب، وهو كذلك الرجل السياسي الوطني والصوفي الطرقي بلحيته المسبلة وسبحته المتدلية وعمامته المناضل في صفوف الحركة الوطنية ووكيل حزب الإصلاح الوطني، الأمر الذي يبدو شاذا وغريبا في ذلك العهد الذي

اقترنت فيه الطرقية في أذهان الناس بالرجعية والجمود والإذعان لسلطة المستعمر. وهو أيضا رائد من رواد الحركة التعليمية بتطوان والشمال حيث قضى ردحا كبيرا من الزمان يساهم في تأسيس المدرسة الوطنية، فمن المدرسة الأهلية إلى المعهد الديني العالي إلى كلية أصول الدين. وكما لم يشغله شغفه بالتراث الديني عن ترجمة رواية «دون كيخوطي» لسرفانطس إلى العربية وهو الذي تعلم القشتالية مشافهة ولم يشغله التصوف عن ولوج دور السينما ولو تلطيفا لحرمة ولا الانشغال بالصحافة عن فن التنميق والرسم. لقد كتب التهامي الوزاني في مختلف العلوم والفنون فكان قلمه سيالا وخياله مبدعا رائقا وأسلوبه جامعا بين الوضوح والسلاسة أحيانا وغريب اللفظ والاستطراد أخرى وهو في كل ذلك يكتب بخط كالطلاسم يعسر فكها لعدم وضع النقط على الحروف والاسترسال في الجمل والعبارات.

ويسرنا أن نقدم بين يدي القارئ طبعة جديدة من كتاب «الزاوية» للشيخ التهامي الوزاني ضمن منشورات باب الحكمة. وقد كان المؤلف نشر نصها على حلقات في جريدة «الريف» التي كان يديرها بنفسه إبان عهد الحماية الإسبانية تحت عنوان «كيف أحببت التصوف» والذي سوف يصبح عنوانا فرعيا للكتاب الذي طبع لأول مرة أواخر سنة 1942 ضمن منشورات « مكتب النشر» بمطبعة الريف في نحو مائتين وخمس عشرة صفحة وينتهي بعبارة « انتهى الجزء ويليه الجزء الثاني»، بيد أن هذا الجزء المذكور لم يصدر وبقيت «الزاوية» منقوصة وكما لم تعرف الأسباب التي حالت دون صدوره. ولم تظهر الطبعة الثانية من هذه الرواية إلا في سنة 1999 حيث قمنا بمراجعة النص والتقديم له، ثم تلتها طبعة ثالثة كالسابقة ضمن منشورات جمعية تطاون أسمير سنة 2008. وكان إبراهيم الخطيب قد نشر سنة 1988 صفحات من الجزء الثاني ظلت في حكم المجهول طيلة مدة ناهزت النصف قرن وتشمل 24 صفحة مكنه منها عبد الله الترغي المرابط حيث كانت في حوزة والده القاضي الشرعي بحاضرة تطوان وخطيب الجامع الكبير بها.[1] ويتعرض المؤلف في هذا الجزء الناقص بدوره إلى سرد حياة الشيخ إدريس الحراق شيخ

---

(1) إبراهيم الخطيب، صفحات من كتاب «الزاوية» لم يسبق نشرها، مجلة المشروع، العدد 10، 1988.

الطريقة الدرقاوية الحراقية بتطوان في صدر الحماية، وكنا قد ارتأينا إضافة هذه الصفحات إلى الجزء الأول من الكتاب لاستكمال النص الذي لم يكتمل بعد. ولابد من الإشارة إلى أن النص الأول المطبوع مليء بالأخطاء المطبعية وغيرها وزاخر في نفس الوقت بالمفردات اللغوية النادر استعمالها بالرغم من بساطة المتن وسهولته، وهو ما اضطرنا إلى بذل جهد غير يسير لاستجلاء ما استعسر وضوحه واستشكل تصويبه وألزمنا بوضع الفواصل والنقط بين العبارات والجمل تيسيرا للفهم والإدراك، وذيلنا هذا العمل في الختام بوضع فهارس للأعلام البشرية والجغرافية والمؤلفات والمصطلحات الواردة في الكتاب وبذلنا ما أمكننا من جهد في التصحيح والاعتناء والله ولي التوفيق.

وقد أضحى كتاب «الزاوية» في وقتنا الراهن معروفا ومطلوبا لدى كثير من المهتمين بحقول السيرة الذاتية وبالتصوف والتاريخ وحظي بعناية عديد من الكتاب المغاربة وفي مقدمتهم عبد الجبار السحيمي الذي تعرض لقراءته على صفحات جريدة «العلم»[1]. والزاوية شاهدة على صاحبها وعصره بما قدمه من وصف ممتع لكثير من أوجه الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية وما سجله من روايات وأخبار تبرز عقلية مختلف الشرائح الاجتماعية وطريقتها في التفكير. وقد حظي النص بعناية كاتب آخرالذي عده سيرة ذاتية لأنها تعبير مباشر عن ذات المؤلف ويعرض للقسمين اللذين يتألف منهما النص : الأول ذات المؤلف وتجربته في طلب التصوف والثاني وهو تاريخ الشرفاء الحراقيين، وكلا القسمين يرتبطان بنيويا ودلاليا باعتبار المتكلم هو الوزاني ذاته والفضاء هو الزاوية ولعل الإحساس بالتغيير على المستوى الذاتي لدى التهامي الوزاني حيث يقف على عتبة مرحلة أخرى من حياته يكون هو الدافع عنده لكتابة سيرته أو تاريخ الكتابة عن تجربة الانخراط في سلك التصوف والهجرة إلى الزاوية الحراقية بحثا عن الخلاص من الحيرة وإشفاقا على قلب هو «أشد حساسية من عدسة المصور وقد تحطم هذا القلب بالحب والغرام...». ومن هنا فإن اختيار المؤلف للزاوية عنوانا لسيرته الذاتية لم يأت جزافا وإنما أتى امتنانا لمؤسسة لعبت دورا أساسيا في حياته مثلما فعلت

---

(1) عبد الجبار السحيمي، الزاوية ـ قراءات، العلم الأسبوعي، السنة الأولى، عدد 42، 28 نوفمبر 1969.

في مجتمعه[1]. وإن اتصال المؤلف بمجتمعه وإلمامه بأوضاعه وآماله ومعرفته بعاداته وأخلاقه جعل سيرته الذاتية صورة حية عن الحياة بمدينة تطوان من خلال تعرضه لأدق الجزئيات وأبسط الوقائع، واعتماد أسلوب الرواية الكرونولوجية والوصف كأداتين أساسيتين في التعريف بالذات ومن خلالها بالعالم عبر سيرورة زمنية تدريجية لما سيكون عليه في صباه وشبابه وكهولته[2].

وإن الاهتمام بكتابة هذه السيرة الذاتية قد تم بعد مضي أربعين عاما حيث أنه تمكن من استرجاع ذكريات صباه وشبابه كما كانت وكأن تلك المرحلة من حياته سجلت في شريط، فيتذكر الحالة النفسية التي كان عليها آنئذ ثم ينقلها بالمعيار الذي اكتسبه مع الأيام وقد كشف في ذلك عن قدرة فائقة في استحضار الصورة بتفاصيلها وجزئياتها فيقول: «وها أنا اليوم وقد وقفت على باب الأربعين أستعيد الذكريات كما كانت حتى كأنني أعيش في ذلك الوقت وكأن هذه المرحلة من الحياة كانت مسجلة عندي (فنعم) بديع الإخراج ». ويقول أيضا: « وإذا كنت في هذه الورقات أريد أن أتحدث عن صفحة من أجمل صفحات حياتي تلك هي حياة الرهبانية والانقطاع للعبادة والتفرغ لما يطهر النفس ويهذبها فلا بد من ربط هذه الفترة الزمانية بعصر سبقها كنت فيه صوفيا بطريقة الوراثة والنشأة ».

وقد تساءل الكاتب الشاوي عن الدافع من وراء كتابة هذه السيرة هل كان يتعلق برغبة ذاتية حصلت نتيجة تجربة حياتية متميزة أم بمحيط ثقافي بعد وصول المؤلف مرحلة فرضت عليه بعض المراجعة أم غير ذلك؟ ثم هل جاءت كحصيلة معرفية بما كتبه من سبقوه أم أن الهاجس الفكري الذي أملى عليه الكتابة كان مرتبطا بتجربته الفردية فحسب؟[3]. وكما اعتبر الكاتب المذكور «الزاوية» أول نص سردي يبذر على نحو ما بذور الضرب الروائي في المغرب[4]. وقد قارنها اليبوري برواية «المعلم علي» لغلاب

(1) عبد الحميد عقار، الزاوية بين التجربة والكتابة، أعمال ندوة التهامي الوزاني: الكتابة والتصوف والتاريخ، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1989، ص.197.

(2) المختار الهراس، المجتمع التطواني من خلال سيرة سيدي التهامي الوزاني الذاتية، أعمال ندوة التهامي الوزاني، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1989، ص. 108.

(3) عبد القادر الشاوي، الذات والسيرة (الزاوية) للتهامي الوزاني، منشورات الموجة، الرباط، 1996، ص.4.

(4) عبد القادر الشاوي، الزاوية للتهامي الوزاني: الاستجابة والتلقي، أعمال ندوة شخصية التهامي الوزاني ومساهمته الفكرية، منشورات

واعتبرها أول إنتاج شبه روائي بالمغرب[1]. والزاوية سيرة ذاتية لمتصوف بدأ طريقه في سن الخامسة عشر وقد عانى من أزمة نفسية وجدت خلاصها في الارتماء في أحضان طريق القوم، فيقدم لنا تجربته الصوفية بعد أن ضاقت نفسه وصدق عزمه في القيام بثورة على نفسه وعلى أسلوب حياته وسائر أوضاعه فكان المخرج الوحيد من هذا الضيق أو هذه الأزمة هو صحبة شيخ عارف بالمسالك. إنه يقدم صورة عن صراعه النفسي بين اختيارين: اختيار الواقع الآني بكل أزماته ومزالقه واختيار رفض هذا الواقع والهروب منه والتجرد، وقد واجهه الشاب بكل ضغوطاته وجاذبيته بالرغم مما كان يلابس لحظة الاختيار من ظرف جد عسير. وهذا الصراع الذاتي كان يوازيه على صعيد المجتمع التجاذب بين الفقهاء وشيوخ الطرق وما آل إليه ذلك من صراع خفي بل وواضح لشدة نكير الفقهاء على ما تقوم به الزاوية الحراقية من خرق للعوائد.

وإن حديث المؤلف عن نفسه في كثير من الأحيان يكون متداخلا بحديثه عن مجتمعه، فالمجتمع التطواني كسائر المجتمع المغربي عامة كان يومئذ يتصدع بالصراع والتنازع بين السلفية والطرقية وبين الخضوع للمستعمر والثورة عليه، وكما كان يحفل بما تجيش به نفوس الشبيبة من آمال التطلع وعوامل الإحباط، فلا ملاذ إلا الاستكانة بدل المقاومة والفناء في المثل الأعلى المنشود بدل الصدع بمواجهة العدو اللدود بعد صدمة الاستعمار التي أثرت حتى في شيخ التربية فوجد نفسه في موقف حرج يجعل الالتزام بدوره كمربي وموجه روحي وسياسي يصطدم بعراقيل لا قدرة له عليها[2]. وهذه الحياة الدينية التي كانت تحياها مختلف الشرائح الاجتماعية في تطوان في مستوى الاحتفال بالشيوخ والزوايا والعناية بطريق القوم، كانت تعكس إلى جانب دور التأطير الديني الصوفي الذي تقوم به الزاوية العلاقات الاجتماعية والمواقف السياسية والفكرية لدى الفئات والأفراد والتي طبعها التطرف أو الاعتدال والعداء أو المؤازرة. ومن هنا تتراءى لنا جاذبية شيوخ الطرق وتأثيرهم الروحي في نفوس الشباب ولاسيما الذين لا يفتأون يبحثون عن مسلكهم بين المسالك، وهذه الجاذبية هي التي ستستولي على

جمعية تطاون أسمير، طوب بريس، الرباط، 2004، ص.60.

(1) أحمد اليبوري، دينامية النص الروائي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1993، ص.27.

(2) عبد المجيد الصغير، أزمة التجربة الصوفية عند التهامي الوزاني، أعمال ندوة التهامي الوزاني..، الرباط، 1989، ص.97.

التهامي الوزاني من دون تدخل قوى أخرى معاكسة.

ولا تخلو هذه السيرة الذاتية من الاهتمام بجانب التاريخ فهي تصور مجتمع تطوان وتعرف بالأحداث السياسية وبالظروف العسيرة التي مرت منها المدينة دون إغفال الوضعية العامة للبلاد منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى فرض معاهدة الحماية وما تلاها. وبالرغم من أن «الزاوية» تقدم كنموذج فريد وسابق للسيرة الذاتية فإنها تعطي مادة وفيرة للباحثين في تاريخ تطوان بما وصفه المؤلف وما وقع عليه من أخبار وروايات جديرة بالملاحظة[1]، وإن كان كما قال عن نفسه «ما هو مذكور في كتاب الزاوية لا يعتمد في شيء على المراجع المكتوبة وكله من المسموع من الناس فلا يعتمد كثيرا بما فيه من التاريخ »[2]. ورغم ذلك فإن معلوماته تستحق منا الاهتمام لأمرين: قربها النسبي من الناحية الزمنية ونقلها شفها من جهة، ومعاصرته لبعضها وكونه لم يكن بمعزل عن المجتمع من جهة أخرى. وهو يورد أحداثا تاريخية واجتماعية دون أن يرتبها ترتيبا كرنولوجيا لكن خيطا واحدا يمسك بها جميعا هو الزاوية أو شيخ الزاوية فالأحداث كلها مرتبطة بذلك[3]. ولا تخلو الأحداث من ملاحظات ذاتية وكما يتعمد المؤلف إلى تحليل بعض المظاهر الاجتماعية التي كان لها تأثير في مجتمع المدينة وقد يكون ذلك مكملا لعمل السيرة. وسنحاول إبراز أهمية الحدث التاريخي كما ورد في سياق «الزاوية» باعتبار ما افترضه المؤلف أو رآه مع بعض الإضافات لمزيد الفائدة من خلال انتقاء بعض المواقف والأحداث وارتباطها بالزاوية الحراقية وبشيوخها.

1 ــ **موقف أهل تطوان من الطريقة الدرقاوية**: كانت هذه الطريقة في بداية أمرها مضطهدة من قبل أهل المدينة الذين كانوا يناوئونها ويحاصرونها بإحكام حتى لا تنتشر في مدينتهم، وكان من دواعي رفضهم لها بعض الأعمال المثيرة والسلوكات الشاذة التي كان يأتي بها بعض أتباعها، فقد وقع الإنكار على الشيخ أحمد ابن عجيبة وتألب الناس ضده حتى أودع السجن. ولم يستقم أمر الدرقاوية بتطوان إلا بعد أن

(1) عبد العزيز السعود، أهمية الحدث التاريخي في الزاوية للتهامي الوزاني، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد 147، 12 أبريل 1987.

(2) محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد السادس، المطبعة المهدية، تطوان، 1966، ص.305، هامش2.

(3) عبد الجبار السحيمي، مصدر سابق.

دخل العالم محمد الحراق في طريق القوم وأصبح شيخا صوفيا، وكانت تطوان ما تزال بها بقية من خصوم شيخ الدرقاوية السابق فكان يأنس من الناس هوانا واحتقارا. وقد روي عن سيدي محمد الحراق أنه سئل عن سبب حبه المقام بتطوان فقال إنه وجد فيها ما لم يجده في غيرها من الراحة لأن أهلها في غنى عنه[1]. وقد حسمت المعركة التي نشبت بين الفقهاء والزاوية لصالحها في نهاية الأمر خاصة بعد انقراض خصومها بالمدينة، فنال الشيخ الحراق رضا السلطان والحكام حتى أن باشا تطوان محمد أشعاش الذي كان يعمل بما يمليه عليه طبع الاستبداد لا يكاد يقطع أمرا دون استشارة الشيخ[2]. وقد فتر في عهد محمد الحراق عن الطريقة بعض ما كانت فيه من الشدة بعدما عدل كثيرا مما كان يثير النقد حوله وأزال عنها سمة التقشف، فكان أصحابه يتأنقون في ملبسهم ويتخذون ملابسا خاصة ليوم الجمعة مما جلب عليه انتقاد أصحاب مولاي العربي الدرقاوي لمخالفته ما هم عليه من التقشف[3].

2 ــ **نشاط الزاوية الحراقية إبان الحماية:** كانت سياسة الإدارة الاستعمارية تتجه نحو استمالة شيوخ الزاوية وكسب تأييدهم لما لهم من نفوذ معنوي وروحي على المريدين، وتمشيا مع هذه الخطة فسح المقيم العام الفرنسي «ليوطي» المجال أمام الشيخ إدريس الحراق لزيارة المنطقة السلطانية في موكب فخم صحبة كثير من أشياعه، وقد استغل الفرنسيون هذه الرحلة استغلالا إعلاميا كبيرا وخاطب «ليوطي» الشيخ الحراق بالرجل الطيب لأنه لا يتحدث إلا عن شؤونه الخاصة وأعمال أصحابه وأتباع طريقته[4]. والواقع أن الزاوية الحراقية لم يتعد اهتمامها نطاق ما يجري بين أركانها من أذكار وجذب ووجد فلم تبال بما يحدث في العالم الخارجي من كفاح وحركة، وقد كانت لشيخها محبة في الموسيقى وشغف بالطرب وكان من بين شيعته جماعة من المطربين يقوم بإعالتهم، فاشتهرت زاويته دون باقي الزوايا لأن الناس بعد فرض الحماية وأيام الحرب العظمى عمهم الحزن والكدر، فتفرقت مجامع اللهو والانشراح وقام أغلبهم ببيع

(1) محمد المرير، فهرست بالنعيم المقيم، مخطوط خاص، ج.1، ص.85. وقد طبعت أجزاؤه ضمن منشورات جمعية تطاون أسمير 2000-2009.

(2) التهامي الوزاني، الزاوية، مطبعة الريف، تطوان، 1942، ص.169.

(3) نفس المصدر السابق، ص.164.

(4) نفس المصدر السابق، ص.103.

آلات لهوه وطربه[1]. وكان الناس ينكرون بشدة سلوك الشيخ الحراق وبالأخص الفقهاء الذين كان يعزي بعضهم بعضا على المصيبة التي نزلت بالإسلام وضياع الدين[2]. فتجدد بذلك الصراع بشدة بين الشيخ الحراق وجماعة من الفقهاء بتطوان وفي نفس الوقت بين الطائفة الحراقية وباقي الطوائف الطرقية الأخرى.

وإذا كنا قد أشرنا في السابق إلى عدم اعتماد المؤلف على المراجع المكتوبة واكتفائه بالمسموع عن الناس فيما يتعلق بالمادة التاريخية المعروضة في نص الزاوية، فإن ذلك لا ينقص في شيء من قيمة الحدث التاريخي الوارد في المتن، ذلك أن الكاتب سبق له أن كتب عن الأحداث التاريخية التي تطرق إليها في سيرته الذاتية بصفة مباشرة أو غير مباشرة في تأليفه الشامل «تاريخ المغرب» الذي نشره سنتين قبل نشر «الزاوية» وهذا ما أكسب سيرته الذاتية قيمة تاريخية هامة.

(1) نفس المصدر السابق، ص.105.
(2) نفس المصدر السابق، ص.108.

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف أحببت التصوف

إن للبيئة سلطانا نافذا على النفوس وإن للوسط السيطرة الكاملة بالنسبة لتوجيه الرجل إلى ناحية من نواحي الحياة. وإذا كنت في هذه الورقات أريد أن أتحدث عن صفحة من أجمل صفحات حياتي تلك هي حياة الرهبانية والانقطاع للعبادة والتفرغ لما يطهر النفس ويهذبها، فلابد من ربط هذه الفترة الزمانية بعصر سبقها كنت فيه صوفيا بطريق الوراثة والنشأة فلم يكن التصوف يحتاج إلى شيء كي يتسرب إلى قرارة قلبي بل إنني وجدت فيه من أول يوم استنشقت فيه نسيم الدنيا. وإن للثلاثمائة سنة التي قضاها أسلافنا رضي الله عنهم في هذا الصدد لكفاية للناشئ في هذه العائلة الوزانية الكريمة أن يكون صوفيا دون تكلف ولا تعمد ولا مشقة ولا تعب. وكان لجدتي أم والدي أثر عظيم في نشأتي لأنها هي التي تولت تربيتي فكانت رحمها الله تتعهدني بالأحاديث النافعة والحكايات المؤثرة المهذبة، وكان فيما حدثتني به قصة شاب كانت وصية أبيه له (يا ولدي لا تحلف أنت ولا تحلف أحدا ولا تحضر مع من يحلف)، فعانى الشاب في أول الأمر تعب هذه الوصية حيث علم الناس أنه ينفذها على أتم الوجوه فأخذوا يتهمونه اتهامات توجب اليمين فكان يؤدي ما اتهم به تجانبا على أن يكون من الحالفين حتى نفد ما بيده وقاسى حاجة شديدة فبعد أيام أتاه الله بالفرج من حيث لا يدري. فكانت هذه الحكاية في كثير غيرها دائما نصب عيني و لم أدر كيف حدث ذات مرة حتى اضطررت إلى القسم على شيء كنت أعتقد أنه طبق ما أقسمت عليه

فظهر أن الأمر بخلاف ذلك، فاهتممت هما لا مزيد عليه والحالة هذه وأن ابن سبعة[1] سنين ولازال الهم يخامرني، وكنت متجلدا أستطيع أن أضبط عواطفي واخترت إحدى المناسبات فسألت جدتي عما يفعله الناس إذا صدر عنهم قسم فحنثوا فيه، فقالت لي يا ولدي إن الصالحين لا يقسمون بارين ولا حانثين وإذا صدر عنهم شيء من ذلك فإنهم يصومون ثلاثة أيام ويستغفرون الله ثم لا يعودون إلى القسم، وزالت عني همومي فأصبحت من الغد صائما وأديت كفارة ثلاثة أيام. وكنت أسمعها تحدث عن مولاي عبد الله الشريف جد الأشراف أهل وزان رضي الله عنه حينما أخذ في طلب طريق القوم وما كان منه من الصدق في خدمة شيخه سيدي علي بن أحمد الصرصري رضي الله عنه، فكانت تذكر أن مولاي عبد الله الشريف لما دخل على شيخه لقنه الورد وبعثه إلى قطعة من الأرض ليعمل فيها فتلك رياضته ومجاهدته، فما كان من التلميذ الصادق مولاي عبد الله الشريف إلا أن هيأ كوخا صغيرا يستقر فيه ثم أخذ في العمل وكانت المؤنة تأتيه من دار زاوية شيخه فلم تمض إلا سنوات قلائل حتى نشأت في ظهر الجبل جنة دانية القطوف بها من كل الثمرات المعروفة في تلك الأنحاء وكانت الأخبار تتوارد عن الشيخ بأن التلميذ عبد الله الشريف قد أقام بستانا يقل نظيره بين البساتين. وذات مرة صمم الشيخ العزم على أن يزور هذا البستان الذي يتحدث به الناس فذهب في جماعة من أصحابه فأعجبه ما رآه من تنظيم البستان وتنسيق أشجاره وترتيب قيعانه فشكر التلميذ عبد الله الشريف ودعا له بخير، ثم طلب منه أن يأتيه بشيء من الفاكهة فكان ما أتاه به فاكهة الرمان، فأخذ الشيخ رمانة وفلقها وذاق منها حبات فإذا بها من الرمان الحامض فدعا بقيم البستان التلميذ مولاي عبد الله الشريف وقال له: يا فلان كأنك لم ترنا إلا أهلا للرمان الحامض، فذهل التلميذ وأجاب بقوله: والله يا سيدي ما ذقت طعم هذه الفاكهة ولا أعرف حلوها من حامضها، فعند ذلك اعترى الشيخ مولاي علي بن أحمد حال عظيم وقال لمولاي عبد الله الشريف: يا ولدي لم تبق لك عندنا حاجة فاذهب لتدل الناس على الله.

وهذه الحكاية يروى نظيرها لكثير من الرجال فكان من تأثير هذه الحكاية في

---

(1) سبع.

نفسي أنني كنت أحاول جهدي أن أكون مثل هذا التلميذ المخلص، وكان أكرم الناس منزلة في عيني أستاذي في القرآن الفقيه الذاكر السيد أحمد بن حمزة رحمه الله فقد كان عندي مثال الكمال في كل شيء، وكان طويل القامة عظيم الهمة جميل الصورة طويل اللحية أبيضها لم تكن تتخللها شعرة سوداء فكانت في وجهه كسبائك الفضة في حسن وتنسيق وكان لا يلبس إلا البياض وكان من أصهارنا ومن المحبين في والدنا وجدنا وكل عائلة ابن حمزة كانوا أنصارا لجدي رحمه الله، فلهذا كنت أعتقده شديد الاعتقاد ولا أطلع أحدا على ما لي فيه من الظن الجميل بل كنت مخلصا في هذه العقيدة كل الإخلاص وكان هو نفسه لا يطلع على ما أكنه له من تعظيم واحترام. وقد كانت أمي التي تأيمت صغيرة تخشى علي وعلى أخي محمد من الشمس أن تصيبنا ومن الهواء أن يلمس بشرتنا وكانت تلتجئ في دفع الآفات عنا إلى ما تفزع إليه النساء من سلسلة التمائم فما تسمع بفقيه أو ذي صلاح أو حكمة إلا وتبعث إليه إحدى خادماتنا لتأتيها بتميمة تعلقها في أعناقنا، وأن تفعل ذلك أمي فلأنها كانت شديدة الاعتقاد في هذه العزائم والتمائم لأن أباها الشريف سيدي أحمد العلوي من مدشر الأشراف العلوية بقبيلة حوز تطوان كان شيخا من شيوخ الأسماء، ويذكر عنه أنه كان يعرف اسم الله العظيم الأعظم فكان الناس يقصدونه من مسافات شاسعة ليكتب لهم ويرقيهم بما يعلمه من أسرار الحروف، وكانت تظهر على يديه بركات وخوارق رحمه الله فكانت أمي متأثرة بما تسمعه عن أبيها فلذلك كانت شديدة الاعتقاد بالتمائم ومفعولها. أما جدتي فلا أذكر أنها وضعت في عنقي تميمة ما غير أنني إذا كنت أشتكي فإنها كانت ترقيني جهرا ولعلها لتجعلني أحفظ رقيتها هذه فكانت تضع يدها على موضع الألم وتقول: (همسة لمسة مأمونة عن الأسد منه المدد لا أبالي بأحد بفضل بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد) ثم تنتقل وتقول حفظك الله وشفاك، فإذا أخذت في الإبلال ضمتني إلى صدرها وقبلتني ثم قالت (اشهدوا يا ملائكة السماء والأرض علي فإني أحمد رب العالمين الذي الله[1] تكرم علي بولدي التهامي ومحمد). ففي هذه الأسرة الصالحة كنت أعيش وقد قلدتني أمي بقلائد من التمائم فكنت أعتقد فيها ما تعتقده أمي وأرى أنها أعظم البركات فلم يكن عندي

(1) بل وأحمد الله رب العالمين الذي تكرم علي...

شيء أعز منها كل هذا وأنا دون السادسة من العمر. وذات مرة كنت بالمسيد وكنت جالسا على مقربة من المصطبة المرتفعة التي كان يجلس عليها أستاذنا الفقيه السيد أحمد بن حمزة، وكانت هذه المصطبة جزء من سقف درج المسيد الذي كان بالمشور السعيد وكان مكانه بين بابي دار المخزن فكان باب الروض عن يمين الصاعد إلى المسيد وباب الدار عن يساره وقد أدخل هذا المسيد بعد أن أصبح مشور تطوان قصرا خليفيا إلى داخل القصر. فأنا جالس في مكاني مقبل على قراءة لوحي إذ حانت مني التفاتة فوجدت شعرات بيضاء ملقاة على أرض المسيد فأخذتها فإذا هي طويلة فلم يبق عندي شك بأنها من شعرات لحية أستاذنا، فأخذتها وقبلتها ووضعتها فوق عيني وفوق رأسي وصممت على أن أحفظها عندي بقصد التبرك فإنها عندي أثمن شيء وأغلاه وما أريد أن يطلع أحد على هذا العزم مني، ثم فكرت في أنسب المواضع التي تحسن أن تحفظ فيه شعرات لحية فقيهنا الصالح فلم يكن عندي شيء أبرك من التمائم التي علقتها أمي في عنقي، فحفظت الشعرات حتى ذهبت إلى البيت و لم أطلع عليها لا جدتي ولا أمي وإنما خلعت علاقة التمائم في مكان لا يراني فيه أحد من الخلق، ثم أخذت الشعرات وقبلتها وفتحت غلاف إحدى التمائم وكأنني أراه هذه الساعة وهو منتفخ بُني اللون ثم وضعت داخله الشعرات وخطت الفتق، فإذا بي أجد شعرة لا تزال غير منضمة إلى أخواتها فضاق علي الوقت أن أفتق الحرز من جديد فاكتفيت بأن ربطتها في العلاقة وكنت في كثير من المناسبات أخلع التمائم وأقبل الشعرة البارزة. وذات مرة أخذت أمي تخلع عني الملابس فلم أدر كيف وقع بصرها على الشعرة المربوطة فسألتني عن شأنها فأخبرتها بكل بساطة بأنها شعرة من لحية أستاذنا لم أر لها مكانا أهلا أن تجعل فيه ما عدا أن تحسب تميمة من التمائم. وما كنت أنتظر من أمي أن ترى أن في عملي هذا شيئا يذكر فقد فعلته في سذاجة الأطفال وأنا موقن بأنني لم أفعل شيئا أكثر من الواجب، ولكن أمي أكبرت هذه الروح وأعظمتها فضمتني إليها ودعت لي من الدعاء الصالح ما أرجو الله قبوله ثم أذاعت النبأ. وكان أهل الأستاذ ابن حمزة على اتصال دائم بنا وكانوا يعاملوننا كما كان [كانوا] يعاملون أبي فقد كانوا يعتبرون أنفسهم من خدامه الذين لو عمد وباع أحدهم في السوق لما لقي أدنى مخالفة أو اعتراض. ووصل خبر القصة إلى الفقيه ابن حمزة فدمعت عيناه وقال: ما كان لولد سيدي عبد الله أن

يكون على غير هذه الحالة وقد بقيت الشعرات معلقات على عاتقي حتى ضاعت تمائمي في الحمام بعد أن يفعت وراهقت. ومع هذا التقدير والإجلال الذي كنت أبطنه لأستاذي لم أكن أنسى أن لي شخصية هاشمية وزانية فللأستاذي علي حق ولكرامة نفسي حق من جانب آخر، ففي الوقت الذي كنت أكن فيه من التوقير والتبجيل لأستاذي ما لا يحد ولا يحصى قمت بالدفاع عن كرامتي يومئذ رأيت هذا الأستاذ الجليل يعتدي علي بعض الاعتداء ويوم إذ رأيته يعارض ميولي الخاصة، فحدث ذات مرة وأنا طفل صغير لا أزال ألقن حروف الهجاء أننا التففنا حول أحد كبار المتعلمين وهو يلقننا ألف باء ونحن نعيد كل حرف يلقننا إياه في موسيقى نائمة لا نزال نسمع نغمتها إلى اليوم، لأن الأساليب التي تعلمنا بها حروف الهجاء والكتابة والقراءة لا تزال إلى اليوم كما كانت من قبل بأكثر من ثلاثين سنة ثم كما كانت قبل الثلاثين بما شاء الله من الأجيال والأحقاب. فنحن ذات يوم عاكفون على هذا العمل وقد أظلم المساء وذاق المكان وتسرب الملل إلى النفوس فشعرت بملل وضجر وأنا الطفل الوديع المكرم، فانحرفت عن الحلقة وأسندت ظهري إلى الحائط أستريح و لم تكن هذه المرة الأولى التي فعلت فيها هذا الأمر بل تلك كانت عادتي بعد أن أشعر أنني أديت الواجب وأن الملل قد تسرب إلى نفسي سيما وقد كنت في بيتنا أتمتع بحرية لا مزيد عليها وعطف كنت أرى نفسي به أسعد الناس، ولكن هذه المرة لم يتساهل معي الأستاذ كما كانت عادته معي من قبل ولعله كان منقبض النفس ضيق الصدر ومن عرف الأطفال وشيطنتهم وما يقاسيه من يقابلهم من ضيق وحرج فإنه لا يسعه إلا أن يقدرهم إذا تضايقوا أو غضبوا. وكان الناس عندنا يعرفون للأستاذ قيمته ويقدرونه حق قدره لأنه يربي أبناءهم ويعلمهم كثيرا من شؤون دينهم ويحفظهم القرآن الكريم، فكان أستاذ القرآن عندنا في مترلة لا تدانيها مترلة وكان الآباء يشعرون بأن الأستاذ يقاسم المسؤولية ويكفيهم كثيرا من تعب التربية والتهذيب على الطريقة التي كانت متعارفة بين الناس إذ ذاك، وكان الرجل يقول للأستاذ في حق ولده (اقتل وأنا أدفن) فكان أستاذ القرآن يتصرف في حق تلاميذه كما يشاء لا يرده وازع سوى ضميره، فكان الأستاذ يشعر بهذه السيطرة المطلقة في حق تلميذه ولا يريد أن يقف في سبيله شيء يحد من هذه السيطرة، وحتى إذا كان بعض الآباء والأمهات يقترحون على الأستاذ أن يرفق بالولد فإنه كان يجيبهم

جوابا واحدا وهو أن أبناء الناس عندي سواء فإن رضيت بأن يشمله ما يشملهم فذاك وإلا فلك الحق أن تخرج ولدك من المسيد أي وقت أردت. فكانت للأستاذ دالة على آباء التلاميذ وخصوصا من كان مثل أستاذنا رحمه الله في رزانته وتقدمه في السن وصلاحه وبركته وحبه العميق لتلاميذه حتى أنه كان يداعبهم على علو قدره، وكانت مداعبته إياهم في الكثير تنحصر في أنه يدلي إحدى رجليه من المصطبة ويتربع بالأخرى ثم يأخذ بيدي الطفل فيقبض يديه بيديه ثم يأمره الأستاذ بأن يقف برجليه كلتيهما على رجل الأستاذ المدلاة من فوق المصطبة، ثم يحرك أستاذنا رجله ويديه والولد منبسط وكأنه في الأرجوحة حتى إذا ما أقبل الولد بكله على هذه الحركة أطلق الأستاذ يديه فيسقط الطفل وهو يموت ضحكا هو وبقية الأطفال، غير أن أستاذنا في ذلك المساء خالف عادته معي فأمرني بأن أقرأ حروف الهجاء كما يفعل الأطفال الآخرون فلم أعره أدنى التفات، فأمرني بذلك ثانيا ثم أمرني ثالثا ورابعا وأنا لا أرى موجبا للامتثال ما دمت قد أديت واجبي ولا أجد من نفسي الإقبال على هذه القراءة المملة، فكأن أستاذنا شعر بأن هيبته قد أخذت تتضعضع في نفوس أطفاله فأراد أن يستردها بإرغامي على أن أخضع لإرادته فترل من فوق مصطبته ـــ وتلك كانت عندنا علامة على غضبه الشديد ـــ ثم جذبني بقوة وأقعدني في حلقة التهجي ثم رجع إلى مجلسه، فشعرت بأن كرامتي قد أهينت وأنني قد اعتدي علي فلم أستسلم و لم أخضع رغم كل شيء وأتيت في الدفاع عن نفسي بكل ما أستطيع أن أفعله، فلم أبك و لم أتضجر ولكنني قبضت لوحي وكأني أنظر إليه في هذه الساعة في طول نحو الثلاثين سنتيمترا وعرض العشرين وكان حاد الأطراف، فقبضت عليه بيدي كلتيهما وأودعته كل ما في قلب الطفل من انتقام وغضب ووجهته قذيفة أرمي بها وجه أستاذي العزيز علي، فتلقى ضربة اللوح بيديه ثم لم أدر شيئا إلا أنه نزل ثانية وضربني بقضيبه ضربا وجيعا فاستسلمت للبكاء وقعدت أقرأ حروف الهجاء وصدري يكاد ينفقع من النشيج والغضب، ثم خرجت مساء إلى بيتنا بعد أن مسحت دمعي بكمي فلما دخلت شاهدت جدتي علي أثر البكاء والحزن وكانت لا تطيق صبرا على أن تراني متكدرا قلقا، لأنها ترى في وحيدها فإنها لم ترزق في حياتها إلا ابنا واحدا هو والدي فكانت الشمس عندها إنما تشرق من تحت قدميه، ثم بعد أن زوجته ورزق بي وبأخي لم يلبث إلا يسيرا حتى قبضه الله إليه فتركني

ابن ثلاثة [ثلاث] سنين وستة أشهر وترك أخي ابن ستة أشهر، فكانت جدتي فاطمة علوشة لا ترقأ لها دمعة رغم تجلدها وتصبرها وكانت ترى فينا وحيدها فوهبت لنا قلبها وأوقفته على حبنا، فلما دخلت هذا المساء باكيا أخبرتها بأنني سوف لا أعود إلى المسيد فوجمت وسكتت وأخذت تذرف الدمع الغزير مع إصرارها على أن تحملني على الاستمرار في القراءة، فلقد كان زوجها جدي سيدي التهامي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي بن الشيخ مولاي التهامي عالما مجاهدا وكان يرجو أن يكون والدي قارئا ولكنه كان مجدوبا صاحب أحوال في صغره وبعد كبره فلم يتمكن من القراءة والدراسة فكان ألم ذلك في صدر جدتي لا يزال جرحه غير مندمل، ثم قامت ولبست حائكها وذهبت لتصلح ما بيني وبين أستاذي فذكرته بتاريخ والدي وجدي وأحيت في صدره الذكريات المجيدة وحدثته عما كان لجدي من الأيادي البيضاء وكيف كان يرى عائلة ابن حمزة شعاره دون باقي الأنصار، ففاضت دموع ابن حمزة الصالح حتى اخضلت ثغامة لحيته وشعر بندم عميق على ما صدر منه في حقي فاسترجع واستغفر ولام النفس التي حملته على الغضب وقطع عهدا مع نفسه على أن لا يعود إلى إساءتي، فما أذكر أنه بعد ذلك ضربني ولا انتهرني ولا عاملني معاملة الأطفال. وسرعان ما استطاعت جدتي أن تجعلني أتذكر حق أستاذي وأفهمتني أن من علمني حرفا واحدا من القرآن فهو سيدي ومولاي إلى يوم القيامة وسهلت علي ما وجدته في نفسي من إهانة الضرب، فقد ذكرت أن لا عار ولا تأثيم في ضرب الفقيه لتلميذه وأن والدي نفسه كان يضربه أستاذه وكذلك جدي وعمي وسائر عائلتي، فانصعت انصياعا وتذكرت أنني أيضا وخفت سخط الله علي لأنني ضربت أستاذي فأنا أحرص الناس على أن يرضى علي وأن لا يؤاخذني بجريمتي. وفي الصباح أقبل خال أبي محمد بن محمد علوش — وكان يعاملني معاملة ولده لأنه لم يرزق طيلة حياته بولد — فصحبني إلى المسيد وخلفنا إحدى الخادمات بيدها إناء مملوء شربة (غراف من الحريرة) ويسير من التين اليابس لأقدمهما لأستاذي كهدية من دار الزاوية، فدخلت المسيد فاستقبلني الأستاذ ببشاشته السابقة المعتادة ولاحظت أن وسط يده اليسرى مصبوغ بالحناء ثم علمت أنه إنما وضع عليه الحناء لما لحقه من وجع الضربة باللوح.

وقد قاسيت في حياتي من ألم العناد تعبا كثيرا وفي الأخير اطمأنت إلى أنه عندما يشتد الرجل ويقوى على فهم الأمور ووزنها بميزان العقل يستحيل هذا العناد إلى اعتزاز بالنفس وشعور بالكرامة، على أن عنادي وأنا صغير كان يحملني على أن لا أعرض لأي اصطدام بيني وبين رفقائي لأن اختلافهم كانوا يجدون له الدواء سريعا أما أنا فكنت آخذ الأمور كلها في سبيل الجد ولا أعرف سبيلا إلى المزاح. ومن الغريب أنني رغم حدة خلقي كنت ثابت القلب رابط الجأش لا أتنازل للعب مع الأطفال ولا للتراع معهم، ومن لدن خلقني الله لم أصارع أحدا و لم أضاربه إلا مرة واحدة: فقد كنا نجالس الطالب السيد عبد الكريم الكرمة في الحانوت التي كانت لأبيه بزنقة المقدم وكان يوميا يمر علينا ولد لم أذكر اسمه الآن إلا أنه من أولاد غنام، وأولاد غنام عندنا تكاد حرفتهم أن تكون مقصورة على صبغ الصناديق والمرافع وما اتصل بذلك من هذا النوع من الأصباغ حتى صار يطلق على هذه الطريقة من الأصباغ (زواق غنام)، فكان هذا الولد يمر يوميا وهو مثقل بالموائد المستديرة الصغرى والمرافع بقصد أن يذهب بها إلى سوق الغرسة الكبيرة ليبيعها هناك حيث كانت في ذلك العهد نافقة ونافدة للبيع لأن هذه السنة التي نتحدث عنها هي السنة التي دخل فيها الإسبانيون إلى تطوان (12 ربيع الأول 1331 هجرية 19 فبراير 1913 ميلادية). وكان من جملة الفرق العسكرية التي تعمل في صف الجيش الاسباني فرق من المسلمين (كنا نسمي أصحاب الأحزمة الحمراء بعسكر سبتة وذوي الأحزمة الزرقاء بعسكر مليلية) وهؤلاء الجنود كانوا في أول الأمر شرارا شريسي الأخلاق فلما اطمأنوا بتطوان أقبلوا على الزواج إقبالا عظيما، فأصبحوا ذوي بيوت تحتاج إلى التأثيث وأ ول شيء يتخذونه من الأثاث بعد الحصير صينية الشاي ومائدتها ومرافع يضعون فوقها بعض حوائجهم، فوجدت صناعة غنام وزخرفه سوقا في هذه الأيام التي نتحدث عنها والتي كان الولد غنام يروجها لأنها شغل عائلته.

كان الولد غنام يمر يوميا على شارع زنقة المقدم فكان يجدنا جالسين في دكان الكرمة وكان ثقيل الظل فإذا كنا جماعة وقف ساكتا معنا وأما إذا وجدني وحدي فإنه يأخذ يتبجح علي ويخلق كثيرا من الخرافات فإذا خلص منها أخذ في كلام الأطفال

وكنت أهيبه لأنه كان أكثر مني سنا وأقوى بدنا، وذات مرة تحداني لأصارعه فتهربت وأبقت من ذلك لأنني لا أريد أن أكون شريرا ولأنني أخاف أن أغلب فتكون تلك فضيحتي معه مع ما أعرفه من صلفه وعجبه، فلما رأى إحجامي عن مصارعته لج في طلبه ورماني بالجبن وذلك ما لا أطيق أن أسمعه، فقلت له: تعال إلى الصراع في مكان لا يرانا فيه الناس فقمت وسرت وإياه حتى دخلنا درب طنانة المقابل لدرب شرفاء وزان ثم أخذنا في الصراع فلم تكن إلا برهة وجيزة حتى ألقيته تحتي وأخذت بخناقه، ثم والله ما ضربته ولا خمشته ولا عضضته بل إنني بمجرد ما رأيته تحتي وعيناه تبرقان طالبتين للرحمة تركته بحاله وانصرفت لحال سبيلي، فكان الولد بعد ذلك إذا مر بزنقة المقدم تجافى حتى من الناحية التي بها حانوت الكرمة وعند السير قاصدا، فاسترحنا منه ثم لم نتعرض له بعد ولم نتكلم عنه. فهذه المرة الواحدة التي صارعت فيها أحدا من الناس وأنا أود اليوم أن لم أكن قد فعلت.

ثم دار الفلك دورته فاتصلت من بعد بالمرحوم الفقيه السيد محمد الكحاك وإن أكن لأحد أكثر امتنانا فإن منة الكحاك علي وعلى توجيهي في طريق طلب العلم منة لا يمكنني أن أنساها، فقد حدثت بعد الطفولة حوادث جمة قلبتني فيها الأيام بطنا لظهر ودارت بي عوامل الزمن كما تدور الرياح بسفينة لا سكان لها وسط لجج اليم، فقد جاءت إسبانيا ودخلت تطوان والناس لا يزالون يتذكرون ويسمعون من آبائهم الأقربين دخول الجيش الإسباني لهذه المدينة سنة 1860م ولم يمض على حرب تطوان إلا ثلاثة وخمسون عاما، وكانت العجائز والشيوخ يتحدثن ويتحدثون عن الاضطراب الهائل الذي حصل بعد احتلال تطوان فقد خشي الناس على دينهم قبل كل شيء لأن حوادث الأندلس لم تزل من الأذهان والعقائل من كرام العائلات الأندلسية ما تزلن وارثات للأحزان على فردوس آبائهم المفقود، وقد توارث الناس عبارات الأسى في مأساة الأندلس فإذا تحدثوا عنها فكأنما يتحدثون عن حادثة وقعت بالأمس أو قبله بيوم أو بيومين، وكانت الدموع تراق بانسجام عند كل ذكر للأندلس وربوعها وهواها العليل ومساجدها الزاهرة وخزائن كتبها الزاخرات ثم يتخلصون من هذه الذكريات الأليمة إلى صب حام غضبهم على المسيحيين الذين لم يراعوا هذه القلوب المتفتتة،

فكان التطوانيون يفزعون من ذكر النصرانية كل الفزع فلما كانت حرب سنة 1860 م و لم يقدر للمغرب فيها الفوز لجأ الناس إلى إفراغ المدينة خوفا من أن يصيبهم ما أصاب سلفهم مسلمي غرناطة وقد قاسى التطوانيون في مهاجرهم من العناء ما يرجون من الله ثوابه.

وعندما احتل الإسبانيون تطوان سنة 1913م تجددت كل الذكريات وهاج الناس وماجوا وأصيبوا بالذهول، وأتذكر أن جدتي رحمها الله وكانت من الصابرات الرابطات الجأش كما كانت من ممن لا يزال يتذكر حوادث احتلال تطوان للمرة الأولى ــ بعد أن احتل الإسبانيون تطوان للمرة الأخيرة ــ أنها أصيبت بذهول حتى كادت تفقد إحساسها، ورغم أنها عجوز ومعها أمي وولديها نحن الطفلين فإنها قد نسيت عجزها وضعفها وثقل حملها وعزمت على أن تذهب بنا إلى طنجة صحبة أعمامنا الشرفاء وصحبة من هاجر إلى طنجة، و لم يحل بينها وبين ذلك إلا العقلاء من أقاربها الذين بينوا لها سوء العاقبة وأفهموها حقيقة الوضعية التي هي عليها وثقل مسؤوليتها، فكانت لا تستطيع الجواب وإنما تنظر إلى الوجوه فإذا ما انفض المجلس وخلت بنفسها تستسلم للبكاء فترسل عبرات بلا نحيب، وكانت تتكلم بذلك جهد طاقتها حتى إذا ما تمكنت مرة من الاطلاع عليها كاد قلبي ينفطر وليس لي حيلة ولا سبب فإنني لم أكمل السنة العاشرة من عمري وقد أستطيع أن أتحمل كل شيء من الآلام إلا أن أرى هذه العجوز الرحيمة الصالحة قد أصابها من الحزن ما أسال دمعها وهي مثال الصبر والتجلد وقد كانت تأتي بأعمال من ذهب عقله أو كاد من الهلع والجزع، فذات مرة في فصل الشتاء دخلت إلى المطبخ لتضع الملح في قدرة الحريرة وسحوق القهوة في إبريقها فوضعت الملح في إبريق القهوة وسحوق القهوة في قدرة الحريرة.

و لم تكن حالة الفقيه السيد أحمد ابن حمزة بأحسن من حالة جدتي في الذهول والغفلة فقد زال عنه المرح والنشاط وشعر بألم لاذع يعض فؤاده وفي كثير من الأحيان كان يستسلم للتفكير حتى ينسانا هل نحن موجودون أو معدمون، وقد زاده قلقا ما صدر إليه من الأوامر فقد عزمت الحكومة الإسبانية على أن تهيئ دار المخزن لاستقرار خليفة المنطقة، من جملة ذلك إدخال المسيد الذي كنا نقرأ فيه لدار المخزن وقد عوضوه

في أول الأمر بالبنيقة التي اتخذت فيما بعد بنيقة لوزير العدلية وهي اليوم إدارة لمحكمة التفتيش الشرعي الإسلامي، فبقينا نقرأ بها نحو الثلاثة أشهر ثم أمروه بعدها بالانصراف عنها لكونها ستجعل إدارة لوزير العدلية فذهبنا مع أستاذنا ابن حمزة إلى المسيد الجديد وهو ذو الدرج التي عن يسار الداخل لجامع لوقش من باب الصحن، ولا أكتم أننا في هذه المدة لم ندرس شيئا و لم نقرأ شيئا لانصراف الأستاذ عنا إلى هموم ذات صدره وفي النهاية لم يتمكن من كبح ألم نفسه على كبر سنه وجلالة قدره فهاجر إلى طنجة كما هاجر إليها أبناء عمنا وكبراؤنا من الأشراف في كثير من الناس، وإذ ذاك ازداد شعورنا بالألم ومكثنا على صغر سننا وقتا طويلا لا ندري أفي الأرض نحن أم في السماء.

وبعد أن هاجر أستاذنا أمرت بأن أقرأ في مسيد سيدي أحمد الفتوح الواقع فوق قوس مدخل السوق الفوقي بالنسبة للوارد عليه من زنقة المقدم، وقد وجدنا في هذا الرجل الطيب بعض العزاء عن أستاذنا و لم يقبض منا طيلة السنوات التي قضيناها في هذه القراءة عليه درهما ولا فلسا وإنما كان يقرئنا لوجه الله وتقديرا لحق آل البيت جازه الله عنا خير الجزاء. وفي هذا المسيد اجتمع كثير من بقية تلاميذ ابن حمزة وبطول الأيام بليت همومنا كما يبلى كل شيء في الدنيا وأخذنا في حياة جديدة وتفكير جديد وأعمال جديدة، وفي مسيد السيد أحمد الفتوح كان يقرأ السيد محمد الكحاك وكان أكبر منا سنا بكثير فقد كان في نحو الخمسة والعشرين من عمره بينما كنت أنا لا أزال في الثانية عشرة، وكان الكحاك على جانب من الأناقة وخفة الروح وكان يحب تلاميذ هذا المسيد حبا جما لأنه يرى في هؤلاء التلاميذ التلاميذ الذين يعمرون مسيد أستاذه سيدي المهدي، ولم يكن الكحاك في حاجة إلى زيادة قراءة القرآن لأنه كان يحفظه حفظا متقنا وقد جعل من أولى وظائفه زيادة على ما يقوم به من طلب العلم خارج المسيد أنه يساعد التلاميذ على قراءة ألواحهم.

وإن من العقبات التي يكابدها تلميذ المسايد عقبة التمرن على القراءة والكتابة فأسلوب تعلمهما في المسيد من أشق الأعمال التي قاسيتها في حياتي وليس عندي إلى اليوم ما يعادلها في العناء والقسوة، فالطفل الصغير يدخل المسيد فيحشر في ذلك المكان حشرا ويستوي هو في درجة واحدة مع الذين يحفظون القرآن والذين يقربون من

حفظه ومن هم أصغر من ذلك وأكبر في اختلاط لا يمكن أن يدركه إلا من عرف المسايد. وحينما يدخل الطفل يوكل إلى نفسه ليعتمد عليها فليس هناك من يرشده ولا من يفهمه ولا من يأخذ بيده وكل عمله لمدة طويلة ينحصر أنه في وقت المساء وعند قرب المغرب يأمر الأستاذ أحد كبار التلاميذ أن يقرئ التلاميذ حروف الهجاء، فيستند هذا إلى الحائط ويحدق به هؤلاء الأطفال وبيدهم لوحات صغيرة كتب على أحد وجهيها آيات أو ثلاث من فاتحة القرآن أو من سور حزب سبيح، وكتبت على الوجه الآخر حروف الهجاء ولم يبق من أثرها إلا شيء ضئيل لأن هذه الجهة يتخذها الطفل مؤنسا يتسلى بها فيأخذ حشائش السمر التي يقتطعها من حصير الجلوس ثم يبل رأس الحشيشة بريقه ويأخذ في رسم خطوط ونقط وما سمحت بأن تخطه يمينه من العبث، فإذا شاهده الأستاذ يعبث أمر بأن يحمله تلميذ كبير فيأخذه بعنف والطفل يدافع عن نفسه بكل حرارة وشدة تكاد تذهب معها نفسه، وستذر الرحمة وتجري الدموع ولكن إرادة الفقيه غالبة فيعصر التلميذ الكبير الطفل الصغير ويضغط بمرفقه على بطنه ويوجه الرجلين الصغيرتين لجهة الفقيه حيث يأخذ قضيبه الذي في الرقة والغلظ بمقدار ما تكون بلغت إليه نفس الفقيه من العنف والثورة، ثم ينهال ضربا والصغير يستغيث ولا يغاث جزاء أنه لعب في لوحه بقصد أن يرفه عن نفسه من جراء الملل القاتل والسجن المهلك الذي هو فيه بهذا المسيد. وبهذه الصورة وحدها كان التعليم ولا يزال إلى اليوم بهذه الصورة حاشا في مدارس قلائل لا تعد شيئا وإن هذه المدارس نفسها لا تتورع عن العقاب بهذه الصورة حتى لأطفال صغار في حالة شدة احتياجهم إلى الرفق والرأفة. وهؤلاء الأطفال الصغار يلتفون مساء حول أحد التلاميذ فيأخذ يلقنهم فيقول ألف فيجيبونه في صيغة تقليدية ألف ثم باء حتى يأتي على الأخير ثم يبدأ عودا على بدء وبطول المدة والتكرار يستطيع الطفل أن يستظهر حروف المعجم، ثم في تعلمه الكتابة يجلس هو ورفقاؤه أمام تلميذ أكبر منه فيخط له الفقيه في اللوح حروفا بارزة بانكشاف الصلصال عن الأماكن التي حصل عليها الضغط الذي يكون عادة بقبض قضيب الفقيه فيؤمر التلميذ بأن يحضر الدواة والقلم، وكم يقاسي المسكين في تحضيرهما وكم يضرب من جراء إهماله للاعتناء بهما وتهيئتهما قبل وقت الكتابة. وقد كان بعض أهل الفضل يقومون بهذا النوع من الإحسان فيوزعون على بعض التلاميذ الصلصال لمحو اللوح

والأقلام للكتابة بها، وقد كان رجل يتاجر في بيع السمك بسوق الحوت القديم كان أحب الناس إلى التلاميذ كنا نسميه عمي حدو، فقد كان هذا الرجل يقوم يوم السبت باكرا ويجلس في دكانه يوزع الأقلام على التلاميذ لا يرد أحدا منهم فكان لذلك من أحب الناس إلينا، وكان ذكره شائعا في أوساط التلاميذ مقرونا بالتعظيم والاحترام لأنه كان يفكهم من أزمات لا حل لها إلا بالضرب المبرح، فإذا انتهى الطفل بعد التي واللتيا من مشكلة محو اللوح وصلصلته مستعينا في ذلك بغيره من الأطفال الذين هم أكبر سنا منه والذين كانوا بدورهم جبابرة على من دونهم ووجد الدواة والقلم وتخطى هذه المرحلة الشاسعة، جلس أمام من هو أكبر منه وبيده القلم كي يتابع به التخطيط (التحنيش) أخذ معلمه يعرك الأذن ويقرص الأفخاذ ويلطم الخدود فلا يخرج الطفل من تتبع التخطيط إلا وقد تعب تعبا مضنيا وقاسى من العذاب ما لا يتصور، والخلاص من هذه الشدائد إنما هو بالرضوخ للفقيه بالعطاء والتقرب من كبار التلاميذ بالهدايا والتحف فمن وجد في يده سعة أو كان في وجهه صباحة نجى من هذه المصائب ومن فقد هذين الأمرين جملة فويل له ثم ويل ولا مخلص له إلا الفرار والهروب، فيظل الولد شاردا لا يرجع إلى البيت ليأكل لأنهم في البيت سيحملونه على الرجوع للمسيد ليعاقب من جديد فيبقى الولد خارج المدينة يسرق الخضر والفواكه ليقتات بها وفي الليل يضطره الخوف من اللصوص أن يلجأ إلى البيت كيفما كان الأمر، وفي الصباح يجاء به إلى المسيد ليصب عليه الفقيه جام غضبه ولا يدري كم يضربه فهو يضرب بلا حساب وربما بلغ العدد إلى بضع مئات من الضربات، والأطفال الذين يركبون رؤوسهم ويتكرر منهم الهرب فرارا بأنفسهم من هذه الحياة التي لا تطاق ولا تحتمل يزاد لهم العقاب فمنهم من يعلق فتربط يداه ورجلاه ويعلق منها ثم يضرب على مقعده وهو في حالته تلك ومنهم من كانت توضع في رجله القيود أو(القرمة) وهي خشبة عريضة تركب على الرجلين وكل هذا يقع بقصد أن يحفظ الطفل بعض سور القرآن. وليس الفقيه وحده جبار المسيد بل هنالك جبابرة صغار هم كبار التلاميذ وقد يبلغ الخوف منهم في بعض الأحيان أكثر من الخوف من الفقيه فيضطر الولد للرضوخ لسائر رغبات من هو أكبر منه لأنه قادر على الانتقام. أما أنا فقد عصمني الله من كثير من هذه الأهوال فقد كان الأستاذ يأمر من يمحو لوحي وكان يهيئ لي الدواة والقلم وكنت لا

أجد عناء في القراءة والحفظ فلا أكاد أفرغ من كتابة اللوح إلا وقد حفظته، فلذلك لم يكن المسيد عندي كما كان عند غيري ما عدا في الأيام التي أعقبت الاحتلال الإسباني حينما كنت أرى أستاذي ابن حمزة قد فقد كل نشاط وانصرف لهموم صدره، في هذه الآونة كنت أنتحل كثيرا من الأسباب لكي لا أذهب إلى المسيد ومن جملة ذلك أنني مرة قد التجأت إلى الكساح فزعمت أنني لا أستطيع القيام، وقد اهتمت العجوزان جدتي وأمي بأمري جد الاهتمام وطفقا في العزائم وزيارة الصالحين يدعوان الله أن ينجيني من الشلل وما بي من كساح ولا شلل وإنما بي ألم داخلي هو أنني لم أعد أنظر إلى جهة المسيد الذي فقدت منه روح نشاط تلك الشبيبة الموقرة. وفي المسيد لا يقل مأساة تعلم القراءة عن تعلم الكتابة فالطفل يلزم بأن ينطق بالكلمات وهو لا يقرأ الكلمات إلا حرفا حرفا حتى إذا أخرج من كلمة أخذ في قراءة أخرى ثم سطرا سطرا، ويا ليت الأساتذة كانوا يثيرون بهذه الطريقة إذن لسهلت القراءة نوعا ما بل إنهم يتركون كل تلميذ موكلا إلى فطرته وقليل هم أولئك النبغاء الذين يوجدون لأنفسهم الميول كي يستظهروا ألواحهم، وكان الأساتذة يشفقون نوعا ما على تلاميذهم في بعض الأحيان فيأمرون الكبار بأن يساعدوا الصغار، أما إذا ورد على المسيد فقيه لزيارة أستاذنا فذلك يوم سعيد وساعة هنيئة لأن هذا الزائر يتطوع بأن يقرأ مع كل واحد لوحه مرة أو مرتين فإذا كان بالمسيد فقيه دائم يقوم بهذه المهمة فتلك منة من منن الله على التلميذ.

وكان مسيد السيد أحمد الفتوح من المسايد التي فيها روح النشاط فقد كان كبار الطلبة يساعدون الصغار مساعدة لا بأس بها لأن الكبار بهذا المسيد رجال ملتحون يرتفعون نوعا ما عن السفاسف، وكان مع ذلك يوجد في المسيد فقيه مساعد دائم كان في أول الأمر هو السيد العربي الشارف رحمه الله ثم بعد ذلك قام مقامه الفقيه السيد الطيب وكل منهما كان أعمى. ومن بين هؤلاء التلاميذ الكبار كان السيد محمد الكحاك الذي لم يكن يعتبر نفسه تلميذا للسيد أحمد الفتوح بل كان يرى نفسه أنه وإياه سواء لأن كليهما من تلاميذ الفقيه سيدي المهدي فكانت له نوع منافسة مع أستاذنا، وكان يظهر الإخلاص للمسيد فكان يقرأ معنا ألواحنا وكان يخصني بمزيد

الاعتناء، وبطول المدة اصطحبنا فأخذت أزوره في مكانه الذي كان أعده لنومه وراحته ومطالعته وقضينا في الصحبة عدة سنوات، وأنا مدين للكحاك بمعرفة الطريق إلى طلب العلم فإنه ألزمني أن أتخذ لوحا لحفظ الأجرومية والمرشد المعين وألفية ابن مالك وشيئا من المختصر ودرس معي متن ابن آجروم مرتين والمرشد المعين مرة واحدة وألفية ابن مالك إلى باب الابتداء. ثم جاءت أسباب تكاد تنحصر في أنني سئمت حياة العزلة التي كان يحياها، كنت أول الأمر أحبها حتى أنني كنت أطلب منه إذا ذهب إلى الدرس أو إلى مشغل من أشغاله أن يغلق الباب بالمفتاح ويصحبه معه لأغتنم الفرصة فأنكب على مطالعة «الروض الفائق» للحريفيش في الوعظ وكتاب «التحفة المرضية» وما جرى مجرى هذه الكتب، وكان فيما كنت أطالع كتاب «المستطرف» وكتاب «ثمرات الأوراق» الذي بهامشه فكنت أجد صاحب ثمرات الأوراق ينقل عدة نقول عن كتاب «درة الخواص» للحريري فلم أكن أفرق بين كتابه هذا وبين كتاب «المقامات»، فوجدت عند صاحب ثمرات الأوراق نقولا لطيفة عن درة الخواص فقلت كم يكون هذا الكتاب جميلا إن قرأته وطالعته ومددت يدي إلى خزانة كتب الكحاك التي زادتني حبا في تلك الحانوت الضيقة وأقبلت على مطالعة المقامات فما كنت أفهم منها شيئا، ولم أكن أقوى على مراجعة الكلمات اللغوية لأنني لا أزال ابن ثلاث عشرة سنة ولم يسبق له دراسة ولا تمرين على المطالعة عدا ما كان يدفعني إلى الفضول وتسوقني إليه الغريزة غير أنني لم أكن أخرج خاوي اليدين بالمرة من قراءة المقامات بل كان ملخص القصة يعلق ببالي، ولم أرد أن أسأل الكحاك عن القصص اللطيفة التي كنت أقرؤها في المستطرف وثمرات الأوراق لأنه كان يريد مني أن أطالع كتب النحو والفقه فلزمت الصمت على عادتي في صغري واستمررت في مطالعة المقامات حتى أتيت على آخرها، وكم كان أسفي عظيما حينما لم أعثر على ما كنت أطلبه فيها فعلمت أن كتاب درة الخواص غير كتاب المقامات غير أن قراءة المقامات وما بها من قصص وحيل لم أفهمها حق الفهم حملتني على أن أعيد فيها النظر مرة أخرى لأن القصص والحكايات كادت تكون أحب شيء إلى نفسي على عادة الأطفال، وكم كان سروري عظيما حينما قلبت خزانة الكحاك فوجدت فيها الجزء الثالث من كتاب »ألف ليلة وليلة» وفي أوله حكايات السندباد البحري، ثم لم تعد هذه الخزانة الصغيرة تقنعني نظرا لأن كتب

القصص والأدب قليلة بما ثم ما هو موجود منها فإنني قد طالعته أكثر من مرة، فدفعني ذلك إلى أن أتخذ خزانة كتب لنفسي في بيتنا فطفقت أشتري الكتب من سيدي الحاج محمد بن عبد الهادي القادري فوجدت فيه تساهلا يفوق الوصف فكنت أشتري الكتاب وأؤدي ثمنه أقساطا فلا أكاد أفرغ من قراءته حتى أفرغ من أداء ثمنه، وكانت بين يدي الدراهم بكثرة بالنسبة لباقي رفقائي فقد كان أهل هذه العاصمة التطوانية يعتقدون في أبي رحمه الله الخير والصلاح وكانوا يرون أن لي حظا من والدي فكان الناس إذا مرض لديهم المريض كانوا يقصدونني في أول ما يقصدون حتى أن وقت الصباح كله كاد يكون لدي مستغرقا بالعيادات والزيارات بقصد الرقي والعزائم وكتابة التمائم، وكان الناس يجدون بركة حسن نيتهم وعقيدتهم فكان الكثيرون يعافون بعد أن أرقيهم أو أكتب لهم التمائم و لم يكن هذا العمل عملا عاطلا بل كنت أستفيد به شيئا من الدراهم أستعين بها على شراء الكتب، على أن جدتي رحمها الله كانت رغم ثقل أعباء مسؤوليتها لا تزال تقدم إلي كل ما أطلبه منها ولا تكاد ترد الطلب في وجهي، ورغم صغر سني فإنني كنت أشفق عنها وأتعفف عنها وأتقلل من الملابس والملذات وأحمل نفسي على الصبر والشظف لأن كتب الوعظ التي كنت أقرؤها كانت مليئة بذكر الزهاد والصالحين وما كانوا يلقونه جزاء زهدهم وورعهم فكنت أجد بركة هذه الكتب تنفعني وترشدني إلى كثير من طرق الخير. وكان الناس يحترمونني على ما يرون علي من الوقار وحسن السمت ولا أذكر مدة حياتي أن شخصا تجرأ علي بكلمة وقحة أو جريئة وقد مضى الماضي بخيره وشره، ولكنني أشهد الله وأنا في سن الكهولة أنني لم أكن أقصد إلا وجه الله و لم تكن الرياء تخطر لي على بال ولا كنت إلا مدفوعا بغريزتي وتربيتي، و لم يكن عندي شيء أحقر شأنا من قول الناس بل إن انتقادهم كان يحملني على الإصرار والعناد فلقد كنا نزور الفقيه الكحاك مختفين من الناس كي لا يرانا أحد، فلما تكرر تواردنا عليه ذهب النصحاء الموجودون دائما في كل زمان ومكان فحرضوا بعض أصدقاء عائلتنا على هذه العلاقة الجديدة بيننا وبين الكحاك وكان من بينهم المعلم السيد عبد السلام غجو الوكيل الحالي بإدارة القضاء الشرعي، فذهب غجو وأبلغ خال أبي السيد محمد علوش رحمه الله ما بلغه عن الناس فقصد الاثنان دكان الكحاك وطرقا الباب، وكان للكحاك في دكانه سرير مرتفع

فأصبح أسفل السرير مكانا آخر ربما كنا نجلس به في بعض الأحيان، أما النور والهواء وشروط الصحة فلم يكن أحد بالحاجة إليها لأنها لم تكن معروفة إذ ذاك إلا قليلا، وكان الكحاك يغير الغاز الفاسد الذي يملأ ذلك المكان الضيق فيطلق بخور العود فيكسب المكان رائحة ذكية، وكانت عادة الكحاك إذا سمع طرق باب الدكان يطل من ثقب المفتاح فإذا كان الطارق من أصدقائنا فتح الباب وأذن له في الدخول وإن كان ممن لا نريد أن يطلعوا علينا أشار لنا فتسللنا ودخلنا تحت السرير حتى إذا ما فتح الباب لم ير الطارق شيئا. وعندما طرق الباب غجو وعلوش أشار لي الكحاك بالاختفاء ففعلت فلما فتح لهما الباب إذا بهما يسألانه عني ويطلبان منه أن لا يتركني أزور مكانه، وهذا يقع وأنا أسمعه تحت السرير فكادت نفسي تذهب غما وخرجت بعد انصراف الرجلان [الرجلين] وقصدت العجوز جدتي فوجدتها قد بلغها الأمر وهي تنتظر ماذا سيقع لأن ظروفها الخاصة تحملها على مجاملة الرجلين، فإن أحدهما أخوها شقيقها والثاني من أصدقاء عائلتنا وممن يحبوننا مخلصين ما في ذلك ريب ولا شك فوقفت موقفا دقيقا وبقيت متحيرة في أمرها، وبينما هي تفكر في الموضوع إذا بي أدخل البيت وقد شعرت بكرامتي تمس وبالإهانة موجهة إلى شخصي ففارت ثائرة غضبي وإذا غضبت استلمت من صورة حمل وديع إلى حيوان شرس، فما أذكر أنني سمعت عليها مثل ذلك اليوم ثم قلت لها اعلمي أن ما كنت أخفيه وأتستر به فإنه سآتيه في رابعة النهار وافعلوا ما بدا لكم ثم رجعت قاصدا دكان الكحاك وجلست فوق السرير وأمرته بفتح الباب يبصرني كل من يمر من عدو أو صديق، وانتهت المشكلة بهذا الحل الصارم فلم يتجاسر بعد ذلك أحد من الأقربين أو الأبعدين على التدخل فيما لا يعني من الشؤون سواي.

وحقيقة أن الكحاك كان يعاملني معاملة خاصة وكان يبالغ في شأني حتى أنه عندما كان يقرأ شمائل الترمذي على الفقيه العلامة شيخنا ابن الأبار أدلى إلى صديقه الحاج عبد السلام ابن القت حسبما أخبرني بذلك الحاج عبد السلام ابن القت نفسه بقوله إنني لا أقرأ وصفا نبويا في هذه الشمائل إلا وأجده ينطبق على سيدي التهامي الوزاني، فانظر إلى أية درجة كان يصل هذا الرجل في احترامي وتقديري أفليس من الخسارة أن أفقد في ريعان شبابي صديقا من هذا الطراز؟!.

وطالت صحبتنا سنوات وأخيرا انفصلنا لأنني أحببت أن أتصل بالأصدقاء من أقراني ومن هم في مثل سني وعلى رأسهم صديقي الوفي من ذلك العهد إلى يومنا هذا الحاج محمد بن العربي بن المهدي بنونة الذي كان يحبني وأحبه من جميع قلبي وقلبه، كما تحب الفراشة النور والشمس وكما يحب المحبان نور القمر وهدوء الليل وكما يحب الليل فصل الربيع وحوافي العيون الجارية والأشجار الملتفة.

وعندما فارقت الكحاك لم يخطر ببالي شيء إلا أنه سيشمت بي حينما يراني قد ملت إلى اللهو وانصرفت عن الدرس والتحصيل فقد يقول في يوم من الأيام انظر إلى فلان وحالتيه: الحالة التي كان عليها وهو يصادقني والحالة التي أصبح فيها بعد أن فلاني ولفظني لفظ النواة، وتلافيا لهذه الشماتة أصبحت من الغد مباشرة في درس العلامة ابن الأبار وهو يدرس متن السلم في علم المنطق ولا يحضر هذا الدرس إلا نجباء الطلبة وأقدمهم في طلب العلم، فكان أول درس حضرته كطالب تحت يدي لبدتي وقمطري و لم يكن معي من العلم إلا قراءة مقدمة ابن آجروم التي قرأتها مرتين وإلا المرشد المعين وأوائل الخلاصة وهو كل ما درسه معي الكحاك، فأخذ رفقائي العجب من اقتحامي هذا المركب الصعب وصارحوني بأن لا طاقة لي بدراسة المنطق وليس معي من الأدوات العلمية إلا بضاعة مزجاة، ولكنني صممت وعزمت على مواصلة الدرس وتفهمه ومن أول يوم لم أجد فيه الصعوبة الموهومة و لم أجد فرقا كبيرا بين الأجرومية والمنطق وسيما وقد كان العلامة ابن الأبار حسن العبارة يتكلم كلاما لو حاول الرجل أن يكتبه لفعل، وكم من مرة كنت أجد الطلبة الكبار منهم والنجباء وقد تجمعوا في زاوية من زوايا المسجد وهم يحاولون حل عويصة صعبت عليهم فأدنو منهم وأنظر في أي شيء يتحاورون فلا أصدق أنهم اختلفوا فيما اختلفوا فيه أو صعبت عليهم مسألة وأنا أدركها كما أدرك أصابعي الخمسة إذا مددتها، وكانوا من جانبهم يتهيبونني ويصاب بالخرس أكثرهم كلاما، وكل هذا مع عدم اعتنائي بالمطالعة والمراجعة فإن المحفظة التي بين يدي ليس بها كراريس الدروس فحسب بل بها كراريس من كتاب ألف ليلة وليلة أو أي كتاب آخر قصصي أو أدبي، وما هو إلا أن حضرت الدروس حتى انفتح أمامي باب واسع من الأمل وغاب عني شبح الخوف المهول الذي كان يتهيبه رفاقي.

وكان من أصدق أصدقائي المرحوم سيدي عبد الرحمن اليعقوبي رحمه الله فلقد كان يحبني حبا لا يحبه أحدا من الناس وكان كثيرا ما يقول لي إذا خلونا لست والله أدري كيف أعبر عن قيمتك لدي وحبك في قلبي، فكان يأتي بمحفظته وقد نظم قصيدة أو كتب فصلا في تحرير مسألة من المسائل فيعرض ذلك علي فإن استحسنته وبينت له وجه الاستحسان احتفظ به وأذاعه بين رفقائنا، وإن أبديت له اعتراضا وذكرت له وجهه أسرع فقطع الورقة ثم أوقد فيها النار وأنا أنازعه في ذلك حيث أرى أن هذا مجهود قد بذل وله وجهة نظر ولكن اليعقوبي لم يكن يحتفظ إلا بما كنت أرضى عنه تمام الرضى. ولا أذكر أنني رأيت أحدا في مثل حفظه واجتهاده وقرب فهمه ومطاوعة سجيته الشعرية أما أنا فكنت في واد آخر أجد فيه نفسي غريبا رغم إطار الاحترام الذي كان رفقائي يضعونه حولي، فكنت أعيش في عالم منفرد عالم بغداد وعصر الرشيد بما فيه من قصف ولهو وزهد وإيمان وإخلاص عقيدة طبق ما يصور كتاب ألف ليلة وليلة الذي كنت أحفظه حفظا ولا تغرب عني منه شاردة من الشوارد. وكانت مكتبتي الصغيرة التي أخذت ألمها لا تشتمل بعد الكتب المدرسية إلا على كتب الأدب وكنت أقبل عليها دون أن يدفعني أحد ودون أن أعرف أنها تسمى بكتب الأدب، ولكنني كنت أجد فيه اللذة والمتاع فأنصرف عن مطالعة الدروس إلى مطالعتها حتى إذا حضر وقت الدرس أخذت لبدتي فيها وقعدت مجلسي، فإذا أخذ الأستاذ في الإملاء كنت أتخيله شاه شطرنج وأرتب الطلبة نوعين فذوي الجلاليب البيضاء يشبهون قطع الشطرنج البيضاء وذوي الملابس السوداء يماثلون القطع السوداء حيث كنا في هذا الوقت مبتلين أشد بلية بلعب الشطرنج. وهكذا أقضي الدرس أنقل الطلبة في مخيلتي من خانة إلى خانة حتى ينتهي دور اللعب بانتهاء الدرس ويزدحم الطلبة على تقبيل أطراف الفقيه فيشبهون القطع إذا حاصرت الشاه. وفي أثناء الدرس ترن كلمة الأستاذ في أذني كما ترن في أذن من هو بين النوم واليقظة فتكون كافية لي في تحصيل الدرس بحيث لو كلفت إلقاءه لألقيته وفي الكثير منه حتى بإملاء الأستاذ ونفس عباراته، وعكفت[1] على الدراسة بهذه الصورة دون تغيير عكوفا كليا حتى بلغت الدروس التي كنا نقرؤها ثمانية دروس في اليوم فكنا نقبل عليها في نشاط وسرور دون أن نجد ثقلا ولا كلفة ولا

(1) تلفت في الأصل.

عناء. وهذه الفترة جعلتني أغفل عن كتب الوعظ وأقلل بحكم كثرة الشغل والانصراف إلى معاشرة الأخلاء من الجلوس إلى جدتي، فأصبت بالنكسة من ناحية القيام بالواجبات الدينية فقد وجدت أكثر الطلبة لا يصلون وربما صلى البعض منهم بدون وضوء صلاة العشاء التي لم يكن مناص من صلاتها لأنها تقام بعد انتهائنا من درس الرسالة التي كنا نقرؤها على شيخنا سيدي أحمد الرهوني بمسجد العيون، أما أنا فلا أذكر أنني صليت بلا وضوء لأنه لم يكن شيء على ذلك فأنا لا أبالي إذا قام الناس للصلاة أن أنصرف لحال سبيلي دون أن أخشى ما يقولون لأن اعتبار الناس عاطفة لم أتذوق طعمها، وإذا كانت متممات تقويم الإنسان فأنا قد أصبت فيها بالشلل فلا تتحرك لهذا المعنى أدنى حركة، وطال علي ليل الغفلة حتى أنني قضيت أكثر من سنة لم أسجد فيها لله سجدة وهذا بعد البلوغ ونياطة التكليف مع أنني كنت قبل أن أبلغ مبلغ الرجال لا تكاد أن تفوتني نافلة من النوافل فضلا عن الفرائض وأنظر إلى كتب الوعظ وما بها من دلالة على فعل الخير فإنني كنت في الكثير أفعل ما تحض عليه. ولقد كنت صغيرا جدا أذهب كل مساء إلى الفدان للإنصات إلى القصاصين فالقصة أحب شيء لدي، وكان هنالك قاص يحدث عن الشيخ عبد القادر الجيلاني فذكر من مناقبه أنه مكث أربعين سنة يعبد الله على رجل واحدة، فلما كان من الغد ذهبت لأصلي الظهر الأول بمسجد الباشا لأنه كان قريبا من مسيدنا ولأن إمامه هو أستاذنا ابن حمزة فكنا نصلي فيه أكثر الأوقات، وفي هذه المرة رفع الإمام يديه بالتكبير فكبرت بتكبيره ثم رفعت إحدى رجلي ولعلها اليمنى ونظرا لصغر سني أخذت رجلي تضطرب وأنا أتجلد وكلما وصلت إلى الأرض رفعتها كي أؤدي الصلاة على الطريقة التي صلى بها مولاي عبد القادر الجيلاني مدة أربعين سنة حسبما قاله القاص الذي لم أكن أتهمه بالكذب، لأن الكذب شيء لا أعلم أن له وجودا في الخارج وقد يكذب الأطفال فيما بينهم ولكن أحدا ــ في نظري إذ ذاك ــ لا يمكن أن يفتري على الأولياء وإنه لو جعل ذلك لنزلت نار من السماء فأحرقته أو مسخ حجرا أو خنزيرا، وطال الزمان وكبرنا حتى سمعنا أنه يوجد من بين المسلمين من يكذب حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنني في ذلك الوقت ما كنت أعرف كذبا وقد يكون خطر ببالي كيف أن أستاذنا ابن حمزة لا يصلي واقفا على رجل واحدة، وقد أكون اعتذرت بكبر سنه أو لكونه لم يصل إلى

مقام مولاي عبد القادر فإن شيخنا ابن حمزة وإن كان صالحا فإن مولاي عبد القادر أفضل منه لأنه سلطان الصالحين، وكيفما كان الأمر فقد تصورت الفكرة واعتقدتها ونفذت عزمي وقضيت الصلاة كذلك عدة مرات، فكان الناس الذين يرون ذلك يعتقدون أنني ألعب وأعيث لأن سني الصغيرة كانت تجيز ذلك وثرا منه وليس العجب أن أفعل ذلك وإنما العجب أن يوفق مثلي إلى الصلاة ودخول المسجد في ذلك الوقت الذي كان لا يكتب القلم إلا على من بلغ الثلاثين سنة، أما من لهم عشرون أو أقل أو أكثر فإنهم لا يزالون مكشوفي الرؤوس يلعبون لعبة «حفيرة» ولعبة الخذروف وما شاكلهما، والكثير لا يصلي إلا صلاة العصر لأنها الوقت الذي يلزم فيه الفقيه تلاميذه بأداء الصلاة فكنت ممن شذ عن هؤلاء والتزم الصلاة بالمسجد. وبينما أنا ذات يوم وقد قضيت الصلاة إذا «ببوعميرة» رحمه الله ينبهني إلى أن الصلاة يلزم أن تكون والرجلان مستويتان، فلم يخامرني شك في أنني كنت مخطئا في الإتيان بعمل قد يكون خاصا بمولاي عبد القادر وأن من يفعله قد يعد متجرئا على سلطان الصالحين سيما وأن الذي أجرني بغلطي رجل من خدامنا والمنتمين إلينا، فقد كان بوعميرة كلما قابلني قبلني بين عيني وأكثر من الاستصراخ بمولاي التهامي ومولاي عبد الله الشريف وترحم على والدي سيدي عبد الله الذي كان يعتقد فيه ما يعتقده في غيره من الصلاح والولاية، أضف إلى ذلك أن أبا عميرة كان برذعيا يصنع الأحلاس وكان ملازما لإصطبل المخزن الذي كان إلى نظر الحمار المعلم عبد السلام معمر، ومعمر هذا ابن خالة جدتي، وجدتي لم ترها أمها بل إنها قد تركتها وإخوتها صغارا فتزوج أبوها بأخت زوجته وكانت أرملة تربي ولدها المعلم عبد السلام معمر، فتربى معمر وجدتي وإخوتها والكل لا يعتقد إلا أنه أخ شقيق للآخر. وكان معمر ذا عاطفة نبيلة فكان يهتم لاهتمام أخته علوشة فيما بعد أن أصيبت بوفاة جدي فكان يعتبر نفسه المسؤول الواحد عن هذه العائلة وكان يرى نفسه عبدا مملوكا لوالدي. وإلى جنب معمر كان أبوعميرة وبعد أن توفي أبي شق الأمر على معتقديه فوجهوا وفهم شطرنا، فعشنا رغم يتمنا وفقرنا معززين مكرمين في الداخل والخارج لا نذكر أننا أصبنا بإهانة من الإهانات مدة حياتنا والحمد لله والمنة.

كيف أخذت أطلب شيخ التربية

لا أستطيع أن أعبر كيف كان اعتقادي في الصالحين وأهل الله إلا أنني كنت كلما ذكر أحدهم تأخذني رعدة ومهابة ويمتلئ فمي بالترضي عنهم والدعاء لهم، وكنت أتنكب كل ما ينسب إليهم احتراما لهم كي لا أسيء الأدب في جانبهم، وإذا كتبت شيئا من كلامهم تحريت بالضبط النص والشكل والنقط ولا أقدر أن أزيد في تحليتهم بالأوصاف عما أجده مسطورا في الكتب أو الأوراق التي أنقل عنها، فمن وجدت في وصفه أنه العارف لم أزد على ذلك وكذلك أوصاف القطبانية والغوثية والفردية والبدلية وما جرى هذا المجرى، عالما أنني إن نقصت في شيء فإنني أسيء الأدب معهم وإن زدتهم على النصوص أخاف أن أحسب متجرئا على الله وقائلا بما لا أعلمه لأن هذه التحليات أمرها راجع إلى النقل عن الصالحين أنفسهم. وأذكر أنني ذات مرة كنت أكتب شيئا من كلام الشيخ سيدي محمد الحراق فوجدت الناسخ حلاه بلفظة القطب فنسختها كما وجدتها، فأقبل صديقي محمد بنونة إذ كان ذلك قبل أن يحج وينهي دراسته وكنا نجتمع بدرب شرفاء وزان من زنقة المقدم فإنه بعد أن أغلق بابه الموصل إلى المشور الذي كان يسمى الباب الأخضر أو الباب الخضراء على عادة التطوانيين في تأنيث لفظ الباب، عمدت أنا وأخي سيدي محمد فأنشأنا في قعر الدرب حيث مدخل الباب المذكور كوخا صغيرا من الخشب كنا نجتمع فيه وكان ناديا حافلا للطلبة وأبناء الأعيان، ففي هذه المرة بينما أنا قاعد أطالع إذ جاء بنونة فوجدني منفردا وقلما كانت تتاح لنا الفرصة لنتحدث على انفراد فوجد دفترا بالقرب مني فأخذه ونظر في آخر ما نقلت حيث كان يهتم بما أنقله في دفتري فينقله هو أيضا إلى دفاتره

فوجد قطعة من كلام الشيخ الحراق فرأى أنني حليته بوصف القطبانية وكنا نعلم ما لهذه الكلمة من معنى عند أربابها في الجملة، كما كان أصحاب السيد سيدي عبد السلام ابن ريسون يغارون على هذا الوصف فلا يحبون أن يطلق على كثير من الصالحين وكانوا يفتخرون بأن شيخهم ممن أكرمه الله بهذا الوصف الكريم. وكان صديقي بنونة يعلم مقدار التحري الذي أتحراه قي هذا الباب فلما شاهد ما كتبته سألني في اهتمام: هل الشيخ الحراق رضي الله عنه كان من الأقطاب؟ فأجابته بالإيجاب اعتمادا على ما رأيته مخطوطا عند ناسخ القطعة التي نقلتها، ثم أقبل أحد أصدقائنا ممن لا يشاركنا في تذوق هذه الأمور فطوينا البساط وخضنا في حديث غير الذي كنا نخوض فيه، وانصرف الوقت سريعا فذهب أصدقاؤنا إلى بيوتهم وكل واحد منهم بناحية من النواحي. فلما كان بعد ذلك بأيام قلائل استطعنا أن نختلي أنا وبنونة فحدثني في شأن الحديث السابق فوجد رأيي لم يتغير وأكدت له أن الشيخ الحراق من الأقطاب، فسألني عن حجتي في ذلك فأطلعته على أن من نقلت عنه وجدته يذكر هذا الوصف الذي لا يمكن أن يكون ذكره إلا اعتمادا على سند من أهل الكشف الذين فتح الله بصائرهم فاطلعوا على مراتب الولاية، ولا يتصور سند آخر في هذا الباب عدا هذه الصورة وإننا يلزم أن لا نزيد ولا ننقص على ما وجدناه عند السابقين فيما يتعلق بأمور نقلية صرفة. فأكد لي بنونة هذا الرأي وزادني قائلا إن الأمر عند أتباع هؤلاء المشايخ لا يقف عند هذا الحد بل إنهم يحتفظون على أمور أدق من هذه، ثم ذكر مما يصح شاهد إيماننا أن أباه الحاج العربي بن المهدي بنونة ــ وهو من خاصة أصحاب سيدي عبد السلام ابن ريسون ــ حدثه أنه ذات مرة أخذ قصيدة سيدي محمد بن علي المعلومة ب «حضرة أنا سيدي عندي طبيب» ولهذه القصيدة تلحين معلوم نقل عن قائلها فطفق الحاج العربي يقرؤها في تلحين غير الذي جرت العادة أن تقرأ به و لم يعتقد أنه فعل شيئا يوجب اللوم والتقريع، فلما كان الليل رأى الحاج العربي في منامه أحد كبراء الأشراف الريسونيين رضي الله عنهم وهو يقول له لا تعد إلى اللعب بالأفعى، فاستيقظ الحاج العربي فزعا مرعوبا وتذكر ماذا فعله واستعرض أعماله في اليوم السابق فوجد أنه حاول أن يرتل القصيدة السابقة على طريقة غير الطريقة التقدسية فندم على ما صدر منه وآلى على نفسه أن لا يعود لما فعله.

إلى هذه الدرجة كنا نعتقد في الأولياء والصالحين وبهذا التعظيم كنا نعامل أهل الله ولم يكن يخطر ببالي أو كنت غافلا تمام الغفلة عن أن لنا سلفا بلغوا إلى درجة عظيمة من العبادة والنسك، وغاية ما في الأمر أنني كنت أسمع أن لنا سلفا عظيما في مجده دون أن أعرف ما هي الأسباب التي علت بهم إلى الدرجة التي وصلوها حتى أتاحت لي الظروف قراءة « تحفة الإخوان » و « الأنيس المطرب »، فوجدت فيه بعض مناقب سلفنا فأخذت أبحث عن هذه الرابطة التي تربطنا بهؤلاء السادة الكرام، فذاكرت جدتي في هذه القضية فأجابتني أن ليس بيننا وبين هؤلاء الأسلاف إلا آباء قلائل العدد ثم انجر الحديث إلى أن قالت لي إن سلسلة نسبكم عندي محفوظة في رسم صداق زواجي بجدك ففيه ذكر هذا العمود من النسب الطاهر إلى أن ينتهي إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها علي بن أبي طالب، وتمت كل الرغبة في الاطلاع على رسم الصداق وكانت جدتي تحتفظ به أكثر من كل كنز ثمين يحتفظ به، فلما رأت تلهفي على معرفة عمود نسبي قامت وأخرجت رسم صداقها فأخذته لأنتسخ منه سلسلة النسب فإن صاحبه جدي مباشرة وليس بيني وبينه إلا أبي، فأخذت الرسم وذهبت به الكوخ الصغير على جري العادة وهنالك اطلع عليه صديقي بنونة فطلب مني أن يأخذه معه ليطلع عليه والده الذي كنت أعتبره أنا كوالدي أيضا وكنت أحترمه وأحبه كما أحترم وأحب والدي لو كان حيا يرزق، وكان هو رحمه الله يضمر لي من الحب مثل ما أضمره له زيادة على أنني كنت أعتقد فيه طرفا من الصلاح لما كنت أراه عليه وهو في داره التي كانت عندي كداري من الانكباب على قراءة دلائل الخيرات وتلاوة القرآن الكريم في المصحف، فلم أزد كلمة على بنونة دون أن لففت رسم صداق جدتي ومكنته منه، فلما اطلع عليه الحاج العربي وقرأ سلسلة النسب قال لولده محمد فيما حدثني به محمد إن هؤلاء الرجال الذين يكونون سلسلة واحدة ليس منهم إلا عالم أو قطب أو ولي وكان الحاج العربي أعرف مني بأولئك الرجال. وفي الغد رد إلي صديقي محمد الرسم المذكور وحدثني بقول والده فيما يتعلق بهؤلاء الأبناء الكرام من لدن أبي وجدي إلى نهاية النسب، فأخذت[1] أفكر في شأني وما أنا فيه من غفلة وإعراض عن الله وتفريط في جنبه وجال في ذهني أن هؤلاء سوف يكونون في

(1) سقطت التاء في الأصل.

الجنة في مراتب سنية بينما أكون أنا أعذب في النار لأنني لا أستحق سواها لكثرة إعراقي على نفسي وجنايتي عليها. وحاولت أن أنسى هذا الألم والتأنيب جهد طاقتي وكلما كدت أن أنسى تمثل أمامي آبائي الصالحون وأن وحدي الذي سأكون مخزيا أمامهم، وطفق هذا الأمر يساورني الحين بعد الحين والفترة بعد الفترة حتى أصبح وسواسا لا يفارقني و لم أجد أمامي من تسلية إلا إعادة النظر في كتب الوعظ التي نسجت عليها عناكب الإهمال في خزانتي الصغيرة، فطويت كتب الأدب التي تجمح كثيرا وتصور حياة الخلاعة أكثر مما تمثل حياة التوبة والورع، وزاد في حيرتي أنني كنت أجالس في بعض الفترات الشريف الحاج محمد بن عبد الهادي القادري فكان يحدثني عن سلفه الكرام حتى إذا آنس[1] مني الإصغاء إلى حديثه الذي كان يضرب على الوتر الحساس في قلبي فاضت سجيته وطفق يخبرني عن أيام نجده ونسكه وكيف بلغ به الأمر حتى اتصل بالشيخ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني، فقد ذكر لي القادري المذكور أنه ذات مرة هاجت به لواعج حب الشيخ فطرق عليه الباب دون شعور، وكان سيدي محمد الكتاني إذا علم أن أحدا من أهل البيت يطرق عليه الباب خرج بنفسه حافيا لما كان يضمره من تعظيم لجانب رسول الله وآل بيته ولاسيما ذوو النسب المحقق كحفائد الشيخ عبد القادر الجيلاني. فلما علم الشيخ الكتاني أن الذي يطرق الباب هو القادري خرج حافيا على العادة فاتحا ذراعيه تفيض على لسانه الطاهر كلمات الإجلال والتعظيم والتوقير. قال القادري فلما شاهدت طلعة الشيخ وقلبي قد كاد يتمزق من الوجد لم أشعر إلا وأنا أتمرغ بين يديه وأقبل رجليه، فاستعظم الشيخ الكتاني أن يقبل قدمه رجل ينتمي إلى 34 وفاضت عيناه الكريمتان بالعبرات فأخذني وضمني إلى صدره وقبل ما بين عيني وقبض على يدي ودخلنا البيت الكتاني بيت المجد والولاية والدين والورع والنسب الواضح، فلما أجلسني حيث أراد في أشرف مكان سألني عن قصدي وعما جعلني في هذا الذهول، فقلت له يا سيدي ما دفعني إليك رغبة ولا رهبة وليس لي حاجة دنيوية فقد كفاني الاستظلال بظلكم من أن تصل إلي يد سوء ولكنني ظمئت واشتد ظمئي إلى حياة التلمذة وأن تأخذوا علي العهد لأنخرط في سلك القوم، فقد طالبتك مرارا وحاولت هذا الأمر غير ما مرة وكلما ألححت في الطلب أمهلتموني

---

[1] في الأصل نسى.

وإنني أخشى أن أكون من المطرودين الذين ليسوا أهلا لأن يعدوا من أصحابكم. قال القادري: وانفجرت عيناي بدمعها المدرار فأشفق الشيخ من حالي وغطى ثوبه الوافي عيبـــي ونقصي ولقنني الورد الكتاني وقبلني من أتباعه وخدامه، فقضينا معه صحبة الفقراء أياما لم نكن نحسب أنها كانت من أيام الدنيا بل كانت من أيام الجنة التي أصحابها يصبحون إخوانا على سرر متقابلين قد نزع الله ما في صدورهم من غل وطلقوا الدنيا وشهوتها فلا يباشرون شؤونها إلا امتثالا لأمر الشريعة وقياما بواجب الأهل والأولاد، حتى لقد كان بعضنا يتحدث إلى بعض بأننا والحمد لله قد أدركنا بعض ما أدركه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفزنا ببعض ما فازوا به، حتى لقد كنا نشاهد في كثير من الأحيان أن ذات الشيخ قد اختفت وملأ مكانها ذات سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، وفي بعض هذه الحالات كان يخاطبنا ببعض ما يخاطب به النبي عليه السلام أصحابه وقد قال لنا ذات مرة «كنتم خير أمة أخرجت للناس».

ولا زال القادري يحدثني المرة تلو المرة بما فتح الله به عليه من صحبة الشيخ الكتاني حتى سلب عقلي ولبي. وكان القادري إذا أخذ في هذا النوع من الحديث الذي فيما أظن لم يكن يتحدث به إلى أحد تظهر عليه حالة عظيمة ويصفر لونه وترتعد فرائصه ويختفي من أمام العين ذلك القادري المرح النشيط الذي كان يهزأ بالدنيا وبنيها ولا يكاد أحد يراه إلا وهو يذكر نكته أو يتحدث عن النساء ومجونهن وخلاعتهن، ولكنني في أول الأمر كنت أراه على شيء من التناقض فبينما هو يلعب ويضحك بملء فيه حتى تبدو نواجده إذا بالسائل يقف أمامه فلا يرده خائبا، وما رأيته رد سائلا قط على كثرة ما كانوا يقصدونه للطلب وكان يتصدق بكل ما وجد فهذا يعطيه دراهم وذاك يعطيه من الطعام وهذه يناولها قطعة من شمعة من الشمع الحر الذي كان يصنعه في داره فقد كان أهله يجيدون صناعة شمع الصالحين، وكان كثيرا ما يعطيني أشياء من الطيب كالعود والعطور وما إلى ذلك، فكان أمره عندي في أول الأمر غريبا لا أستطيع أن أفسر التناقض الذي أراه عليه ولا أتمكن من تعليله رغم أن فضولي يدفعني إلى تفسير كل شيء، وكان رأي الناس فيه واضحا فقد كانوا لا يرون فيه إلا رجلا خليعا شهوانيا، وما كنت أعتقد اعتقادهم ولا أرى رأيهم لأن الشذوذ الذي كان عليه كان

يحملني على الاعتقاد بأن هذه الشخصية شخصية مزدوجة ثم ما كان عليه من الشجاعة لم يبق لي شك بأن الرجل أعظم بكثير مما يتصوره الناس، وأذكر أنه في أحد فصول الصيف كان يلبس غفارة وهي بذلة تشبه العبارة مع زخرفة وتكفيف بالحرير وجمم قد أرسلت منها ثم يلبس على رأسه عراقية وهي ستر للرأس مثل الطربوش قد طرزت بالحرير والذهب، وكان عندنا ها هنا بتطوان أن لابد منها للمختون فلا يلبسها سواه، فكان القادري يلبس هذه البذلة الغريبة الشأن ويخرج إلى وسط الفدان يتمايل يمنة ويسرة. أما بيته فكان بيتا للضيوف من أي جهة كانوا فإنه لم يكن أعز عليه من إنفاق ماله على الناس لا يجد في ذلك كلفا ولا تعبا ولا يتحدث بما فعل، وقد كان يستدعينا عدة مرات لبيته وفي بعض الأحيان كنا نجده قد أفرش باب الدار وصير المدخل غرفة للاستقبال وهو متكئ على عتبة الباب لا يبالي بأحد ولا يهمه إلا ما هو فيه. وقد كنا ذات مرة عنده أنا وسيدي عبد الرحمن اليعقوبي فقدم لنا طاجينا من الدجاج لو شاء الرجل المتوسط أن يجلس فيه لفعل ولم يكن حاضرا إلا ثلاثتنا وخويدم صغيرة السن تخدمنا، فتحدثنا في موضوعات شتى وسأله سيدي عبد الرحمن اليعقوبي عن الخادم الصغيرة فأجابه القادري بقوله: إذا أعجبتك فإني أبيعها لك فإذا كان يمكنك أن تشتريها وتدفع ثمنها في عشرين يوما بعتها لك، ولا أطلب في ثمنها إلا أن تعطيني في اليوم خمسة سنتيمات ثم تضاعف كل يوم ما دفعته في اليوم السابق، ولم يكن اليعقوبي يعرف قضية الحكيم صصة التي لما اخترع الشطرنج فتح له الملك باب الطلب فطلب أن يعطى من القمح ما يضاعف بيوت الشطرنج بحيث توضع في الخانة الأولى حبة وفي الثانية اثنتان وفي الثالثة أربع وفي الرابعة ثمان وفي الخامسة ست عشرة إلى نهاية الخانة الأربع والستين، فاستحقر الملك هذا الطلب من الحكيم صصة وأمر بتنفيذه إليه فلما أخذ الحاسبون يحسبون ذلك وجدوا أن خزائن الملك لا تفي بطلب الحكيم. فكان اليعقوبي غير عارف بهذه القصة أو كان عارفا بها ولكن على جري عادته رحمه الله في معرفته للأمور فإنه كان يدرك المعقولات بسرعة تفوق الحد ثم لا يفكر في أكثر من تحصيلها، فأجاب القادري على الفور لقد اشتريت منك اشهد عليه يا سيدي التهامي، فقلت لليعقوبي لا تفعل فما مثل القادري من يصح أن يغبن في صفقة، فأصر اليعقوبي على قوله فقلت لتأخذ القلم واجمع ما وجب لتتم الصفقة حيث أبيت إلا ذلك، وكان

أسرع الناس في تنفيذ ما يقدر على تنفيذه فأخرج قلم الرصاص من جيبه بسرعة فإذا هو أمام ألوف وألوف من الريال فأخذته الدهشة والاستغراب، وكان رحمه الله رجاعا إلى الحق منصفا فانقلب الأمر إلى ضحك وذلك المطلوب.

فهذا الشذوذ من القادري كان يحملني على أن الرجل أكثر مما نشاهده عليه و لم يطل وقوفي على حل هذا اللغز إلا يسيرا، فقد قيض أن نتحدث في موضوعات جدية كان يراها وحدها ما ينبغي أن يجد فيه ولا يهزل فإذ ذاك عرفت الرجل كما هو عليه و لم أعد أنظر إلى أعماله الظاهرة التي يشاهدها الناس، فإن الظواهر أقل الأشياء عندي من لدن كنت صغيرا في الدلالة على الحقيقة على خلاف ما عليه الناس. وبعد أن عرفت حقيقة القادري ووجدت عنده بعض دواء علة قلبي التي أشتكيها قلت له: يا سيدي محمد أنت تحدثني عن التصوف وأنا لا أعرف شيئا عنه فأرجوك أن تدلني على كتاب واضح في التصوف كي أفهمه وأطلع يسيرا على هذا الفن الذي بحسب ما يظهر لي هو أعلى الفنون شأنا وأجدرها بالانكباب عليه، وكان بين يديه عدة كتب وهو مستند على بعضها فرفع ذراعه وهو متجرد من جلابته وعليه وعجمي أزرق اللون فقلب تلك الكتب بين يديه وأخرج كتابا صغير الحجم ذا غلاف من الورق القوي في لون الدم الشديد الحمرة حتى ضربت إلى السواد وناولني إياه، ففتحته فإذا هو كتاب غريب الشأن فإنه شرح لمتن الأجرومية الذي أحفظه وأعرفه كما أعرف أصابعي الخمسة فهذا هو المتن أما الشرح فإنه لرجل لم أسمع بذكره قط فإنه سيدي أحمد ابن عجيبة، ويقول الناشر للكتاب على ظهر الورقة الأولى أن هذا الشرح شرح بالإشارة فإذا بي أمام أمور غريبة، فتناولت الكتاب وأديت ثمنه وكان يسيرا جدا وأخذت أفكر في هذا الموضوع الجديد الذي سأقرؤه وأنا فيه أعجم طمطماني، ولكني مدفوع لقراءته بعدة دوافع حب الاستطلاع الغريزي الذي كان يوحي إلي أن كل شيء في الدنيا سهل لمن عالجه والصعوبة إنما هي في البداية في الشيء والرغبة في معرفة شيء عن التصوف الذي كان سلفي من رجاله واستحسان القادري للكتاب، وقد يكون القادري إنما اختار لي هذا الكتاب لأنه جمع بين طرفين أعرف أحدهما وهو المتن وأجهل الآخر، وكلما استغرقت في الجهل وغمض عني الموضوع واستأنست بما هو مألوف عندي فهو

بمترلة الدليل في أرض الغربة وبمترلة صديق من أصدقائك فقدمك لتتعرف إلى شخص عزيز عليك تريد أن تتعرف إليه ولكنك تتهيبه وكلما تذكرت هيبته آنسك صوت صديقك وحضوره. فأخذت الكتاب وشرعت في قراءته فإذا أنا في عالم آخر غير ما فيه الناس لا يشبهه شيء إلا ما كان يحدثني به القادري، وجدتي وإن كانت تحدثني بشيء فإنما هو الكرامات والآداب المتعلقة بالسلوك أ ما شرح المقامات وتفسير منازل السير للطالبين فإن شرح الأجرومية بالإشارة لابن عجيبة هو أول من فتح الباب في وجهي، وبهذا الكتاب وجدت ذكر الشيخ والمشيخة وأن هذا الأمر لا يستقيم بدون واسطة وأنه يحتاج لأمر غير ما نحن فيه فهنالك أقوام جعلوا عبادة الله شغلهم الأول والآخر لا يعرفون عنا إلا مقدار ما نعرفه عنهم، وبينما نحن تائهون في غمرات الدنيا ومنغمسون في حمأة الشهوات إذا بهم فقؤوا عين الشيطان ورفضوا هوى النفس وتجافت جنوبهم عن المضاجع، فوقفوا في المحاريب يبكون ويبتهلون تارة ويأنسون وينبسطون أخرى وهم في ذلك كله بالله ومع الله وفي الله، فجازاهم ربهم بأن أعانهم ووفقهم وسدد خطاهم وفتح أعين بصائرهم حتى رأوا الأشياء البعيدة وكأنها على مقربة منهم ونظروا بنور الله فما رأوه حقا كان حقا وما رأوا أنه باطل فهو باطل، ثم لم يكتفوا بإلهامهم و لم يعتمدوا على خطرات نفوسهم وخافوا مكر الله واستدراجه لأنهم غير معصومين وليس لديهم ما يؤيد إلهامهم فهم لذلك يخافون أن يكونوا مستدرجين وذهبوا في الفهم عن الله مذاهب متنوعة والكل مصر على أن يقوم بواجب العبودية طبق ما جاءت به الشريعة الإسلامية وما يفرضه الكتاب والسنة، فوجدت نفسي وكأنني قد خلقت خلقا جديدا وحنت الروح إلى موطن طهارتها وعاودتني ذكرى الآباء والجدود وما عرفته عنهم فعزمت على التوبة وندمت على ما فرطت في جنب الله ولذت بباب الكريم المفضال، ولازمتني الوحشة فإنني أصبحت في عالم وجدت فيه نفسي غريبا لا أفهم فيه أحدا من أهله ولا يفهمني أحد من أصدقائي وخلاني وعشرتي، و لم ينفعني في هذه الفترة وفي هذه الأزمة إلا كلام كنت سمعته من شيخنا العلامة سيدي أحمد الرهوني فقد كان حدثنا على سبيل الاستطراد في درس من الدروس بأن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تقوم مقام الشيخ وذكر أن طريقة أسلافنا أهل وزان رضي الله عنهم قائمة على أساس الصلاة على النبي عليه

الصلاة والسلام، وتذكرت في هذه الفترة وفي هذا الاضطرار ما كنت سمعته من شيخنا العلامة سيدي محمد ابن الأبار ونحن نقرأ عليه مقدمة المرشد المعين بشرح الشيخ الطيب ابن كيران وقد وصلنا إلى قول ابن عاشر: «صلى وسلم على محمد»، فأسهب الشارح في الشرح وزاد شيخنا ابن الأبار في إيضاح الموضوع فقد كان ابن الأبار يرى أن أفضل القربات إلى الله هي محبة آل البيت وتعظيم جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستغل ابن الأبار هذه المناسبة وقضى في إقرائنا لهذا الشطر مدة طويلة تجاوزت الأسبوع وكل يوم يأتينا بشيء جديد ونقل طريف وحكايات تتعلق ببركات حب آل البيت. وطبيعي أن يذهب ابن الأبار إلى اعتماد القول بدء السيادة في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يستحسن أن يقول الرجل: اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آل محمد بل كان يرى أن المستعين هو اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وذكر في هذا المعنى شيئا غير قليل من كلام الأفاضل والأماثل من هذه الأمة الإسلامية أعلا الله منارها وأصلح أحوالها، فكان مما ذكره أن الشيخ مولاي محمد بن عبد الله الشريف جد الأشراف الوزانيين كان من ورده أن يقرأ دلائل الخيرات عدة مرات في اليوم وفي يوم من الأيام أخذ يقرأ ورده على العادة وهو في خلوته وقد اكتست ذاته بنور رسول الله وكان يقرأ دلائل الخيرات كما هو مكتوب وفي الكثير من المرات يأتي ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دون كلمة السيادة فكان الشيخ مولاي محمد الوزاني يقرأ ورده على هذه الطريقة وبينما هو كذلك إذ دخل عليه جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت إليه وقال له سيد يا ولدي.

وقد طال الزمان على هذه القصة فلم أتذكرها إلا في هذه الحيرة التي كنت فيها متحيرا أخشى أن آتي بعمل من أعمال البر فيصاحبه ما يعود عليه بالبطلان من عجب أو رياء أو أي داء من أدواء النفس التي قرأنا بعضها في الفصل الأخير من كتاب المرشد المعين. وقد آلت علي الهموم والأحزان فكنت لا أنام من الليل إلا قليلا ولشد ما يكون سروري عظيما حين أقوم وسط الليل فأتوضأ وأصلي وأبكي في سجودي وأسأل الله أن يأخذ بيدي وأن ينقذني من النار ويلهمني إلى طاعته ثم بعد الصلاة آخذ في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي هذه الفترة كثيرا ما كنت أقصد مسجد

لوقش وضريح سيدي علي ابن ريسون، ووجدت نفسي مفتقرة إلى السبحة فألفيت عند المعلم السيد أحمد غجو سبحة لطيفة اشتريتها منه فلم أضعها من يدي بعد ذلك. وكان إذا طلع النهار عدت إلى مخالطة الأصدقاء ولكنهم أصبحوا في نظري يهيمون في واد غير ما أنا هائم فيه فلم أصارح أحدا بذات صدري و لم أبث شكواي إلا إلى الله لعلمه بحالي، فكرهت عشرة الأصدقاء وأخذت أعتزل فلم ير أصدقائي في عزلتي شيئا يوجب القلق لأنني دائما وأبدا ألتجأ[1] إلى العزلة في الأزمات النفسية التي تطرأ علي وكانت كثيرا ما تصاحبني من جراء الحب والشوق، فإني من لدن وعيت وجدت لي قلبا أشد حساسية من عدسة المصور وقد تحطم هذا القلب بالحب والغرام المرة تلو المرة، ولا تكاد أزمة تنحل حتى تعقبها أزمة جديدة لأنني رزقت هذه العاطفة وهي على غاية ما تكون من الشهدة فكادت تهد شبابي لولا ما رزقته من قوة البنية ومضاء العزيمة وعدم الاستسلام لآلام النفس، فقد كنت دائما أبحث بجد ونشاط عن الدواء فيأتي كنتيجة للإخلاص في الطلب وتخصيص الغرض وتحديد منطقة الميول والأهواء فلما عاودني الوسواس في هذه حسبه رفاقي نوبة من النوبات التي لا تلبث إلا قليلا حتى أتغلب عليها. أما الواقع فإن أزمة هذه المرة وصلت إلى درجة مرتفعة من الحرارة كان لابد لها من أن تؤثر في مجرى حياتي تأثيرا له خطورته ومفعوله، وكانت سلوتي في هذه الأزمة الرجوع إلى شرح الأجرومية بالإشارة لابن عجيبة فكنت أقرؤه بتمعن على خلاف عادتي فيما أقرؤه وكنت أخشى أن أنتهي من قراءته فأفقد تلك السلوى وتلك اللذة، وإذا فرغت من قراءته فإنه ليس في وسعي أن أعود إليه لأنني لا أحب إلا الجديد ولا أرغب فيما قرأته مرة وعرفت مضمن ما جاء فيه.

وضاقت النفس ووضعت هذه الدنيا في عيني وطمحت ببصري إلى العلو وصدق عزمي في القيام بثورة على نفسي وعلى أسلوب حياتي وعلى سائر أوضاعي، واقتنعت بأن العلم الذي أطلبه والذي تميل إليه نفسي ليس هو العلم الذي يدرس في المساجد فإن هذه القواعد من كون الفاعل مرفوعا والمفعول منصوبا وكون الكلام يسمى بليغا إذا كان مطابقا لمقتضيات الأحوال وكون الكليات خمسا إلى غير ذلك من القواعد

(1) ألتجئ أو لعلها ألجأ.

الجافة لا تفيد شيئا في أدواء النفس وأدرانها. وهذا الفقه بما فيه لا يزيد القلب إلا قسوة والكبد إلا غلظا وهذه التدقيقات في الأصول وما تفرع عنها لا تمس النقطة الحساسة في نفسي، فإنني أريد أن أعرف الله حق المعرفة لا بالطريق التي نقرأ عليها علم التوحيد ولا تلك الحجج المذكورة في أم البراهين فإن تلك الأساليب تخاطب العقل والميزان، وأنا اليوم في حالة غير حالة العقل فقد التهبت عواطفي كل الالتهاب و لم يعد يلذ لي سماع شيء في الدنيا إلا ذكر الله والتحدث عن المراحل التي يقطع السالك في طريقه، وتواردت علي الأحلام والرؤى و لم أجد أحدا أفضي إليه بذات صدري وقد يكون كان ذلك في مستطاعي ولكن رجولتي وأنفة نفسي التي طبعت عليها بغريزتي ورضعتها من ثدي أمي وجرت في عروقي مع الدم الذي ورثته من آباء كرام أماجد لم تسمح لي بأن أفارق الرزانة ولا أن أسلك سبل الطيش، مع العلم بأن والدي كان في حالة هي إلى الجذب أقرب منها إلى السلوك وقد يكون المسكين أصابه ما أصابني فعجزت بيئته الضعيفة عن مقاومة هذا الطارئ الذي هو من الله لأنه لا يدفع إلى شيء من الشر ولا يوسوس بالأوهام والخيالات، ولكنه اندفاع صادق في حب الله وطلب الوصول إلى معرفته بمقدار ما يستطيع أن يصل إليه البشر. وها أنا اليوم وقد وقفت على باب الأربعين أستعيد الذكريات كما كانت حتى كأنني أعيش في ذلك الوقت وكأن هذه المرحلة من الحياة كانت مسجلة عندي فنعم بديع الإخراج، فأتذكر الحالة النفسية التي كنت عليها إذ ذاك ثم أنقدها بالمعيار الذي اكتسبته الأيام فلا أجد إلا عاطفة نبيلة كانت تطلب الله لوجه الله لا لقصد ولا لغرض، ثم إنني أحمد الله كثيرا على أن وفقني للرزانة وضبط النفس فلو انقدت إلى تلك العاطفة و لم أكبح جماحها أو لم ألتجئ إلى الكهف المنيع في استعصامي بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصبحت مجذوبا لا أستفيد ولا أفيد، ولأمر أراده الله وفقت إلى الالتجاء إلى الدواء قبل أن يستعجل الداء وتـــذكرت قول صاحب المرشد :

يصحب شيخا عارف المسالك يقيه في طريق [ه] المهـــــــــــالك

فإن لكل مرض دواء والدواء لا يصفه إلا الطبيب ولكن أين يوجد الشيخ وأين يمكن أن يكون فلو كان بالشرق لطلبته ولو كان بأقصى العين لسعيت إليه، وطال هذا

الحوار بيني وبين نفسي ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها فرغم أنني كتوم لا أبوح بسري لأحد ولا أفضي بذات نفسي إلى مخلوق كائنا من كان لأنني تعلمت التجلد من جدتي أبت إلا أن تظهر العلامات علي وأخذت البوادر تبادرني دون أن أشعر، ولا أدري كيف استطعت ذات مرة أن أقول لجدتي يا ترى أين يمكن أن يوجد شيخ التربية؟ فجذبتني بنظرة ما رأيتها ألقت علي مثلها في حياتي، ثم انتسي الموضوع حتى رأتني قد فارقت الاهتمام الزائد الذي أدركته على محياي وأنا ألقي عليها هذا السؤال دون شعور [ف] أخذت تباسطني وتحدثني بأساليبها العذبة التي لم أعلم إلا بعد ذلك أنها هي التي أدخلت مباشرة هذه الروح الفاضلة حتى وصلت إلى قرارة نفسي، ثم قالت لي في عرض لطيف عند التحدث عن جدي رضي الله عنه إن جدك لقنني الورد الوزاني وأذنني بأن ألقنه لمن رأيت فيه الاستعداد لذلك، فسكت و لم أجبها لا بالنفي ولا بالإثبات وأخذت أفكر فيما قالته لي فتذكرت أن الأمر الذي أطلبه تقصر عنه مدارك النساء ولست براغب في أن أذكر وردا بقصد التبرك فحسب بل رغبتي قبل كل شيء أن ألبس لباس التلمذة وأخلع الإرادة بشيخ كامل يوجهني كما يشاء، لأن من شرطها حسبما قرأت في كتب ابن عجيبة وفي شرح المرشد أن يكون المريد مع شيخه كالميت بين يدي غاسله، وجدتي هذه لا أكتم أنني كنت ألاحظ عليها أن فيها شيئا من الحدة إذا ألح عليها ملح في أمر من الأمور، وكان لا زال رأيي فيها كأم صالحة أنها المثل العالي للمرأة الفاضلة الكاملة فقط و لم أكن أتصور أنها يصح أن تكون شيخة من الطراز الذي أطلبه سيما وأنا أعتقد أن المرأة لا يتصور أن تبلغ مبلغ الرجال فلذلك لم أفكر في أخذ الورد عنها لا قليلا ولا كثيرا، وها أنا اليوم أود لو أخذت عنها فالحق عندي بجدي بحيث يصبح أن أذكره في سلسلة مشايخي وما أكون أخذت عنها إلا ما أخذه جدي عن أبيه عن جده ثم يرتفع السند إلى مولاي عبد الله الشريف، ولكني في ذلك الوقت الذي أتحدث عنه لم أكن أعتبر هذه الاعتبارات المحتمة والتي هي من قبيل الكماليات بل كانت حاجتي حاجة الظمآن إلى الماء وحاجة المصاب بمرض الحصر إلى الطبيب، فإن هذا المضطر ليس له الوقت الكافي ليفكر فيه في فن ولا جمال وإنما تفكيره منحصر في شيء واحد هو طبيب ماهر يعمل لدفع الألم عنه، وقد أصابني ما أصاب الدجاجة وهي تهم بوضع بيضتها فإنها في أول الأمر تأخذ في البحث عن مكان صالح لتضع فيه بيضها

وكلما جلست بموضع رأته غير لائق ببيضتها حتى إذا اشتد عليها الأمر لم تبال أين تضعها، فالعبرة إنما هي بإنزال البيضة وهذا تصاب به الدجاجة إذا لم يكن لها عش معين لتلد فيه ثمرة أحشائها أما إذا كان المكان معدا لها فإنها تقصده من أول الأمر. وهذه كانت حالتي فإنني لم أكن أعيش في وسط يذعن لكل من يدعي هذا الأمر ويخضع لكل من يدعو إلى طريق الله بل إنني نشأت في أحضان أقوام يرون أن الأمر وإن توزع في الناس وأخذ كل شيخ بطريق أو بنصيب فإن سلفهم توفر فيهم ما افترق في غيرهم، فيلزم أن لا يطلب هذا الأمر من سوى هذه العائلة فمن كان ينتمي إلى النسب الوزاني الكريم كان عليه إذا اشتاقت نفسه للعبادة والتوجه إلى الله أن لا ينصرف عن هذه الدار إلى دور أخرى، وكنت كما كان أبناء عمي وقرابتي وكل من يحدق بي أعتقد ما يعتقدون وأومن بما يؤمنون، ففكرت كثيرا في الذهاب إلى وزان عساني أن أجد بها من يداوي علتي وسألت عن رجالها فلم أجد من يفيدني عن الناحية التي أسأل عنها وكلما زاد تعطشي ازددت تقريبا للمسافة ودنوت من الخطة العملية وابتعدت عن النظريات، ولم أجد أقرب مثالا من الحاج محمد بن عبد الهادي الشريف القادري فإنه الشخص الواحد الذي كان يدق لي على الوتر الحساس. وذات يوم وقد ضاقت بي الدنيا وعزفت نفسي عنها ورغبت في الوقوف بباب الله على طراز العبيد المخلصين أقبلت إليه أسعى فأخذني في المذاكرة والحديث على جري العادة فلم أملك أن سألته قائلا: يا فلان أين يمكن أن يوجد شيخ التربية؟، فأطرق إطراقة طويلة وأصابه شبه ذهول وبعد هنيئة أجابني بقوله إن كان أحد يليق بهذا الأمر في هذه الجهات فإنه سيدي محمد بن الصديق الغماري بمدينة طنجة، ففرحت فرحا شديدا إذ قد وجدت من يشار إليه بالمشيخة قريبا منا ليس بيني وبينه إلا مسافة يوم وليلة عن طريق البحر حيث كانت طرق السيارات لم تفتح منذ ذاك بين تطوان وطنجة وكانت غير مسلوكة كطريق عام لأن المجاهدين كانوا لا يزالون يدافعون الجيوش الإسبانية، وكان الطريق إلى طنجة للراغب في الذهاب إليها إنما هو طريق البحر وعن طريق البحر كان المهاجرون من أهل تطوان بعد احتلال الجيوش الإسبانية لهذه المدينة هاجروا إلى طنجة نظرا لما كان لها من الوضعية الدولية.

ولا أكتم أنني لما سألت القادري عن الشيخ كان من الاحتمالات عندي أنه يشير إلى نفسه ولو فعل ذلك لأخذت عنه لأن ما بقلبي من حرارة حب طريق الله حال بيني وبين مشاهدة سائر النقائص، فلا أرى إلا الجميل ولا أعتقد إلا الخير في كل من ينتمي إلى القوم ويقول بقولهم ويأتي بأعمالهم، سيما وقد كنت كثيرا ما أشاهد تلميذين للقادري يعاملانه معاملة التلميذ لشيخه حسبما قرأت فيما قرأت من كتب مبادئ التصوف، وهذان التلميذان أحدهما هو الفقير أحمد ابن زاكور رحمه الله وثانيهما فقير أصله من مراكش كان يبيع الفحم، فهذان كانا على جانب عظيم في محبة أستاذهم القادري و لم أكن لأستنكف عن أن أكون ثالثهما ومن السهل بمكان علي أن أتقلب من صديق للقادري إلى تلميذ من تلاميذه سيما وقد أكبرت فيه تلك الثورة التي ثارها على الأوضاع المتبعة والتقاليد المرعية، فإنه شريف قادري ينتمي نسبه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ومع ذلك فإنه لم يطلب من الأشياخ إلا شيخا حيا هو سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني واستمر مخلصا للطريقة الكتانية إلى آخر لحظة وقد قلب الزاوية القادرية إلى زاوية كتانية على أنه كان مأذونا في الطريقة القادرية طريقة سلفه وجدوده من لدن الشيخ ماء العينين الشنكيطي الشريف الحسني العالم العامل، ومع ذلك فإن القادري كان لا يدل الناس إلا على الطريقة الكتانية لأنها طريقة حية لها سند حي مأخوذ عن رجل لم يكن في عصره أفضل منه علما ونسبا وورعا وغيرة ووطنية وحبا لآل البيت ولسائر المؤمنين، فما لي لا آخذ عن رجل من هذا الطراز؟. ولكنني كنت متثبتا رصينا فلم أكن بالذي تمتلكني العواطف حتى تظهر على جوارحي أو أزيد عما هو داخل قلبي بل إن الأمر على العكس فبينما قلبي يتمزق ويتقطع إربا إربا إذا بي أسكن سكون الجبال الراسيات في سن يقل من يتمكن من ضبط عواطفه وامتلاك لواعجه، فلذلك كان سؤالي لا يحمل الحدة والطيش بقدر ما كان يحمل الجد والسكينة والوقار. فأجابني القادري عن رغبتي وأحالني على ابن الصديق ثم أخذ يذكر سلسلة من المنتصبين لهذا الأمر فلم أعر ذلك كبير اهتمام لأن غرضي من ذلك إنما هو شيخ واحد، وإذا حكم نفسه بأن هذا الشخص أفضل من جميعهم في نظره فلا فائدة في تعداد هذه الأسماء فإنني لم يكن من غرضي أن أكتب كتابا يجمع تراجم المشايخ المعاصرين، بيد أنني أريد سلوك الطريق إلى الله على يد من يدلني عليها والمستشار مؤتمن

فإن القادري لم يكن يشير علي بما يعتقده خلافه ومنذ أخذت رأيه في الموضوع فلم يبق أمامي إلا أن أعد العدة.

* * * *

وكان من أصدقائي الشريف الجليل الصالح سيدي محمد بن البشير الريسوني فلقد كان كثيرا ما يجالس الكحاك وكان يقصده ليلا ونهارا وفي كثير من الأحيان يأتيه ليلا وقد لبس بذلة خضراء وعلى رأسه شاشية حمراء وقد زاغت عيناه في أم رأسه لما كان يغلب عليه من الحال فكنا نجالس الكحاك معنا [معا]. وما أعرف إلا أفرادا قلائل مثل سيدي محمد بن البشير كانوا يتغاضون عن النقائص والعيوب حتى أنك إن ألفت نظره إليهما وجدته خالي الذهن من جانبهما كل الخلو فلا يبالي بمن أطاع أم عصى ولا بمن كان أتقى رجل أو أفسق رجل، وإنما كان يهمه الفن والجمال أين ما كان وتعين وكان يعجبني منه هذا الطبع، وفي كثير من الأحيان كنا نخرج للتجول في أطراف المدينة نتحدث في شؤون شتى وكان بحكم طبعه وغريزته لا يترك مناسبة تمر دون أن يستفيد منها إذا كانت تتحلى بالاستراحات والطرب والغناء. ومن عوائد التطوانيين أن يقصدوا سنويا وادي مرتيل فيقيموا فيه حصة من الزمان يشمون الهواء الطلق ويستحمون في البحر، ولم يكن من عادتهم أن يقصدوه في فصل الحرارة وإبان المصيف فإن ذلك فصل يجمعون فيه أقواتهم ويبيعون بضائعهم حيث تكون السبل مسلوكة ليبسها، بخلاف ما إذا كان الوقت وقت شتاء فإن السبل تتعذر لعدم وجود طرق مرصوفة ومسالك معبرة وقناطر منصوبة على الأنهار والخنادق، مع أن التطوانيين إنما يشترون القمح والحبوب من العربان الذين يردون على هذه المدن بإبلهم وحميرهم قوافل يتلو بعضها بعضا فيبيعون بتطوان الحب ويشترون منها المنسوجات والسلاح والفواكه. وتبقى هذه الحركة طيلة فصل الصيف فلم يكن من الميسور لأهل تطوان أن يتركوا جمع الذخيرة السنوية والبيع والشراء في موسم النشاط الاقتصادي ثم يقصدون الراحة، بل إنهم كانوا لا يستريحون إلا في فصل الخريف بعد أن تتم أشغالهم وبعد أن تصير أغلب الأراضي غير السقوية ليست بصالحة للعزف[1] لاحتياجها إلى المطر، يقصدون إلى الراحة في

(1) هكذا، والعزف عن الشيء الزهد فيه، والعزف بفتح العين صوت وبالضم الحمام الطورانية كما في القاموس المحيط، ولعله خطأ

فصل الخريف شاطئ البحر الرملي المنحصر بين وادي مرتيل والوادي المالح و لم يكن بهذا البسيط بناء ولا أكواخ بل كان الناس يضربون الخيام والمضارب والقباب حتى كأن الناس في سوق من أسواق الجاهلية أو موسم من مواسم الحج، وقد دامت هذه العادة إلى وقت متأخر و لم تنقرض إلا بعد الاحتلال الإسباني الأخير حينما أخذ الناس يبنون الدور الجميلة، وفي أول الأمر كان الأمر مختصرا ما فكانت هنالك أبنية من حجر وآجور وإلى جانبها الخيام ذوات الطنب وقد حفر أهل كل مضرب بئرا صغيرة يقضون منها مآربهم وقد يكون منها ما هو ملح كما يكون منها ما هو حلو، وفي خلال ذلك حياة شعرية لا تعوضها القصور ولا المباني.

وقد كان ابن البشير يؤثر النزهة في الخيام على النزهة في الدور والبناءات وكثيرا ما كنا نقصده وهو في مضاربه فكان يسر لذلك سرورا ما عليه من مزيد، وذات يوم _ في أثناء صراعي لأزمتي النفسية _ قصدناه في خيمة فنزلنا بقبة كبيرة كانت للمرحوم السيد أحمد الركينة وكانت تسع بضع مئات من الناس، فلما كان الليل ذهب أصحابنا إلى شاطئ البحر وبقيت منفردا في الخيمة فأقبل ابن البشير وهو اعتراه حاله الذي كنا نعرف أنه عندما كان يعتريه لم يكن يقابل أحدا ولا يكلم أحدا ولا يخرج إلى الناس اللهم إلا أقل القليل ممن يحبهم ويحبونه، فخرج علي في حالته تلك و لم أكن أهميه حين كان يعتريه ذلك الحال بخلاف أصدقائنا الآخرين وذلك لأني أحدثه إذا كنا على انفراد حديثا خاصا يتعلق بذكر الصالحين وشؤونهم، وكان يعرف شيئا غير قليل من هذا النوع وقليل هم الأشخاص الذين كانوا يسمعونه يتحدث بشيء من هذا، أما معي فإنه كان يطيل الحديث حتى يستغرق في ذلك أوقاتا طويلة وكنت أشعر من الرجل وهو يحدثني كأنما يلقي حملا ثقيلا على كاهله، وإذا أخذ في الحديث لم يكن يتحدث عرضا .بما ينساق إليه الحديث الذي يجر بعضه بعضا بل إنه كان يتحدث كمن بين عينيه لائحة مرسوم بها عدة مسائل يريد أن يعرف بعض التفاصيل عنها أو يريد أن يعطي رأيه فيها، فإذا انتهى الموضوع لم يحتج إلى أن يتدرج إلى مسألة أخرى بل إنه كان يقتضب المسألة اقتضابا دون أن تكون لها مع الأولى أية علاقة أو أدنى ارتباط، وكل ذلك في تحفظ

والصواب هو للحرث بمقتضى العبارة.

وجودة رأي ورغبة في معرفة الحقيقة دون تحزب أو تعنت.

وفي هذه الليلة التي كنت مشتاقا فيها إلى العزلة والانفراد لأخلو بهموم قلبي التي لم تعد تبارحني إلا قليلا بينما أنا جالس في ضوء شمعة واحدة تنير تلك القبة الفسيحة، وأن هذا النور على ما به من ضآلة ليضايقني لأنني أريد أن أنظر إلى نجوم السماء لا من تحت بنائها اللامتناهي فإن ذلك يشتت تفكيري في ناحية خاصة وينصرف بي إلى التفكر المتسع كاتساع الفضاء، بخلاف ما إذا كانت رغبتي أن أفكر في منطقة واضحة الحدود فإن رغبتي إذ ذاك تملي علي أن أكتفي بالنظر إلى بعض النجوم وأتذوق بعض برد الليل في موسم الخريف وكل ذلك كان يتم لو أنني أطفأت الشمعة وشخصت ببصري إلى جهة القبة الزرقاء. وبينما هذه الأمواج تتقاذفني في غير عنف ولا إزعاج حتى كأنها في ذات صدري تتأثر بنبرات موج البحر الخافت بعض الخفوت وهو مع ذلك متزن مقطع إلى حصص زمانية متعادلة كأن الطبيعة تضرب في الثقيل الأول، إذ دخل ابن البشير وهو على غير رأيه فقد شعر بالحاجة إلى الكلام في حين أنني بحاجة إلى الصمت لولا أن نوع كلامه من نفس نوع ما أحب الصمت لأفكر فيه، فسألني هل أنا على انفراد فأجبت بأن الرفاق ذهبوا ليتذوقوا نسيم البحر العليل قبل أن يصافح العنصر الترابي، فجلس وأخذ يلقي أسئلة على العادة وأنا أجيب بما يظهر لي ثم نتناقش في الموضوع لنقرر النتيجة و لم يكن من الصعب إيجاد المناسبة للخوض في شأن المشايخ والطرق وفي عرض رجال الوقت، فأخذ ابن البشير يتحدث عن ذلك حديث المالك لزمام الموضوع ويجول فيه جولات جريئة دون أن يتقيد بقيود ولا أغلال، وكان كلما ذكر أحد هؤلاء الشيوخ المتصدرين في الوقت لا يذكر عنهم أية كلمة تشعر بانتقاصهم أو الاعتراض عليهم حاشا ما يتعلق بتمحيص أقوالهم وحكها على الأصول التي كان يجيد معرفتها جودة فطرية. وسار الحديث في هذا الطريق إلى أن عرض ذكر الشيخ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني فذكر من فضله نبذة في اعتدال كبير فشاركته الحديث بحدة الشباب وبالغت مبالغة الناشئ المهتاج العواطف الذي يسير سريعا بعيدا في كل شيء وأطريت وبالغت، فإذا بابن البشير يعرض ما يستشكله في هذه النقطة بكل هدوء كأنما يتحدث عن شيء عادي قد درسه دراسة طويلة فقال: إن مما يشكل

علي قول سيدي إدريس الحراق في الشيخ الكتاني فإنه مصر على أن الكتاني رغم علمه وولايته لم يكن شيخا من شيوخ التربية لأن سنده في طريق القوم سند منقطع. وكنت إذ ذاك لا أعتقد في الشيخ سيدي إدريس الحراق إلا رجلا عاديا قد تصدى ليدعو الناس إلى طريقة جده الشيخ سيدي محمد الحراق لا أكثر ولا أقل، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها أن سيدي إدريس الحراق شيخ من شيوخ الطريق وأنه لا يكتفي بأن يكون شيخا عاديا فحسب بل إنه يقول: إنه أحق بالتربية حتى من الشيخ الكتاني نفسه. ولما سمعت ذلك من سيدي محمد بن البشير أخذتني الحمية للشيخ الكتاني فطفقت أذكر ما كان عليه من حلم وعلم وصلاح وتقوى وتضحية، وأخيرا ما أصيب به من الإذاية على يد السلطان عبد الحفيظ حتى أنه قتله تحت السياط وما للكتاني من الأتباع والمؤلفات والأوراد والقصائد، ثم مع هذا كله يقول سيدي إدريس إنه أحق بالتربية من الكتاني مع أنه لم يؤلف كتابا و لم ينظم قصيدة و لم يصب بأذى في سبيل إعلاء شأن الأمة والنهوض بها، وأشهد الله أنني لم أقل ما قلته إلا عن عقيدة وإيمان و لم يكن يخطر لي ببال أن الحديث في واد وأنا في واد و لم أكن أعرف النقط التي يعترض بها الشيخ الحراق على بعض سلوك الكتاني فيها حتى طال الزمان، فعرفت أن من شر الأمور نقل الأفكار ناقصة كما سيأتي بعد إن شاء الله فيما يتعلق برأي الشيخ الحراق في المشيخة وشروطها وأعمالها، وأنه كان حر الفكر إلى درجة بعيدة فكان لا يحجم أن ينتقد أكبر الناس قدرا لأنه بشر ثم إن انتقاده لم يكن يصحبه شيء من الازدراء والاستخفاف وإنما كان رأيه محترما عنده وكان معتدا بشخصيته إلى حد بعيد، وكان ابن البشير ينظر إليه نظرة تقدير ويجعل لكلامه وزنا ومقدارا ولذلك فإنه في هذا الحديث لم يذكر الشيخ الحراق بسوء مطلقا و لم يزد على أن ذكر رأيه في الشيخ الكتاني مع أن ابن البشير على خلاف رأي الحراق على طرفي نقيض. واستغرق حديثنا في هذا الموضوع وقتا طويلا و لم نقطعه إلا على جلبة الرفاق وقد أقبلوا ليستسلموا إلى مضاجعهم فلم يكن إلا كلا ولا حتى خفتت الأصوات فلا تسمع إلا الغطيط المختلف الأنواع والأشكال، أما أنا فإن الأرق عاودني في هذه الليلة كما كان يعاودني في الليالي قبلها وعادت إلي ذكريات حديث ابن البشير فأخذت أتساءل عما إذا كان الشيخ الحراق شيخ التربية، ثم أبقي ذلك مطلقا ثم يعاودني الشك في أمره بعد أن كنت قاطعا

جازما بأنه رجل لا يزيد عن كونه أحد هؤلاء المقدمين الذين يلقنون الأوراد بقصد التبرك، لأن هذا الحكم هو الذي حكمته قبل اليوم حينما كان سيدي عبد الله بن الشيخ سيدي إدريس يذاكرني ذات مرة فقال في معرض كلامه عني وعن نفسه إننا ابنا قطبين، فعارضته فيما يتعلق بأبيه فأصر على أن والده شيخ طريق فقلت له يا فلان إن مشايخ الطرق قليلون جدا ويلزم أن لا تكون مغرورا في أبيك فإنه لا يزيد عن كونه مقدم طائفة أما الشيخ فهو جده سيدي محمد الحراق الذي لو كان حيا لأخذت عنه الطريق فغضب سيدي عبد الله وانصرف لحال سبيله. ثم لم يطل الأمر حتى كانت الليلة التي تحادثت فيها مع ابن البشير فكان حديث إرهاص لنفس مشتاقة كل الشوق إلى من يأخذ بطبعها في هذا الوقت الذي هو من أدق الأوقات وأحرجها، و لم يغب عني أن أتذكر أن عنادي وإصراري على أن الحراق ليس بشيخ طريقة من باب التحكم و كان علي أن أعتقد على أقل تقدير بأن أمر هذا الرجل خفي عني فلا أعرف سريرة أمره ثم ليس على الله بمستنكر أن يكون الأمر كما يدعي، وهكذا بت في ليلة من الأفكار و لم يأخذني فيها الرقاد إلا تهويما ولشد ما كان فرحي حينما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود فقمت وتوضأت وصليت المكتوبة وأخذت أتأمل في إقبال آية النهار وانصراف آية الليل إلى أن استيقظ الزملاء مزمعين العودة إلى تطوان، فقد كان اليوم يوم جمعة وأمامهم شغل طويل لا بد أن يقوموا به في الصباح كي لا يصل وقت الظهر إلا وقد تفرغوا من سائر التوابع، ثم قصدوا المساجد لصلاة الجمعة ثم بعد صلاة العصر كان معظمهم يقصد الزوايا قصد الاستماع إلى الأذكار وتقضية هذا الوقت في هذا الباب، وتلك كانت عادتهم كل يوم جمعة لم يكن يشذ عنها غيري فقد كنت لا أريد أن أقصد الزوايا حتى ولو بقيت منفردا عن زملائي الأساسيين فإن غيرهم قد يحضر بعد غيابهم فنقضي الوقت كما نقضي الزمان كله. وفي هذا اليوم وجدتني راغبا في أن أذهب إلى زاوية من الزوايا فقصدنا الزاوية الحراقية وقد قربت الشمس من الغروب، فإذا بأقوام كأنما على رؤوسهم الطير لا يهمون ولا يعلون وتكاد كل حركة من حركاتهم تسمع حتى خشخشة الملابس الجديدة وطرفة جفونهم شدة ما هم فيه من هدوء على كثرة عددهم، ولا يسمع وسط هذا المجمع الحاشد إلا صوت نصف مجموع يتكلم كلاما هادئا على خلاف ما عهدنا عليه المدرسين الذين يرفعون أصواتهم ويأتون بنغمات

مختلف ألوانها، فقصد رفاقي من الزاوية الحراقية القوس المقابل للداخل بعد صعود الدرج والذي ينفد إلى القسم الذي زاده الوزير السيد أحمد الركينة، وبهذا المدخل الواقع بين قوسين لجهة المحراب طاقة بشباك من الحديد تظهر منه صورة الشيخ سيدي إدريس الحراق وقد جلس في المحراب الصغير الواقع عن يمين الواقف في المحراب وذلك المحراب الصغير يقابل مرقد الشيخ سيدي محمد الحراق. وبينما كان أصحابي ينظرون إلى هذه الأمور كأشياء عادية إذا بي قد مادت بي الدنيا وانقلب عاليها سافلها فداخلتني قشعريرة كأنما أخذتني البرحاء فجثوت على ركبتيّ لأنني في مكان يقرب من ضريح القطب وبين جماعة قد تفرغوا من الشواغل وأقبلوا إلى ربهم يذكرونه ويسبحونه، وكان مجلسي مواجها كل المواجهة للشيخ سيدي إدريس وكلما رفعت طرفي رأيت صورةَ ما ينبغي أن تكون لكاذب وسمعت صوتا صادرا عن لسان رطب بذكر الله، وكانت كلماته التي كان يقولها في مجلسه ذاك لا تزال ترن في أذني فكان يحدث عن شرف العبودية المجردة عن المناصب والمراتب والمطامع والآمال وإنما هي عبودية خالصة لله الواحد الصمد، ثم ذكر أقواما ظهرت عليهم آثار العبودية فتاهوا فخرا على الأكوان ومن بينهم عتبة الغلام الذي كان يتهجد ويقسو على نفسه ويتقشف إلى حد بعيد، ففي يوم من الأيام خرج إلى الناس يختال وقد لبس لباسا رقيقا وانتعل نعلا مطرزا بالحرير فقابله إخوانه فسألوه عن موجب هذه النخوة فأجابهم بقوله: « أصبحت له عبدا وأصبح لي ربا ». فلما أتم سيدي إدريس هذه القصة ثنى عليها منشدا من قصيدة لجده سيدي محمد الحراق « وأصبح يتبختر في ثياب هناه » ثم قام الفقراء على نغمة هذه القصيدة يرقصون ويذكرون الله، فقامت قيامتي وتزعزع دماغي عن مستقره وكاد قلبي يطير شوقا دون أن أشعر أين أنا ولا ما هو حولي إلا أني كنت في لذة ونعيم روحاني في حين أن الجسم كان يتألم من جراء هذا التغيير الفجائي الطارئ، بيد أن الله سبحانه أيدني بروح من عنده فلم تظهر علي علامة من علامات الطيش إلا أني قمت وهبطت من الزاوية فإذا بي أرى عالما غير العالم الذي فارقته من لدن أقل من ساعة واحدة، وإذا بجدران الزاوية وبابها قد أشرق عليها نور لا يشبهه نور الشمس ولا نور القمر وإذا بتلك الباحة القريبة من باب المقابر قد اتسعت في عيني حتى لكأنها بسيط عظيم من بسائط الغرب أو الحوز، فسرت بضع خطوات إلى أن وقفت على باب

الدونة[1] فوقفت قليلا ورفعت بصري إلى الشباك المفتوح في الزاوية المطل على هذه الباحة فإذا بي أسمع أصواتا ما أدري لأي شيء أشبهها إلا أنها تشبه أصوات الحور العين وقد استقبلن الداخلين إلى الجنة من المؤمنين الذين أخرجوا من النار قائلات لهم: سلام عليكم طبتم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. وارتفع أمام عيني بناء الزاوية حتى كادت تصل إلى السماء فازددت خشوعا ولذت بما كنت ألتجئ إليه دائما وهو الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفق بعض أصدقائي يكلمني فوجدني مشغولا عن كل شيء إلا عن قلبي وأين يستقر، وكان أصحابنا قد ألفوا مني مثل هذه الإغفاءات وهذه السنة فكثيرا ما كانت تعتريني دون أن تحملني على أي شيء عدا السكوت والاستماع إلى قلبي وما يمليه علي وما يتلقاه من هواجس وأفكار مسرة أحيانا إذا غلب علي الرجاء ومؤلمة أحيانا إذا ازداد الشوق والحب، وقلما كنت أتأثر بمقام الخوف إلا خوف الإعراض والطرد وأن أكون مستدرجا بي. وهذه الإغفاءات ورثتها عن أبي فلقد كان رضي الله عنه يصاب بها فإذا نزلت به فارقه هزله وانبساطه وهاله الأمر وهو الرجل الأمي الذي لم يكن يعرف الطريق العلمية لمعالجة أحوال القلوب، فكان إذا دهمه هذا الحال قصد الدار دون أن يكلم أحدا في طريقه ودون أن يشعر بمن يصيبه من ذكر أو أنثى أو حيوان فكان يسير كمغمض العينين حين يرسل عليه أسد يزمجر من ورائه، فيزاحم بمنكبه كل ما قابله حتى إذا وصل إلى درب شرفاء وزان ورآه أبناء عمه الذين كانوا يباسطونه كثيرا حينما يكون على بساط الانبساط وشاهدوه على هذا التأثر فإنهم يتركونه وشأنه حيث يعدد السير إلى أن يدخل الدار ثم يصعد إلى الغرفة فيغلقها عليه أياما أو يوما أو بعض اليوم ثم يأخذ في الاندفاع في الحديث حيث يتناول كثيرا من الحقائق والأخبار بالمغيبات. أما عبد الله صاحبكم فإنني لم ألجأ إلى هذه الأمور وإنما كان يغلب علي الذهول دون أن يظهر أثر ذلك بارزا واضحا، ثم إني ما كنت أفرح بهذه الواردات ولا أحب أن أنسب إلي الجذب فكنت أكتمها كما أكتم داء من الأدواء الفتاكة، فأترك هذه الأحوال تأكل قلبي أكلا حتى إذا أدت مهمتها انصرفت بسلام فتركتني وتركتها دون أن تؤثر في بشيء إلا ما تؤثره النار في المعدن الصلب فإنه تزيده صفاء وقوة. وكانت ذاتي تتغذى بهذه الأحوال حتى أني كنت أمكث الأيام العديدة

(1) يقصد الديوانة وكانت تقع على يمين الخارج إلى باب المقابر نحو سبتة.

دون أن أفتقر إلا إلى قليل من الطعام والماء، ومع ذلك فإن ديباجة وجهي كانت كأنما صبغت بالعندم حتى كنت إذا نظرت إلى وجهي في المرآة أصابني الخجل خشية أن يقال إن هذا أثر من آثار التجمل والتصنع اللذين لم أبغض شيئا في حياتي بغضي لهما. أما والدي فإنه كان يغلب عليه هذا الحال فكان يحرق قلبه ويلتهم بشريته ويتصردمه[1] حتى تركه كالشن البالي وذلك لأن حاله كان أقوى وبشريته كانت أضعف واستعداده العلمي كان أقل، أما الشعور فهو شعور واحد متوارث دون أن يكون راجعا إلى مرض أو ضعف في الأعصاب على خلاف ما كان يظنه بعض أصدقاء والدي، فلقد حدثني رجل منهم فقال لي: كذب الذين يقولون بالوراثة في المرض ويكفينا حجة ما عليه من الفراق أنت وأبوك فإن أباك كان مصابا بداء لم تصب به أنت، فسكت ولم أجبه وعلمت أنه غالط من عدة وجوه أقربها أنه حكم علي بالسلامة من التوارث وذلك ليس بسديد فإن الوراثة قائمة على كل حال ولكن بالطريقة التي ذكرنا فإن ما كان يؤذي أبي ويضره أصبح ينفعني ويغذي بنيتي، فإنهم ذكروا أن السم إذا لم يقتل شاربه استحال إلى غذاء نافع في معدته وكذلك الأمر في هذه الموجات التي تتوارد على أصحاب الشوق والاشتياق، ولم يمت أبي إلا شهيدا من شهداء هذه المراتب فإن والدتي تؤكد ذلك تأكيدا جازما.

---

(1) الصواب يتصرمه، وتصرم بمعنى تقطع.

كيف دخلت في طريق القوم

كانت حوادث حديثي مع سيدي محمد بن البشير الريسوني وصعودي إلى الزاوية واستشارتي للقادري في شأن الشيخ في أوائل ربيع الأول من سنة 1337 ودجنبر متم 1918، وقتئذ كنا في عطلة عيد المولد النبوي و لم يكن لي قصد في التخلف عن الدراسة وترك قراءة العلم، كما لم يكن لي فكر آخر في نوع من أنواع الحياة إلا أنني مصمم على البحث عن الشيخ حتى إذا ما قابلته سلمت له مقاليد نفسي يتصرف فيها كما يشاء ويسيرها كما يرى لي لا كما أرى لنفسي. على أن رغبة الحاج عبد السلام بنونة رحمه الله كانت شيئا آخر فلقد وضعت الحرب العالمية 1914—1981م أوزارها وعادت الدنيا إلى نوع من الطمأنينة وإن كان المغرب لا يزال يعتلج بحوادثه ويحاول أهله أن يتنصلوا من نير الاستعمار الذي وضع على كاهلهم ولكن الحالة العامة في أوربا والشرق أصبحت على نوع من الاستقرار، فكان الحاج عبد السلام بنونة يفكر في أن يبعثني ويبعث أخاه محمد بنونة إلى الدراسة في بيروت فإن مسألة التعليم الحديث كانت الشغل الشاغل للحاج عبد السلام بنونة، وفعلا فإنه حادث أباه المرحوم الحاج العربي بن المهدي بنونة في الموضوع فلم يبعد و لم يقرب إلا أن اندفاع الحاج عبد السلام كان يحضه على أن يتم الأمر سريعا، وتروي الحاج العربي كان يملي عليه أن لا مانع من تنفيذ هذا الاقتراح بعد أن تظهر الحالة الأولية ويستقر أمرها في الشرق، فإن تركيا لا تزال في حرب مع اليونان والبلاد العربية لا تزال غير مستقرة ففيها ثورات وفيها فتن وقد أصيب العالم الإسلامي أجمع بالحزن والأسى حينما بلغه الخبر بأن إصطنبول قد وقعت في قبضة الإنكليز والحلفاء. وكان لدخول الجيش الإنكليزي إلى بغداد أسوأ

الأثر في الأوساط الإسلامية، ثم لم يطل الأمر كثيرا حتى قيل إن فرنسا [قد] احتلت بلاد الشام ودخلت دمشق في حوزتها بعد أن دافع عنها العرب بعض الدفاع. ثم إن لاحتلال إصطنبول أثر كبير[1] في التفكير الإسلامي لأن المتكلمين عن أخبار آخر الزمان ذكروا أن من علامات قيام الساعة أن يفتح الله على المسلمين إصطنبول، وحينما احتلها الأتراك للمرة الأولى في أواسط القرن الخامس عشر من الميلاد وطال الزمان دون أن تقوم القيامة أول علماء الإسلام ذلك بأن جعلوا أن هذه العاصمة سوف ترجع ليد المسيحية ثم تعود إلى يد الإسلام آخر الزمان. فلما كانت حرب سنة 1914م وتم الأمر بأن بسط الحلفاء سيطرتهم على إصطنبول و لم يطل الأمر كثيرا حتى قام أسد من أسود الله مصطفى كمال ورفاقه فطردوا جيش الحلفاء من إصطنبول وعادت للإسلام، فلم يبق عند الناس شك في أن قيام الساعة قد اقترب سيما بعد الحرب التي لم يعرف التاريخ لها مثيل [بل مثيلا] فكانت حربا في السماء وفي أعماق البحار زيادة على البر والبحر وظهرت فيها المخترعات الغريبة الشأن، في حين أن العقلية المغربية لم تكن تدرجت في التطور حتى تعرف أن هذه خطوات في سبيل الرقي والعمران والحضارة، إن العقلية المغربية فوجئت بهذه العجائب فلم يكن بد من القول بانتهاء الدنيا سيما وأن فناءها راحة للناس من هذا الاستعباد الذي وقعوا فيه من لدن سنوات قلائل، فكانت الساعة وقيامها خير ما يرتاح إليه المغاربة لأنها ستنهي العالم وفي نهايته نهاية لاسترقاقهم وذلهم واستعبادهم.

والحاج العربي بنونة وإن كان رزينا رصينا بحيث لا يتأثر فيلقي بهذين الطفلين إلى وراء البحار في وقت تذهل فيه المرضعة عما أرضعت ويفقد الأقربون بعضهم بعضا فلا يعثرون عليهم في الأرض ولا في السماء، فهذه الأنباء قد وصلت إلى تطوان من الشرق تخبر بالمصائب والأهوال التي حلت بالمغاربة الذين هاجروا إلى البقاع المشرفة فإن كثيرا من الناس بعد نصب الحماية على المغرب لم يستقر لهم قرار و لم يقدروا أن يفتحوا أعينهم فيروا علم النصرانية قد احتل مكان علم الإسلام ورفعت في فاس الراية الفرنسية المتحدية للإسلام والمسلمين، فلحبهم في وطنهم لم يقدروا أن يشاهدوه وقد أصبح جثة

(1) أثرا كبيرا.

لم يبق بها من الحركة إلا ما يبقى منها عند الحيوان بعد ذبحه، فقاموا وباعوا أموالهم وأمتعتهم وصمموا على الهجرة إلى مكة أو المدينة حيث يقضون ما بقي من أعمارهم في العبادة والطاعة ببلد الله وحرم رسوله. فقام بالهجرة من المغرب إلى المشرق كثير من أهل الدين والورع من رباطيين ومراكشيين وفاسيين وتطوانيين وغيرهم، ومن خيرة من هاجر من المغرب إلى المدينة الشيخ سيدي أحمد الهيبة تلميذ الشيخ ماء العينين[1] وقد حدثنا بعض من كان يعرف حاله بالمدينة أنه اشترى بها شيئا من الغنم كان يعيش من ألبانها ويكتسي من صوفها. ومن بين من هاجر الشيخ سيدي محمد بن جعفر الكتاني الفاسي العلامة المحدث الصالح وقد كان من تلاميذه الفقيه سيدي محمد الصباغ التطاوني فإن هذا هاجر أيضا صحبة شيخه وتوفي بالمدينة المنورة فأقام له المهاجرون وأهل المدينة جنازة قل أن رأى الراؤون مثلها، ومن جملة ما حدثونا أنهم كانوا يسيرون بنعشه بضع خطوات ثم يضعون محمله على الأرض فيتقدم بعض المدنيين ويقول: أتدرون نعش من هذا؟ إن هذا نعش يضم رفات رجل فر بدينه إلى الله ورسوله.

وقد أكرم رجال الدولة التركية هؤلاء المهاجرين وأحلوهم مترلا كريما وبقيت تحدب عليهم أيام الحرب العظمى وتخفف عنهم شدة وطأة الحرب كما كانت تفعل مثل ذلك مع أهل المدينة عموما، وكانت المواصلات صعبة بين الممالك التركية والمدينة وأهم الطرق طريق السكة الحديدية الممتدة فيما بين المدينة ودمشق. وثار العرب على تركيا بقيادة الشريف حسين وبذهب إنكلترا الذي كان يحمله لورنس[2] معه فيغدقه على العرب إغداقا حتى أنه من جملة ما فعل أن عمد إلى كيس كبير فملأه ذهبا وكان يضعه دائما خلف ظهره في معسكره، فإذا أتى زعيم من زعماء العرب يطلب منه الرفد قال له أدخل يدك مرة واحدة في هذا الكيس وخذ ما شئت فكان العرب يرون أن هذا

(1) لعل الكاتب وقع في خلط فما نعرفه عن أحمد الهيبة أنه ابن الشيخ مصطفى ماء العينين الشنقيطي، وقد قاد حركة المقاومة في جنوب المغرب وبايعته قبائل سوس والصحراء سلطانا للجهاد في ماي 1912، فدخل مراكش وخاض المقاومة ضد الفرنسيين. وقد توفي بأكردوس بناحية جزولة في يونيو 1919، وخلفه في الجهاد أخوه مربيه ربه. انظر: المعسول والإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام وكذلك خلال جزولة والإتحاف وغير ذلك.

(2) ت.إ. لورانس، أرسل إلى الشرق الأوسط عميلا للاستخبارات البريطانية سنة 1914 فقام بحض العرب على الثورة ضد تركيا فيما بين سنوات 1915 و1918. كتب « أعمدة الحكمة السبعة « سنة 1926.

أقصى غايات الكرم، وقد تخلق لورنس بأخلاق العرب ولبس جلدهم واستطاع بذهبه وبسياسته أن يقود العرب إلى ما تريده إنكلترا حتى سماه الناس لذلك ملك الجزيرة غير المتوج. فكان من أعمال العربان ضد الدولة التركية أن كانوا يقطعون عليها الطريق الحديدي الذي يربط الشام بالحجاز فلم يكن القطار يمر إلا تحت شفار السلاح ونار البنادق والمدافع حتى إذا وصل بعد كل هذه الأتعاب إلى المدينة المنورة وزعت تركيا الأزواد ووسعت النفقات. وقد حدثني بعض المهاجرين أن رجال الحكومة التركية في المدينة كانوا قد اتخذوا في ميدان من الميادين الفسيحة عادة أن تعزف الموسيقى يوميا تحت مظلات مرشوشة بالماء وهيأوا هناك ماء مثلجا باردا وكان الفصل فصل صيف، فكان الناس يلتجئون إلى هذه الظلال الظليلة ليشربوا من الماء البارد ويستمعوا إلى الموسيقى ويقعدوا على كراسي مصفوفة هناك، وكل ذلك دون ثمن ولا كلفة حتى إذا أخذوا أماكنهم عرضت عليهم نشرات أخبار الحرب التي يذكر فيها انتصارات تركيا وألمانيا. وبقي الأمر على ذلك حتى غلبت الثورة العربية واتسع نطاقها وحوصرت المدينة من سائر الجهات و لم يبق سالما من الطرق إلا السكة الحديدية دمشق ــ المدينة، فإذ ذاك قامت الحكومة التركية بواجبها في حق المهاجرين فأخبرتهم بأن الحالة تزداد قبحا كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله وقد يضطر الجيش التركي إلى الانسحاب عن المدينة لتعذر المواصلات فمن كانت له رغبة من المهاجرين في الاستقرار فإن الحكومة تسهل له أسباب الوصول إلى الشام، فقام كثير من المهاجرين بالذهاب إلى دمشق ومن بين من قصد بلاد الشام الشيخ سيدي محمد بن جعفر الكتاني و لم يصل القطار إلا بأعجوبة من الأعاجيب، وقد حدث أن أحد أولاد الفقيه الصباغ ضاعَ في هذه الأثناء فلم يوقف له على خبر إلى يوم الناس هذا. وكانت الأخبار تصل بذكر هذه الحوادث فرغم أن المغرب كان في حالة اضطراب وخصوصا في منطقة الشمال التي احتلها الإسبانيون، كانت هذه الأخبار أقوى تأثيرا علينا مما نشاهده بأعيننا فإننا إذ ذاك لم نكن نعتني بأخبار المغرب مثل ما نعتني بأخبار المشرق نظرا لأن أخبار المشرق تصلنا مكتوبة في الصحف والنشرات زيادة على الرسائل الخصوصية. وواضح أن حالة المشرق كانت على شيء غير قليل من الاضطراب ولذلك فإن الحاج العربي بنونة بعد أن قبل من ولده الحاج عبد السلام فكرة أن يبعث بنا إلى الشام بقصد الدراسة هنالك

على نفقته الخاصة لم يكن بد من أن يؤجل تنفيذ هذه الفكرة إلى وقت يمكن أن تستقر فيه الحالة أكثر مما هي عليه في هذه الأوقات المضطربة، بيد أن الاضطراب قد طال أمره في المشرق ثم تطورت الحالة في المغرب بظهور البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي فكانت النتيجة أننا حرمنا من الدراسة في المشرق، ثم جاء ما أوقفني حتى عن الدراسة بالمغرب فانقطعت عن الطلب ولما يمض على دراستي إلا سنة واحدة وبعض أخرى.

وكنا في زمن الدراسة شديدي الرغبة في تحصيل العلم فكنا نود أن لو استغرقنا كل أوقاتنا متنقلين من درس إلى درس وبودنا لو لم تكن عطلة أصلا فإنها تضيع علينا لذة لا تعادلها لذة عندنا، فلم نكن ونحن ندرس نشعر بأي ثقل ولا كلفة و لم يخطر ببالنا أننا نؤدي واجبا ثقيلا إذ لم يكن أحد يدفعنا إلى تأديته ولا إلى القيام بأعبائه، بل كنا نشتغل بكل نشاط وسرور ولا أشعر مطلقا ـــ على شدة احترامي للأساتذة ـــ بأي نفور منهم أو تضجر من معاشرتهم فلقد كانوا يعرفون لي حقي كما أعرف لهم حقهم ويحبونني كما أحبهم ولا أبالي بمحضرهم بشيء إلا أن أكون على سجيتي وطبق ما يحلو لي، وأذكر أنني ذات مرة كنت أحضر درس الألفية على أستاذنا سيدي أحمد الرهوني بالمسجد الجامع من حومة العيون إثر صلاة الظهر وكان الفصل فصل الصيف فكان الأستاذ يلقي الدرس بصحن المسجد على رجاء شيء من النسيم أن يهب في الهواء الطلق غير أن ذلك كان يزيد الأمر شدة، فإن الشمس لم تكن زاغت عن المكان إلا من لدن فترة وجيزة وقد خلفت الصحن كالأتون بعد إطفاء النار منه، فكنا نجلس ونحس بحرارة الأرض تصعد إلى أجسامنا فتشعرنا بمضايقة وقنوط ونحن نتحمل ذلك كله مع أن داخل المسجد وإن كان فيه شيء من انحباس الهواء كان فيه شيء من البرودة المرجوة في هذا الفصل الناري. وفي هذه الأيام كان الناظر قد أحدث بالمسجد صهريجا للوضوء تحت درج الغرف الموجودة هناك بالصحن بعد أن لم يكن بها مخصصا للوضوء إلا الفوارة التي تدور بها مصاطب رصت فوقها ألواح من الخشب لتحول بين المتوضئين ومفعول برودة الأرض، فلما أحدث هذا الصهريج زيادة على الفوارة وكان يقرب من محل إلقاء الدرس وجدت فيه راحة فكنت أقصده للوضوء والتبرد حتى إذا حضر الأستاذ قمت نشيطا وأخذت مجلسي، فلا ألبث إلا يسيرا حتى أشعر بالملل والضجر

المترتب على شدة الحرارة ولا أريد أن أجلس لتلقي الدرس وأنا محبوس فليست الدروس عندي إلا راحة ولذة ولا أريد أن تنغص علي بأي منغص كان، ففزعت لأمر آخر وهو أنني أستمر على حافة الصهريج ورجلاي تلعبان بالماء وأنا أستمع إلى الدرس والكراسة بيدي فكذلك فعلت، فكنت أجلس على حالتي تلك حتى إذا تم الدرس قمت مع الطلبة فقبلت طرف الأستاذ فلهذه الأسباب كنت أحب الدراسة حتى في زمن العطلة.

وإن تسراد الحوادث يشبه الأفلام السينمائية والحديث شجون والشيء بالشيء يذكر أما وقد وصلت إلى الحديث عن ذكر مرحلة هامة في حياتي فلأذكر الأسباب كما أتذكرها، فلقد كانت حفلة زفاف أحد أصدقائنا آل الدليرو فجمعت إحدى الجلسات في هذه الحفلة بين الخير الذاكر سيد الحاج أحمد المؤذن وبين زميلنا سيدي عبد الرحمن اليعقوبي رحمهما الله، وكان اليعقوبي شديد السؤال عن المسائل العلمية ويريد أن يطلع على كل شيء وكان في هذه الأيام قد اشترى نسخة من شرح السلطان عبد الحفيظ على مقدمة مختصر خليل، فكان لما جاء في أوائل هذا الشرح اعتراض عبد الحفيظ على الشيخ عمر بن الفارض في قوله:

وإذا سألتك أن أراك حقيقة		فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

فأرعد السلطان عبد الحفيظ وأبرق — وكلام الملوك ملك الكلام — واستهول أن يطلب رجل من الناس أن لا يجاب بلن ترى بعد أن أجيب بها رسول من أولي العزم وهو سيدنا موسى، فاستشكل الأمر على اليعقوبي وحمل الكتاب وقصدنا به وقرأ علينا ما ذكره عبد الحفيظ فلم يجد عندنا ما يريد فإننا كنا نتحاشى الحديث عن هؤلاء القوم الذين لهم لغة واصطلاح يخصهم، وقد قرأنا عند شارح لامية ابن الوردي عند قوله:

لا تخض في سب سادة مضوا		فإنهم ليسوا بأهل للزلل

ما جعلنا نبتعد كل الابتعاد عن شيء لا نفقه له معنى ولا نعرف له قصدا. ولكن اليعقوبي بقيت المسألة في دماغه مع الآلاف المؤلفة من المسائل الأخرى حتى إذا كان

عرس الدليرو واجتمع فيه بسيدي الحاج أحمد المؤذن سأله عن معنى هذا البيت وما ذكره فيه السلطان عبد الحفيظ، فأجابه المؤذن بأن ابن الفارض لم يطلب ما طلبه إلا استنادا على ما ذكره أهل السنة الذين يجيزون رؤية الله بلا كيف ولا جهة ولا جسمية وإنما هي شيء يقال له الرؤية لقول الله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»، فابن الفارض قد يكون طلب ذلك أن يكون في الآخرة وهو طلب جائز أما ما خوطب به موسى عليه السلام من لن تراني فالمقصود بذلك والله أعلم في الدنيا فلا وجه للاعتراض ولا للتهويل. فلما كان من الغد أخبرنا اليعقوبي بهذا الحديث الذي دار بينه وبين المؤذن حيث لم نكن حاضرين معهما، كما ذكر أنه تحادث معه طويلا في شؤون من شؤون الصوفية فحضه المؤذن على أن يذهب إلى الزاوية الحراقية فإن الفقراء يجتمعون هنالك يوميا بعد صلاة العصر في غرفة الضيوف بالزاوية فيتذاكرون في علم القوم، وفعلا فإن اليعقوبي أخذ يزور الزاوية حينا بعد حين وأذكر أنه قال لي ذات مرة قبل أن أصل إلى الزاوية وأن آخذ عن الشيخ سيدي إدريس: إنه كان يذاكر سيدي إدريس فقال له فيما قال قصيدة ما كنت أسمع منها إلا ...شي...حي...لي ثم انفجر ضاحكا كأنه لم يقنعه ما كان يسمع. وكأن اليعقوبي كان يسمع من الشيخ سيدي إدريس أبياتا من قصيدة لجده الشيخ سيدي محمد الحراق كثيرا ما كان سيدي إدريس يتمثل بها وقد تسمعها منه في اليوم الواحد عدة مرات وهي:

فهي إن ترضى على حب لها تأته رغما على أنف اللحــــي

وإذا تاهت عـــلى عاشقهـــا لم يفد في وصلها واللـــه شي

فلها الحكم انفرادا في الورى لم يكن معها من الكونين ري

ثم واصل سيدي عبد الرحمن اليعقوبي الذهاب إلى الزاوية الحراقية كما كان يذهب إلى الزوايا الأخرى كالزاوية التيجانية والزاوية الكتانية والقادرية فلقد كان رحمه الله اجتماعيا يأنس بكل أحد ويألف ويولف.

وكان من الاتفاق أن ورد على الزاوية الحراقية ضيف من الفقراء الدرقاويين اسمه

السيد العربي وكان طالب علم قد قرأ بفاس وبها اتصل بمولاي عبد الرحمن الدرقاوي ابن مولاي الطيب بن مولاي العربي مؤسس الطريقة الدرقاوية، فأكرمه مولاي عبد الرحمن وأصحبه معه إلى قرية باب الريح من قبيلة بني زروال واتخذه كاتبا لأسراره، فاستفاد السيد العربي من ذلك أن اتصل بأعيان الفقراء وأخذ يستلم منهم الفتوحات حتى حصلت منه هفوة أوجبت تذمر مولاي عبد الرحمن فهدده وأمره بالارتحال عنه فذهب يمنة ويسرة إلى أن ألقى عصا الترحال بالزاوية الحراقية بتطوان، وقد كان الرجل يعرف نفسية هؤلاء الشيوخ ويعرف طرق ترضيتهم فإنه لما وصل إلى تطاون طلب من الشيخ سيدي إدريس الحراق أن يأذنه في وضع ترجمة له فأذنه الشيخ بذلك، فأخذ يجمع من عند الفقراء ومن عند الشيخ نفسه المعلومات عن حياة سيدي إدريس فجمع من ذلك شيئا اكتفى به ثم سلك في وضع هذه الترجمة مسلكا واحدا هو تعداد كرامات الشيخ سيدي إدريس الحراق وعرض المرائي التي رآها الشيخ أو ريئت له، ثم بعد أن أتم كتابة هذه الترجمة أخذ الشيخ سيدي إدريس يملي عليه نص رسالة طويلة تملأ نحو العشر صفحات أو أكثر جمعت عدة نصائح وإرشادات، ثم أخذ منها عدة نسخ ووزعت على مقدمي الطريقة الحراقية كي يرجعوا إليها عند الحاجة. وكانت كتابة مثل هذه الأشياء البسيطة كافية لكي يصبح الفقيه السيد العربي عالما من العلماء، وقد طالت إقامته في الزاوية نحو سبعة أشهر كان في أثنائها يقوم زيادة على الأعمال الكتابية بسرد بعض الدواوين عشية يوم الجمعة، و لم يكن الرجل رجل سوء بل كان رجلا طيبا لم نعرف عنه شيئا قبيحا طيلة المدة التي قضاها بالزاوية وكان غرضه الوحيد هو أن يعود إلى مصالحة مولاي عبد الرحمن، فلما رأى منه الشيخ الرغبة الأكيدة في الرجوع إلى بني زروال كتب له رسالة ليقدمها إلى مولاي عبد الرحمن يتشفع له فيه ويرجوه أن يعود معه إلى ما كان عليه من الصفاء، ثم وجهه الشيخ وأعطاه دابته ليركب عليها وأرفقه بالمقدم سيدي عبد الكريم السوسي والفقير سيدي الفاطمي الدباني. وكان سيدي العربي ذكر أن له ببني زروال كثيرا من الطيب والعود الهندي ووعد أنه إذا رجع إلى بني زروال فإنه سيبعث ذلك كله إلى الشيخ سيدي إدريس فلما رجع الفقيران لم يصحبا معهما إلا شيئا قليلا من ذلك، ولعل ما ذكره السيد العربي قد تلف لسبب من الأسباب.

وفي المدة التي أخذ فيها سيدي عبد الرحمن اليعقوبي يطلع إلى الزاوية كان موجودا بها الفقيه السيد العربي، وكان اليعقوبي يحكم على الأشياء بسرعة قبل أن يتربص في أمرها ولكن هذا العيب كان يصحبه ما يغطيه فإنه كان سريع الرجوع إلى الحق إذا ظهر له وجهه، وكم كنا نلومه على هذا التسرع فكان تارة يغضب وتارة يضحك ولم يكن غضبه يستغرق أكثر من نصف ساعة يغادرنا فيها فيدور بالمدينة من أقصاها إلى أقصاها ثم يعود باسما وقد نسي كل ما كان رغم أن بعضه قد يكون قارصا وفي بعض الأحيان كان يضحك على نفسه بنفسه، فمن ذلك أن عمه سيدي أحمد اليعقوبي كان كثير الأسفار للتجارة فكان لذلك له كثير من الأصدقاء في أكثر مدن المغرب ومن بينها رباط الفتح وكان من أصدقائه بها عائلة ابن عبد الله، فذات مرة زار تطوان شاب من هذه الأسرة ونزل ضيفا على صديق العائلة سيدي أحمد اليعقوبي ونظرا لأنه كان شابا تقرب سنه من سيدي عبد الرحمن فإن عمه أمره بأن يلازمه ليلا ونهارا، ففي الأيام الأولى كان سيدي عبد الرحمن يحدثنا عن ابن عبد الله هذا ويذكر لنا عن نجابته وذكائه ما كان يرفعه به إلى الثريا، على أننا لم ندر كيف وقع حتى أننا لم نتصل به أصلا لنحكم عليه بحكم غير حكم اليعقوبي بل بحكم قائم على التربص في الجملة. ولما انقضى نحو أسبوع أخذ اليعقوبي يذكر عن نزيله أنه أجهل خلق الله، فقلنا له: نحن لا نعتبر حكمك الأول أو الأخير إلا إذا أخبرتنا عن سندك في هذا الحكم، فقال خذوه جملة إن الرجل سألني عن القرابة التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين جبريل ماذا كانت؟ فلست أدري ما إذا كان أخاه أو ابن عمه!! ثم انفجر اليعقوبي ضاحكا. ولما قابل الفقيه السيد العربي بالزاوية قال لنا: إن بالزاوية الحراقية عالما من العلماء الكبار، فقلنا له: سله عما إذا كان يمكنه أن يدرس معنا أرجوزة الشيخ الطيب ابن كيران في الاستعارة، فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى رد علينا قائلا: إن الفقيه قد أجاب إلى ما طلبتم فتواعدنا على يوم الافتتاح وقصدنا الزاوية لمقابلة هذا العالم فوجدناه في انتظارنا فقبلنا يده وافتتحنا. وكانت رغبتنا أن ندرس في عطلة المولد ولكن الفقيه السيد العربي التمس منا أن نؤجل الدراسة إلى ما بعد العيد فلم يعجبنا ذلك ولكننا صبرنا على مضض، ثم عدت إلى زيارة الفقيه السيد العربي عسى أن يسعفني بالدراسة فقصدته وحدي إلى الزاوية فلم أجده بها وإنما وجدت أحد الفقراء فسألته عنه فأخبرني أنه في غرفة

الضيوف، فطلبت من ذلك الفقير أن يدعوه فرجع إلي وقال: إنه يدعوك لتطلع إليه في غرفة الضيوف فكان ذلك أول ما طلعت إلى غرفة الزاوية، فلما طلعت إذا أنا بالشيخ سيدي إدريس الحراق متربع في صدر الغرفة القديمة التي عن يسار الصاعد فدخلت عليه وقبلت يده ثم رجعت إلى الغرفة المقابلة وهي أكبر الاثنتين فإذا بها جماعة من الفقراء من بينهم الفقيه سيدي العربي فقبلت يده وأخذت مستقري، فاتصل بي أخي في الله الشريف سيدي عبد السلام بن محمد غيلان شقيق سيدي أحمد غيلان وكان الفقراء يفطرون وأمامهم صينية الشاي فصرفني سيدي عبد السلام غيلان عما جئت إليه وأخذ يحدثني فيما أعرف بعضه وأجهل بعضه، وآنست به لأنه الرجل الواحد الذي أعرفه في ذلك المجتمع فإن سيدي عبد السلام غيلان من الأشخاص القلائل الذين كنت أحبهم حبا خارقا للعادة لأنه من لدن كنت ابن خمسة أعوام وهو يعاملني معاملة الرجل للرجل فيذاكرني في أمور جدية ويسألني عن أشياء كنت أشعر في سؤاله عنها بأنها أمور لا يسأل عنها الأطفال. وكان كلما غاب سيدي عبد السلام غيلان ورجع أجده هو هو لم يتبدل ولم يتغير وكان كثيرا ما يجالس المعلم القسنطيني رحمه الله وهو رجل أصله من قسنطينة الجزائر كما يدل عليه لقبه، وكان يعمل في صف الجيش التركي ثم انخرط في صبائحية الجزائر الفرنسيين إلى أن أدرك رتبة جاويش فحصل منه ما أوجب هربه فهرب إلى أن وصل إلى تطوان، وقد تعلم في رحلته الطويلة صناعة القزدير وصنع الأدوات المنزلية من النحاس فلما وصل إلى تطوان فتح دكانا لهذه الحرفة، وهذا الدكان بابه هو الباب الأول عن يسار الخارج من المشور إلى الحدادين وقد كان أكبر مما عليه اليوم إلا أنهم لما حولوا السجن القديم الذي كان يقابل باب قشلة الطابور إلى مخزن بعد الاحتلال أدخلوا القسم الأكبر من هذه الحانوت إليه. ولم تكن هذه الحانوت أيام مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب إلا معملا تضرب فيه النقود الفضية والنحاسية، ففي هذه الحانوت كان المعلم القسنطيني وكان معه شاب كنا ندعوه بشعيب لا نعرف له أكثر من هذا الاسم وهو شاب ريفي. وعندما كنا نقرأ بمسجد المشور على الفقيه ابن حمزة وكنا نمحو الألواح كنا ننشفها على حرارة كير الحدادين وعلى الأخص عند القسنطيني وشعيب، فاتصلت بيننا المودة حتى كانت هذه الحانوت كمنتدى للتلاميذ ولم يكن المعلم القسنطيني يقول شيئا بل إنه في الكثير يجلس بالباب ويتركنا وشأننا،

وبينما نحن الصغار في الداخل كان في باب الدكان نادي آخر يجتمع فيه كثير من الناس من بينهم وجهاء وأعيان بقصد أن يسمعوا ما يحدثهم به القسنطيني من عجائب الشرق والغرب التي رآها في سياحاته المتعددة ومن بين من كان يجالسه صديقنا سيدي عبد السلام غيلان. ولطول استماع شعيب إلى معلمه حفظ منه كثيرا من الغرائب التي كان يحدثنا بها، وفي هذه الظروف كانت حرب الغريم[1] قائمة على قدم وساق والأخبار تتوارد بانتصار الأتراك على أمم البلقان وصور الحرب والقواد الأتراك قد ملأت كل جهة ومكان، فكان شعيب يصنع لنا من النحاس نجوما وأهلة نعلقها على صدورنا وبين أعيننا في طرابيشنا ثم يذكر لنا أسماء رجال من بينهم باشا شوكت وأسماء محتها الأيام من ذاكرتنا، لأن هذه الحوادث ترجع إلى ما قبل الاحتلال الإسباني وأعمارنا لم تكن إذ ذاك وصلت إلى العاشرة فكنا مغرمين بالأتراك والسلطان العثماني. وكان شعيب يذكر أن العثمانيين لا بد أن يصلوا إلى المغرب ويقيموا الشريعة ووظيف الجهاد وقد كنا نعتقد في شعيب أنه ليس بالرجل العادي لأنه كان ينتمي إلى الطريقة العيساوية وكان يحمي المكواة حتى تصير ملتهبة بيضاء ثم يضعها على باطن عرقوبه حتى تتصاعد رائحة اللحم المشوي دون أن يشتكي أو يتأوه، وكنا نخرج معه في بعض الأحيان إلى باب المقابر فيقصد شقوق العقارب بعد أن يقتلع قلبا من شجر الدوم ثم يأخذ من أوراقه الرخصة الأسفل فيمضغها بفمه ثم يدخلها في جحر العقرب ويحركها قليلا فتعض أم عريط على الجزء الرخص المبتل فإذا قبضت عليه شعر شعيب بالحرك فيأخذ في جذب الورقة يسيرا يسيرا إلى أن تخرج العقرب على وجه الأرض، فيقطع شوكة ذنبها ثم يأكلها بعد أن يلعب بها في وسط كفه ونحن نظرا لطفولتنا كنا نرى أن هذه الأعمال من الأعاجيب التي لا يقدر عليها كل الناس. على أن الشاب كان طيبا إلى الغاية وكان يقوم بأعمال الدكان كلها والمعلم هو الذي يتقاضى كل الأجور، و لم يكن يحصل شعيب من الأجرة إلا على بليون واحد في اليوم وخمسة بلايين كل يوم جمعة ونصف ريال فوق ذلك كل عيد من الأعياد الثلاثة، وكان كلما دفع له المعلم القسنطيني بليونه في المساء يأخذ يد معلمه فيقبلها، وما أذكر أنني سمعته يشتكي من قلة الأجرة بل كان راضيا قانعا بما هو فيه، وكنت ألازمه ملازمة الظل لأنني إذا أحببت

(1) حرب القرم على إثر إعلان حلف دول البلقان الحرب على العثمانيين سنة 1913.

رجلا أحببته بكلي وتفرغت لحبه، فكان إذا أذن الظهر الأول يأخذ نصف بليون فأرافقه إلى السوق الفوقي فيشتري في الكثير من سيدي محمد العفريت نصف خبزة كبيرة ورطلا من العنب ثم يرد عليه بعض القراريط فكان ذلك طعامه وسط النهار، وكنت أتعجب كيف لا يذهب للأكل في داره وكيف يقنع في الغذاء بالخبز والعنب دون أن يجد أمامه شيئا مطبوخا موضوعا فوق المائدة وهو مع ذلك مبتهج مطمئن يعيش في عالم من الأماني والأحلام التي سيحققها بالجهاد في صف العثمانيين. وكان يقول إن نسبه يتصل بمولاي إدريس سلطان المغرب ولم تكن سن الشاب كما أتخيله تتجاوز التاسعة عشرة أو العشرين وهو مع ذلك يضع فوق رأسه عمامة كبيرة وفي الكثير كان يلبس خيط الوبر كما يسمى وإلا فإن الذي كان على رأسه إنما هي لفافة كبيرة من الصوف الأسود وهو مع ذلك لا يزال لا نبات بعارضيه. وقد اتصل به طالب مكناسي وجهه السلطان ليعلم جند المخزن والمدفعية قواعد الحساب وما يلزم من معلومات، فكان الطالب يقضي أغلب الوقت معنا في هذا الدكان وهو يكتب الرسائل لشعيب كي يوجهها إلى العثمانيين ويرسم له لوحات بخط جميل فيها آيات من القرآن ودعوات بقصد أن ترفع فوق رأس الجيش العثماني إذا وصل إلى المغرب، وقد أدخل هذا الطالب في عقل الشاب شعيب تأثير الجن فأخذ شعيب بعد هذا الاتصال الجديد يحدثنا عن خاتم الحكمة التي إذا أدارها الرجل في خنصره وقفت بين يديه العفاريت تقول له: إذا أردت مال الشرق يأتيك وإذا أردت مال الغرب يأتيك وإن أردت رأس العدو يوضع بين يديك، فيملي صاحب الخاتم إرادته على العفاريت بما يمكن وما لا يمكن فيصبح كل شيء كما يريد. فكنت وأنا طفل أتمنى أن تكون لدي خاتم الحكمة لصنع بها ما أريد إلا أن الشك كان يخامرني في أمرها فلعلها كانت في الزمان الماضي وانقضى أمرها في هذا الزمان. ثم حدثني شعيب ذات مرة بأن الخاتم إنما توجد في الكنوز المرصودة فلا يعثر عليها إلا السعداء وحتى الذين يعثرون عليها فإنهم لا يعرفون كيفية استخدامها، وإذا أخطأ محركها أدنى خطأ في استعمالها لم يشعر إلا وقد بري رأسه كما يبرى القلم. ثم ذكر أن الموجود حقيقة إلى الآن هو «رأس الفأس» فسألته عن هذه الأداة ما هي؟ فأجاب بقوله: إن رأس الفأس من الأسرار المكتومة التي لا يعرفها إلا الأولياء وبعض ساداتنا الطلبة وكيفية الوصول إليها يمكن أن يكون بالطريقة

الآتية: إذا مات رجل أو امرأة فعلى الراغب في الحصول على هذه الحكمة أن يقوم ويتوضأ ويصلي ثم يخرج مع الحفارين الذين يقومون بحفر القبر، فإذا شرعوا في العمل تقدم قبل الجمع ويضرب الضربة الأولى بالفأس فما اقتطع من الأرض بهذه الضربة الواحدة عليه أن يأخذه دون أن يزيد أو ينقص منه شيئا ثم يضعه في خزنة طاهرة ويجعلها في زعبولته ثم يتم عمل الحفر مع الناس، وبعد ذلك يلازم دار الهالك حتى يصلي عليه ويعزي مع المعزين فإذا تم ذلك أخذ تلك الكتلة الترابية ووضعها على قبر الميت ومن الأفضل والأيسر أن تكون حجرة أو آجرة أو شيئا آخر كي يسهل عليه القيام بالعمل، هذا لا يصح إلا في المقابر الموجودة خارج البلد ودون أن يعلم أحد بهذه الإجراءات، فإذا فرغ الناس من شؤون الميت ذهب صاحب الحاجة وأخرج ما هو مخبوء لديه ووضعه فوق القبر في مكان معين بحيث لا يختلف عليه وسط الليل الدامس والظلام الحالك ثم عليه أن يستمر إلى ما بعد منتصف الليل بشرط أن تكون الليلة من ليالي المحاق القاتمة السوداء، فإذا انتصف الليل خرج من المدينة وحده دون علم أي بشر من الناس حتى إذا وصل إلى المقبرة وضع العصابة على عينيه وأدلى فوقها قبه ثم غمض عينيه كثيرا مع ذلك، ثم يأخذ الطريق وهو يسير قدما ثم يقف قليلا ثم يسير قدما أخرى ويقف حتى يصل إلى القبر يتحسسه حتى يضع يده على الحكمة فإذا هم بحملها يسمع صياحا من بعيد لا يلبث أن يقترب منه فعليه أن يكون رابط الجأش ثابتا راسخا، فإذا حمل الأمانة وجعلها في زعبولته وهو على حاله تلك من تعصيب العينين كان عليه أن يرجع من حيث أتى وليحذر من أن يخاف أو يلتفت وراءه أو يغاير في خطواته رغم أنه يحس بأصوات تأمره بأن يضع الأمانة ويسمع تهديدات كالرعود القاصفة، وربما شعر بأن المسالك قد ضاقت أمامه من أشخاص سيقبضون عليه أو يؤذونه وهذا كله في وسط الليل البهيم ووسط القبور وهو معصوب العينين، وليعلم أن تلك الأصوات إنما هي من خدام الأمانة الذين يعملون جهدهم كي يبقوا غير مصفدين ومرصودين عليها على أن حاملها في مأمن من الشر لأن خدامها لا يمكن أن يقتربوا منها أو يؤذوا حاملها. ولا يزال صاحب الحاجة سائرا إلى أن يصل إلى باب المقابر فعليه أن يستند على الباب ولا يدق ولا يأتي بحركة حتى تفتح فتحا عاديا بعد شروق النهار، فإذا سمع صوت المزلاج يحرك من الداخل جاز له إذ ذاك أن يفتح عينيه ويزيل عنها العصائب،

فإذا نجح في هذا كله فإنه قد أحرز على الحكمة التي يفعل بها كثيرا مما يريد أما إذا أخطأ في شيء من هذه الإجراءات أو داخله خوف أو رعب فإنه سيصاب بالآفات التي أقلها أن يصاب بالحمق والجنون والخرس، ثم لم يكد يتم شعيب هذا الحديث حتى أخذتني القشعريرة وتصورت صعوبة الموقف فلو كان أسهل من هذا لسعيت في طلبه ولكن إذا فاتني ذلك فإنه لا يفوت شعيبا الشجاع البطل، فقلت له: وهل تهتم بالحصول عليها أم أن الأمر يشق عليك أيضا؟ فأجاب بقوله: سوف أخاطر وأجازف فإنما كتب الله علينا عمرا واحدا إذا وصل وقته لا يزيد ولا ينقص. ثم مرت عدة أيام بعد أن أطلعني على هذا السر الذي لم أبح به لأحد قبل أن أعلمت به الناس كلهم بكتابته في هذه الأسطر ولا أكتم أن هذا الحديث كان قد نسخ في ذهني تماما لتفاهته ولكنه عاد إلى الطراوة .بمناسبة ذكريات الطفولة وعصر الفتوة والشباب. وفي يوم من الأيام قال لي شعيب إن جارا من جيرانهم قد توفي فذكرته بالقضية وقلت له لقد جاءت الفرصة المواتية لتقوم بالتجربة الخطيرة وتحصل على الأمانة فحرك رأسه مشيرا بنعم، وكانت وفاة الرجل مساء والعادة عندنا من الحفر لا يكون إلا في الصباح قبل طلوع الشمس وعملا بهذه العادة المتبعة تأخر حفر قبر جار شعيب وعائلة شعيب إلى الصباح الباكر من اليوم التالي. فلما محوت لوحي وأقبلت أنشفه في كير شعيب لم أجده هنالك وقال لي المتعلم إنه ذهب إلى حفر القبر فاهتممت بالمسألة جد الاهتمام، ثم رجعت على الساعة العاشرة وهي الساعة التي كنا نذهب فيها لتناول طعام الفطور فلم أجده بالدكان لأنه في الواقع كان يقضي النهار صحبة أهل الميت لكونه جارا من جيرانهم. ودفن الرجل بعد صلاة العصر وأنا أتقلب على جمر الغضا تلهفا على أن أجد شعيبا لأسأله عما فعل في قضيته فلم أره مساء، وخفت أن يكون قام بدور التجربة الخطيرة التي قد ينجح فيها وقد لا ينجح وإذا خسر فإن الخسارة ستكون عظيمة جدا، وقد أخذت مضجعي فلم أنم إلا تهويما ثم يفر النوم من جفوني وكأني أسمع تلك الأصوات المخيفة وأنظر تلك الأشباح المتماثلة وقد أحدق كل أولئك بشعيب المسكين الذي لا يطلب ما يطلبه لدنيا يصيبها ولا لغرض دنيوي يطمع في أن يناله وإنما يفعل ذلك كله بقصد الجهاد والدفاع عن الإسلام والقضاء على رجال السوء، ثم تأخذني إغفاءة قصيرة وقد اعتنقت قدمي أم عيني وهو اللقب الذي كنت أطلقه على جدتي التي لم تكن تسمح إلا بأن أنام معتنقا

لأقدامها ثم آخذ في أحلام لا تعدو أن تكون متصلة كلا أو بعضا بشعيب، ثم أتذكر أن الصباح قد أخذ يدنو رويدا رويدا ويا ترى ما يداهمنا به اليوم الجديد فقد يكون أن شعيبا قد نجح في عمله فنسعد جميعا وقد يفشل فيصبح الشاب إما مرميا في الثلث الخالي من الدنيا بسبب رمية عفريت من العفاريت وقد يصبح أحمق أو معتوها أو أخرس وأبكم.

وما زالت تلك الافتراضات تتمثل أمامي في صور مرعبة جدا حتى كدت أجن من كثرة ما أقدر من الاحتمالات التي قد تطرأ على هذا الشخص الذي أحبه حبا طفليا لا يستند إلا على الطبع والغريزة وأسمى ما في الإنسان من عواطف. ثم سمعت المؤذن يؤذن لصلاة الصبح فقامت جدتي وتوضأت ثم أيقظتني وما بي من حاجة إلى أن توقظني لأنني لم أتذوق لذيذ المنام، فقمت وأديت فريضتي وذهبت إلى المسيد وعقلي مشغول مع شعيب وماذا يجري عليه من تصرفات الأقدار التي غامر في لجتها طلبا للمجد والرفعة وعلو الكعب بالحصول على «رأس الفأس»، تلك الحكمة التي سوف أتمتع أنا بها أكثر من كل أحد لأنني الشخص الوحيد الذي عرفت أسرارها باطلاع شعيب لي على ذلك. ثم محوت لوحي وصلصلته وبالأحرى وقفت إلى جنب من يمحوه لأن كل التلاميذ يرغبون في التقرب إلي ولست أدري لماذا ذلك صغيرهم وكبيرهم إلا أني كنت لا أوذي منهم أحدا ولا أذكره بسوء ولا أجازي الكلمة العوراء بمثلها. ثم ذهبت إلى حانوت شعيب فوجدته قائما يشتغل دائبا في العمل إلى جنب معلمه فأشرت إليه عما حدث فأشار بهزة من رأسه بأن الأمر على ما ينبغي أن يكون عليه، وكأنني كنت أنتظر أن لا أجده على حالته على كل حال لأنه إن فشل في المهمة فلا بد أن يلحقه سوء وإن نجح فلا بد أن تتغير حالته ويظهر عليه أثر الحكمة من مال وجاه وخدم وخول، فإن عجائزنا كانت تلقي في أسماعنا أن صاحب خاتم الحكمة أو قضيب الحكمة أو ما شاكلهما مثل رأس الفأس يستطيع أن يفعل الأعاجيب في لحظة واحدة، فكم من مدينة لم يصبح الصباح إلا وقد تعالت أنقاضها إلى ما وراء جبل قاف وكم من عساكر وجنود لم يحتج في إعدادها إلا إلى دعك قليل على الخاتم وكم وكم من أمور من هذا الصدد، فيا ترى ما لحكمتنا هذه لم تؤد الواجب كاملا غير منقوص وما

لشعيب لم يصبح ذا قصر مشيد وغلمان وعبيد وجاه مديد وأعداء ترفل في قيود الحديد بل إنه أصبح في الكير كالعادة لم ينقص و لم يزد لا قليلا ولا كثيرا، فلعل المسألة لا تزال في حاجة إلى معالجة أتعاب أخرى لأن الحكمة لا يمكن أن تأتي سهلة. وتطلعت إلى ما جرى له في ليلته الليلاء والذي لاحظته عليه وكأني أنظر إليه في هذه الساعة هو فتور وذبول في اللون وألم عميق، فلعل الفتى كان متأثرا من جراء موت جاره ولعله ظل ساهرا ثم لعله قد يكون قام بتنفيذ الفكرة إيمانا بها فعاقه عائق عن تنفيذها وهو لا بد أن يقوم بذلك لأنني أمرته به، وهب أنه قد فعل كل ذلك فإنه لم يسمع صوتا ولا صليل سيوف ولا برق بروق ولا رعد رعود وإنما يسمع في ذلك الليل البهيم دقات قلبه وقد كاد ينشق من الهلع والخوف، ثم إذا كان الأمر قد تم بفتح باب المدينة فإن الفتى قد يكون ضرب المسألة فإذا بالآجرة لا تزيد شيئا عن الآجر الآخر إلا بأنها ملفوفة في مناديل رفيعة، ثم إني انصرفت إلى المسيد وقلبي مستبشر على الأقل بسلامة شخص شعيب، وانقضى النهار وجاء وقت المساء وأنا في شوق ما عليه من مزيد إلى أن أعرف ما تم في الليلة الماضية من العجائب والغرائب. وطيلة النهار والفتى يتهرب من الخلوة التي يمكن فيها أن يرضيني بخبر محزن أو سار فليست العبرة إلا بأن يكون غريبا، وفي آخر النهار أخرج في بطا[ء] من زعبولته آجرة ملفوفة عدة مرات في مناديل وخرق ثم قال هذه هي الأمانة فلم يبق عندي شك في أنه قام باللازم حق القيام ثم لا عبرة بالنتيجة المترتبة على التعب ما دام قد فعل فعل الأبطال، وقد يكون الرجل أمام رغبتي الشديدة لم يمكنه أن يعتذر عن أنه لم يفعل شيئا أو أنه كان يعبث من أول الأمر فإن هذه أمور مثل الأحلام اللذيذة التي يكذبها الواقع والحقيقة، فلم ير حلا يمكن أن يرضيني إلا أن يترك خيالي كما كان دون أن يؤلمني بصدمة الواقع فعمد إلى آجرة فلفها لفا جيدا بعد أن غسلها من بعض ترابها فما كاد يقع بصري عليها حتى نسيت كل شيء إلا أن هذه الآجرة ممتلئة حكمة وخداما وعفاريت. و لم يطل الأمر كثيرا على هذه الحادثة حتى جاء الاحتلال الإسباني فانتظرت أن يقوم شعيب بشيء يخفف عن الإسلام والمسلمين، وأطلعته على أن الأمر يحتاج إلى استعمال كل أنواع الحكمة في سبيل الدب عن الإسلام والمغرب فوعدني خيرا وقال إنه يستعد لذلك، وفعلا فإنه أخذ في الاستعداد فإنه أخذ ذنب بقرة كثير الشعر فوضع له يدا من خشب منجور مصبوغ كما كان

يتخذها الناس للمذاب وطرد الذباب ثم لم يترك قطعة من المعدن إلا وجللها بها وخلط شعورها بخيوط من الحرير الملون وزينها بالريش وأشياء أخرى براقة لماعة، وهو يفعل كل ذلك في صمت لا يخبرني بشيء حتى أكون أنا الذي أسأله وقلما أسأل عن شيء حتى أراجع نفسي عشرات المرات، فإذا استطاعت أن تنسى أو ظهر لي وجه السر لم أحتج إلى ذلك السؤال وإن ألحت علي نفسي في الاستطلاع وانبهم عليها الأمر فإذ ذاك أقوم بالسؤال. فانقضى على اشتغال شعيب بهذه المذبة أيام كثيرة كل يوم يزيد فيها أو ينقص منها وأخيرا سألته عن سر هذه المذبة التي يضعها مع مجموعة المقدسات عنده، وكان قد هيأ الجواب لأنني أعطيته مهلة كافية ليفكر في الموضوع ويزيد فيه أو ينقص حتى يتفق مع رغبتي ومحل حاجتي، فلما سألته قال: إن لهذه المذبة أسرارا عجيبة منها أن من خرج إلى الجهاد وهي في يده ثم أشار بها إلى جهة العدو فإن سحابا ينشأ يعمي أبصار الكافرين ويكون نورا للمؤمنين، ومنها أن من أشار بها وكان حاملا لها لا يراه الأعداء فيتمكن بذلك من أن يصل إلى رئيس الجيش فيقتله أو يسوقه أسيرا، ومنها أنها تدفع كرب الحرارة وشدة البرد فيصبح الناس في أمن من الحر والقر، فلم يبق عندي شك في أن الموقف سيتطور وأن مآل الجيش الإسباني إنما هو الخيبة والفشل بعد أن يخرج شعيب إلى المعترك بمعجزتي الآجرة والمذبة. وكان الناس بعد الاحتلال الإسباني قد فقدوا كل نشاط ومن بين أولئك الذين سئموا الحياة وملوها المعلم القسنطيني الذي كان إلى آخر لحظة مؤمنا بأن الترك العثمانيين سوف لا يتساهلون في أمر تسليم المغرب إلى الأيدي الأوربية، وكان يشك كثيرا في أن الأوربيين يستطيعون أن يفعلوا وحدهم عملا كهذا يتعلق بمملكة إسلامية عظيمة دون أن يأخذوا رأي الباب العالي، ولكن الحوادث جاءت على خلاف ما كان يعتقده المعلم القسنطيني فإن أوربا بسطت سيطرتها على المغرب كما بسطتها من قبل على الجزائر وتونس، وشاهد القسنطيني بعيني رأسه الجيش الإسباني قوبل من أعيان تطوان يوم عيد المولد النبوي بكل ترحيب وتبجيل وقوبل باللبن والتمر ورايات الطوائف الصوفية وقد لبس أعيان البلد أفضل ملابسهم ليقابلوا جيش الاحتلال وقلوبهم تتقطع حسرات، شاهد القسنطيني بعين رأسه هذا كله ولم تمض إلا أيام قلائل حتى شاهد أيضا الناس يؤمرون بدفع السلاح، فأخرج الناس كل ما كان لديهم من سلاح وكان كله أقل مفعولا بكثير من

بارودات الصيد فقدمت مكاحل وسيوف وخناجر ويطغينات وأشياء مزخرفة مموهة بالذهب والفضة وقد كتب عليها «بنـــية الجهاد في سبيل الله »، فذهل القسنطيني كما ذهل غيره وأعرض عن الصنعة و لم يبق الدكان إلا عبارة عن ملعب للفئران. وأخذ ثمن الحاجيات في الارتفاع وقل من الناس من يهتم بالكي والقزدرة أو اشتراء الماعون لأن الجميع أصيب في الصميم. وكان لابد لشعيب المسكين من أن يحاول اكتساب الرزق لأن صناعته قد اعتراها الكساد وصادف أن الألفي إسباني التي وصلت إلى تطوان لم تكن كافية لإقماع تمرد البدويين الذين أبوا أن يستسلموا طوعا و لم تهلهم المدافع التي تجرها الخيول المسومة، فاضطرت القيادة العليا إلى الاستعانة بالمتطوعة من المغاربة الذين أنشئت بعض الفرق منهم بمليلية، فلما تكاثر القبليون المغاربة الذين يدافعون عن استقلالهم على الإسبانيين استغاثوا بجيوش مليلية وسبتة من المغاربة المنظمين للواء الإسباني وبوصولهم إلى تطوان ثبتت أقدام الجيش الإسباني نهائيا.

ورأى الضباط الإسبانيون غناء المغاربة في مقابلتهم لإخوانهم لأن الحديد لا يفله إلا الحديد، لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد. لما رأوا ذلك فتحوا أبواب التجنيد على مصراعيه وكانت الأجور من أقوى المغريات فقد كان الجندي المغربي يتقاضى ريالا في اليوم في الوقت الذي كان فيه الرطل من اللحم بسبعين سنتيما من البسيطة وكان قالب السكر الفرنسي الذي يزن رطلين «2 كيلوغرام» بخمسين سنتيما، فكان الريال يوازي أكثر من عشرة أريلة من سكتنا الحالية. ونذكر أن شعيبا صديقنا كانت أجرته في اليوم قرشا واحدا من السكة المغربية فإذا أصبح يتقاضى ريالا إسبانيا في اليوم فإن أجرته تكون قد تضاعفت إلى خمسة وعشرين أو ثلاثين مرة وفي ذلك ما تبرق له أسرة الفقير المحتاج، وقد اتصل بشعيب جيرانه من الجند فلم يزالوا يفتلون له في الذروة والغارب في وقت لم يكن يربح فيه حتى القرش حتى أخضعوه لإرادتهم وقبل الانخراط في صف الجند الإسباني المنظور إليه كمحتل للبلاد، وهو بالأمس القريب كان ينتظر أن يكون مجاهدا في سبيل الله وكنا ننتظر منه أن يأتي بالعجائب في سبيل الذود عن الحوزة وحماية العرين، ولشد ما كان استغرابي حين لقيته لابسا لبذلة الجيوش النظامية من فرق الركبان وقد جنح سلهامه الأزرق واستبدل بخيط

الوبر العمامة البيضاء، فقلت له: ما دهاك يا فلان حتى خرجت عن رأيك وولجت هذه الوليجة فأين إيمانك الصادق وعقيدتك الصحيحة؟، فأجاب الشاب لا يهولنك ما ترى فلقد كان سيدنا جعفر بن أبي طالب يلبس لباس الروم كما تشهد بذلك الصور التي يبيعها الوراقون وكان هذا اللباس يقوم له مقام جيش لأنه بواسطته كان يختلط بأعداء الدين فيعرف ما يبيتونه للإسلام، وأنا لم ألبس هذه البذلة إلا لأتمكن من الوصول إلى خطوط القتال فأشير إلى الأعداء بالمذبة فيتساقطون تساقط الورق من الشجر في أخريات فصل الخريف. فلم أصدق و لم أكذب غير أنني شعرت بأن ما كنت أضمر له من إعجاب وتقدير قد أخذ يتبخر بسرعة كما تتبخر القربة إذا أصابتها شمس دواخل الصحراء، فانقطعت عنه وانقطع عني خبره وحسبته قد مات لأن الروح التي كنت أحبها فيه قد ماتت و لم يبق إلا خيال يعيش بلا قلب ولا شعور، زيادة على تأنيب الضمير فإن كلماتي لاشك أنها قد أثرت فيه تأثيرا دونه ضربات السيف لأنها كلمات صدق صادرة من طفل طاهر القلب لم يقلها بقصد الشماتة ولا المنافسة وإنما خرجت من أعماق القلب بدون تصنع أو تكلف. ويظهر أن الشاب شاهد المعارك ورأى رفاقه يتساقطون إلى جنبه من جراء رمي المجاهدين الصائب فداخلته الوسوسة وأنه كثيرا ما كان يردد قولهم « إذا رأيت لحية أخيك تحلق فأسرع ببلل لحيتك »، فذات يوم أقبل يبحث عني في الدار فوجدني فلما وقع بصره على بصري أخرج من تحت يده صنيديقا صغيرا قد لفه في خرق من الحرير وضمخه من الطيب ومع الصنيديق لفافة طويلة فيها شيء ومخطر به قراطيس وأشياء مما كان يشتغل به فناولني تلك الحوائج وقال لي: هذه أسراري لم أجد لها محلا سواك ففي هذا الصنيديق « رأس الفأس » وفي هذه اللفافة الطويلة المذبة العجيبة وفي هذا المخطر الرسائل التي كنا نكتبها إلى زعماء الأتراك وقد رأيت أن أغامر وأجازف وأخاف أن أصاب بشيء فتضيع هذه الأسرار التي لا أجد أولى بها منك، فاغرورقت عيني بالدموع وقبضت الودائع وودعته ثم أخذت هذه الأمانات وقبلتها بعد أن خلوت بنفسي. وكنا بعد أن رحل أبناء عمنا إلى طنجة مهاجرين قد انتقلنا من روض سكنانا بدرب الشرفاء إلى دار سيدي المكي بالقرب منا لأن أبناءه كانوا بقوا بتطوان أيضا، فظهر لأم عيني جدتي أن نسكن مع أبناء عمنا لإزالة بعض الوحشة وتقاسمنا الدار شقا لا بلمة، فكانت لنا الغرفة التي عن يمين الصاعد إلى

على الطابق العلوي وبوسط هذه الغرفة قوس كبير قد أغلق بخزانة من الخشب إلى لحية القوس فأصبح شبه خلوة صغيرة لا يدخل إليها إلا بعد رفع الحائطي، ففي هذا المحراب وضعت الأمانات التي أمنها عندي صديقي شعيب وكنت كثيرا ما أقبل هذا الصنيديق وتلك اللفافة لأن بهما أسرارا عجيبة الشأن لم تستخدم لحد الآن، فلربما كانت مرصودة على اسم أحد لم يصل وقته من بعد لأن شعيبا لم يتمكن من استخدامها وإنني أرجو أن أكون ذلك الواحد، وكنت أتفقدها الحين بعد الحين ولا أزورها إلا وأنا على طهارة كاملة لأن مؤمني الجن لا يحبون إلا المطهرين طهرا كاملا. ويظهر أن أمي دخلت ذات مرة إلى تلك الخلوة فألفت بصرها ذلك الصنيديق وتلك اللفافة ففتحت الصنيديق وفسخت اللفافة فلما وجدت آجرة بسيطة ومذبة قالت إن العمل عمل أطفال فانظر كيف اعتنى ولدي التهامي بهذه التوافه فأحاطها بسياج لا تحاط بمثله إلا الأشياء القيمة ثم تركت الأمر على ما كان عليه وذهبت لحال سبيلها. أما أنا فإنني لما وجدت أن الآجرة قد أخرجت من مكانها ورميت جانبا من الخلوة ورأيت المذبة ملقاة كشيء عادي لم أشك مطلقا في أن شيئا أوجب غضب خدام هذين الرصدين، كان من أثر هذا الغضب أن أخذ العفاريت يتحللون من هذه القيود شيئا فشيئا فهم وإن كانوا خداما مأمورين لهم حرمتهم ومكانتهم، فكان لزاما علي أن أستعطفهم وأن آخذ بخاطرهم بل وأتملقهم لأنني لست على علم بما يتخذ إزاءهم من الإجراءات إلا أنهم خلائق تحب الجهاد وتذب عن الإسلام وتراعي حرمة آل البيت إذا استعطفوهم واسترحموهم، ولو كان المتجرأ عليه غير أمي لصحت في وجهه ولكن الفاعل لذلك إنما هي أمي وهي أشد حرمة عندي وأعلى قدرا، ولست أستطيع أن أحدث نفسي بمخاطبتها في هذه القضية من عدة وجوه: منها أنني لابد أن أفهمها أنها أتت بشيء آلم نفسي وجرحني جرحا بليغا فإنها تستطيع أن تتحمل كل الصعوبات وكل المشاق ما دامت تراني فرحا باسما أما الألم الذي يصل إلى قلبها ويؤثر في نفسها فهو أن تطلع على أنني متألم آسف حزين، ومنها أنني لا أريد أن أطلع على أسرار هذه الحكمة حتى أمي فإنها على كل حال لها عقل امرأة لا تستطيع معه أن تحتفظ بسري الاحتفاظ الذي أخذ علي العهد به صديقي شعيب، فلأترك أمي وشأنها ولأقابل الحادثة الجلى وحدي. وهكذا تقدمت إلى الآجرة حافي القدمين مكشوف الرأس مطرق الهامة غاض البصر

حتى حاذيت الآجرة فانحنيت راكعا وكتفت يدي فجعلتهما من خلفي وقبضت بإحداهما على الأخرى ثم انحنيت ساجدا أمام تلك الآجرة أمرغ خدي على التراب وأتضرع وأتوسل، ثم طفت بها ففعلت ما فعلته من السجود من الجهات الأربع وأطلت السجود والخضوع وكلمات التزلف حتى فاضت عيناي بمائهما، فألهمت أن العفاريت لابد أن يكونوا قد رضوا بأنهم قوم طيبون مؤمنون فحين يرون هذا الخضوع مني وأنا من سلالة آل البيت الطاهرين لاشك أنهم يسامحونني وسيسامحون أمي ثم دنوت من الآجرة فأدخلتها صندوقها وكذلك فعلت بالمذبة، وطال الأمر علي فبعد مدة عمدت فحركت الآجرة ليحضر عفريتها وأشرت بالمذبة لتتراءى أمامي البيارق والجنود فلم يكن شيء ولم أسمع إلا نبضات قلبي الخافق، فأخذ الشك يتسرب إلى نفسي فأعرضت عن الأمانتين إعراضا كليا فلم أعرف أين وصل بهما الأمر إلى يومنا هذا، وكما ضاعت من خزانتي وحيازتي كذلك ضاعت قصتهما من ذهني لولا أن الزمان قد عاد إلى إحياء هذه الذكريات.

المعلم الحاج صالح القسنطيني

كم تحيي الذكريات من أشخاص شبح عليهم العدم رداءه ومن كان سيتحدث عن المعلم الحاج صالح القسنطيني لولا الذكريات التي أعادته إلى الحياة فأصبح من الوجودات الأربع التي ذكرها ابن السبكي الوجود في الكتابة، فالمعلم الحاج صالح هو ذلك الرجل الهرم الذي كان يعتم ويتحنك بعمامته ويجلس عل باب دكانه ونحن بداخلها نلعب مع صديقنا شعيب، وكان باب الدكان منتدى يجتمع فيه أهل الشذوذ ممن يحبون حياة المغامرة ويرغبون في الاستماع إلى العجائب والغرائب التي يتحدث بها المعلم الحاج صالح القسنطيني، وكان من هؤلاء الناس أخونا في الله سيدي عبد السلام بن محمد غيلان الذي يقارن اسم الزاوية الحراقية اسمه في ذهني فلا أتصورها إلا تصورته ولا تصورته إلا تصورتها فأنا أنظر إليها من خلاله وأنظر إليه من خلالها، فكان مما روى لي غيلان عن الحاج صالح صديق الجميع: أنه حدثه عن نفسه بأن أصله من قسنطينة الجزائر ومن عائلة شريفة فيها فلما كبر وترعرع أخذ يحيا حياة الشباب المغامر وكان على شيء كبير من الجاه والجمال والمال، فكان إذا وصل إلى مدينة تلمسان التي ــ كانت في أواسط القرن الماضي تمثل دار الترف والخلاعة ــ صار ذكره في أندية المرح واللهو واجتمعت عليه الطنبوريات والعوادات والرامضات[1]، وتوالت عليه رسل الغادات الحسان المريضات من هواه والمصابات بسهم كوبيد الذي سدده إلى قلوبهن متوسلات إلى إصابة الغرض بجمال صالح الساحر وشجاعته الفذة، ولاسيما حين يدخل المدينة راكبا على فرسه ومعه فريق من زملائه من طبقة الشباب. وكان أهل

(1) الرمضة هي المرأة التي تحك فخذها فخذ الأخرى ولعله استعمل الكلمة كناية عن الراقصات.

مدينة تلمسان إذا سمعوا بمقدم الحاج صالح أمروا بناهم وذوات أقاربهم بأن لا يخرجن إلى الشارع ما دام هذا الشاب في المدينة. وتوالت هفوات الشاب وأعجز حتى عسكر الحكومة عن أن تصل إليه بأذى فكانت هذه الانتصارات وهذا الفوز لا يزيدانه إلا غرورا بنفسه وإعجابا بها، ومن المعقول أن يثير بسلوكه حسد أقرانه وزملائه فأخذوا يكيدون له ويؤلبون عليه ذوي السلطة والحكم حتى أوغروا صدر حاكم البلد فأخذ يتحين به الفرص للإيقاع به، واتسع الأمر حتى أصبح الوالي يطارده علانية وجهارا فضاق الفتى المغامر ذرعا ولم يستطع البقاء في القطر الجزائري على غير الطريقة التي كان يجيى عليها، فامتطى غارب الأسفار وركن إلى الإبعاد في الأرض فقصد عاصمة الخلافة العثمانية إصطنبول وانخرط في سلك الجندية، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى أخذ نجمه يتألق فطفق يترقى في المناصب حتى استطاع أن يكون ضابطا صغيرا على رأس ثلة من الجند التركي الباسل، فلما قامت الحرب التركية ــ الروسية كان صالح ممن خاض غمارها وحضر وقعة حصار مدينة بليفنا[1] حيث أبلى الجيش التركي بلاء حسنا وبها أصيب بجروح عدة من جراء انفجار قنبلة، فأظهر من الثبات والصبر ما حمل الحكومة التركية على أن تنعم عليه بوسام يتقاضى حدا له من الحكومة نصف جنيه عثماني في الشهر ــ وكان المعلم صالح يذكر أن الفرمانات[2] التي تتعلق بهذه القضية لا تزال تحت يده وأن البنك العثماني يوفر في حسابه هذا المرتب ــ . وأخيرا حن صالح إلى مسقط رأسه فقفل راجعا إلى الجزائر فوجد الأمر قد تغير كثيرا وأصيب بالمرض فذهب كل ما جمعه، فأخذ يتقلب في بلاد الله الواسعة إلى أن وصل إلى المغرب فاستقر بمدينة تطوان محترفا بحرفة قزدرة الأواني النحاسية وصنعها. فكان يجلس معه في دكانه الذي نتحدث عنه الراغبون في استماع غرائب الأخبار وكان واسع الرجاء شديد الثقة بالله موقنا بأن الإسلام لا بد أن يعز ولا بد أن ينتصر فكان كثيرا ما يردد قوله في تأثر وخشوع «الإسلام هو الإسلام»، وكانت عقليته مع شدة ذكائه وخبرته مصطبغة بالأسف فيما يقوله المجاذبة وأرباب الأحوال فكان يتحدث عن امرأة مجذوبة بالجزائر تدعى أم الأخراص بعجائب وكرامات وكانت شاعرة على الطريقة العامية فكانت

---

(1) حصن على نهر الدانوب بإقليم فالاشيا. وقاد الجيش التركي خلال الحصار عصمان باشا سنة 1877.

(2) جمع فرمان وهو مرسوم أو ظهير.

تأتي في شعرها بطرف من أنباء الحدثان، فمن ذلك قولها:

أصـــاحبي كن خـــمام	وفي البحر ركب سفينا
دورها بـــــر وبحـــــر	وزد حتـــى المـــديـــنا
شفت القلق حاط بالناس	والقلوب مرضى حزينا
نوحـــي يا أم الأخراص	على بردو يـــــا حزينا
يخرج شاب نسنـــــاس	وشّـــــلاغمه مبرمينـــا
عينـــه مثل الجـــــباص	وطواغين على يميـــنا
يقد الـــــــرأس للــرأس	ما يقطع غير الـسمينا

قال سيدي عبد السلام غيلان: ولما دخل الجيش الإسباني إلى تطوان للمرة الأخيرة أصدر المقيم العام وقائد جيش الاحتلال أمره بأن يقدم أهل المدينة سلاحهم، فطفق الناس يذهبون بالسلاح إلى الباشوية التي كان يشغل مكانها الحاج أحمد بن الحاج محمد الطريس وكان كثير من الناس يحملونها في أيديهم ليدفعوها إلى حيث أمرت قوة الاحتلال، فكان على عادته يجلس بباب دكانه يفكر في هذه الأمور وفيما أحاط بالمسلمين من ذلة وهوان. وقال غيلان فبعد أيام من هذه الحوادث دعاني إلى أن أرافقه للدخول إلى دهليز الدكان فرافقته فأخرج سيفا متقادم العهد ونظر إليه طويلا ثم أخذ المطرقة والسندان وأخذ يقطع سيفه قطعا صغيرة حتى أصبح عبارة عن كومة من قطع من الحديد التي لا تصلح لشيء ثم قال: الآن طابت نفسي وإنني أحمد الله على أن التاريخ لم يسجل علي وأنا في أخريات عمري أنني أسلمت سلاحي إلى أعداء الإسلام الذين حاربتهم ما دمت قويا نشيطا.

وقد توفي هذا الرجل في أواسط العشرة الثالثة من القرن الرابع عشر الهجري. وواضح أن صديقنا شعيبا عنه كان يأخذ كثيرا من روح النخوة والحديث عن الجهاد، ولكن أمر المعلم الحاج صالح القسنطيني كان قائما على حوادث واقعية ومبادئ لها أسس أما صاحبنا شعيب كان حظه من ذلك استراق السمع وبناء الخيالات والأوهام رحمهما الله.

سيدي عبد السلام غيلان

لقد جرنا إلى الحديث عن وصالح مناسبة صداقتنا مع أعجوبة الأعاجيب سيدي عبد السلام غيلان الذي رافقناه في الزاوية كثيرا من السنين كما رافقناه في دكان المعلم صالح يوم كان لنا تسعة أو عشرة من السنين، فكان غيلان يعاملني كما يعاملني اليوم بالحب والاحترام ثم أخذ مشرقا وأخذت مغربا إلى أن جاء الوقت الذي طلعت فيه إلى الزاوية فاتصل حبل صداقتنا من جديد.

رجع إلى لقاء الشيخ الحراق

والسبب في طلوعي إلى الزاوية الحراقية التي وجدت فيها سيدي عبد السلام غيلان مقيما ليلا ونهارا ينفق من ماله على الفقراء سرا وجهارا هو ما تقدم من الرغبة في دراسة منظومة الشيخ الطيب ابن كيران في الاستعارة على الفقيه سيدي العربي وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك. وكان طلوعي إليها قبل أيام عيد المولد النبوي سنة 1337 هـ وقد أخذت أزورها الحين بعد الحين فلقد أخذ رفقاؤنا يعمرونها فكان يتعهدها بالزيارة سيدي عبد السلام اليعقوبي[1] وسيدي المكي ابن عبد الوهاب وأفراد آخرون، وقد زرتها صبيحة يوم العيد فوجدت الفقراء في حلقة الذكر يتواجدون ويحدوهم مسمعون بأصوات حسان لم أذكر أني سمعت مثلها، ولقد كانت نفسي على الحالة السابقة الذكر فقلبي يرجف كلما سمعت ذكر الله وعيني تذرف الدمع كلما رأيت ما يذكر بالقرب منه والزلفى إليه وأعضائي تضطرب عندما يتجدد علي أقل خاطر أو وارد، وبالجملة فقد كنت في حيرة لا أرى خلاصا منها إلا لقاء شيخ عارف بأحوال الطريق وخاطرات النفوس عسى أن يأخذ بيدي فينقذني من هذه الحيرة التي سدت أمامي كل طريق إلا طريقا يقرب إلى الله ويحث عليه. فعندما وجدت الفقراء يتواجدون اعتراني ذهول لم أشعر معه بدنيا ولا سماء ولا أرض وإنما هي عواطف تختلج في صدري اختلاج الأمواج في البحر الزاخر، وقوي علي الأمر فوصلت المرارة والحلاوة واللذة والألم والخوف والرجاء والحب والمهابة إلى درجة لا درجة فوقها إلا درجة تجعلني أفقد الحياة، وظني أن ما كان بصدري كان يكفي ليقضي على الذوات التي فقدت الحصانة

(1) لعله عبد الرحمن اليعقوبي صديق المؤلف.

الوراثية والإستعدادية أيضا، و لم أطق بكاء ولا حركة وضبطت نفسي ضبطا وفقني الله فيه حتى لم أختبل ويا ليتني قمت إلى حلقة الذكر فاهتززت وترنمت وخففت عن نفسي بعض بلوائها هذا لم يخطر ببالي ولا حدثتني به نفسي. وقد تجمعت كل هذه الظواهر وتجسمت في الحركة التي كان يتحركها سيدي المكي ابن عبد الوهاب فإنني كنت جالسا خلف الشباك الذي كان يطل على ضريح الشيخ سيدي محمد الحراق وهو الذي نزع ونام مقامه مرقد سيدي إدريس ومجمع رفاته، ومن هذا الشباك كنت أشاهد الشاب سيدي المكي ابن عبد الوهاب وعليه جلابة فجلية اللون وقد وضع رأسها فوق رأسه وأخذ يتحرك حركة هي في نفسي كحركة السبع المثاني، وظلت أشاهد هذا المنظر حتى أخذت تهزني هزات متوالية فرجع إلي حسي فإذا رفاقي يهمون بالانصراف فانصرفت وإياهم وقد اخترت الانفراد فلم يجعلهم هذا الاختيار ينكرون شيئا من حالتي لأن ذلك أمرا اعتادوه مني، فكنت وإياهم إذا رأوني في حالة الانبساط انبسطوا معي بمقدار وإذا كنت في حالة انقباض تركوني وشأني إلى أن تذهب الأزمة بسلام، وحسبوا أن حالتي اليوم كحالتي بالأمس ولكنها عندي كانت شديدة شدة فهمت منها أن قيام قيامتي قد دنا وقرب ثم تراجعت قليلا قليلا حتى عدت إلى شيء من الهدوء والطمأنينة، فبسبب الوضوء وأداء بعض الركعات وتمريغ الخد في سواد الليل والمناجاة مع من لا تخفى عليه خافية وهو القدير على أن ينتشلني من مساقط الزلل، وأصبح يوم العيد فأصبحت أتصنع الرزانة والسكون وجاءني إخواني يهنئونني بالعيد وانصرم هذا اليوم بسلام. أما سيدي عبد الرحمان اليعقوبي فإنه قصد الزاوية هذا اليوم أيضا وقصدها معه جمع من زملائنا فتضيق منهم الشيخ سيدي إدريس الحراق، وذكر لي سيدي عبد السلام غيلان فيما بعد أنه قال له: « قل لهؤلاء الطلبة لهم أن يختاروا أحد أمرين إما أن يأخذوا وردنا وينضموا لزمرتنا وإما أن لا يعودوا يفتنوننا » ولكن سيدي عبد السلام غيلان أجل هذه الرسالة حتى يعد العدة، فقد كان يفكر في مصلحة الطائفة الحراقية كما يفكر أكبر أنصارها وكان له أسلوب في الدعوة خاص فقد كان يستخدم له ما أوتي من بلاغة وفصل خطاب وإنه لأكثر اطلاعا على عقلية الناس من أي واحد آخر، ولذلك فإن المقاييس التي كان يستعملها بسر ما انطوت عليه النفوس من خير أساليب غير ما يعرفه الناس و لم يكن يبالي بالمظاهر وما تأتي به الجوارح من عمل بل إنه كان

يترك الحالة الظاهرة وشأنها ويعمل جهده لكي يطلع على حقيقة الإنسان التي تشتمل عليه نفسه في داخليتها، فكان حكمه مصيبا ونظره ثاقبا و لم يكن يظهر الرغبة لأحد في أن ينضم للطريقة الحراقية ولكنه في باطن نفسه لم يكن يحب شيئا حبها، وكان يخوض مع كل طبقة من طبقات الناس في حديثها فيخوض مع المتعبدين في شؤون عبادتهم ومع العلماء في شؤون علمهم ومع المغفلين عن الله في شؤون غفلتهم، فيلمس في كل طبقة من الناس خير ما فيها ويعرف شر من ينتمون إليها فلم يكن عنده الظواهر ولباس البذلة هي عنوان الفتى بل إنه كان يتتبع الكلمة الشاردة تخرج من فم الرجل فتدل على قلبه ومبلغ اتجاهه في هذه الحياة، وكان يراقب الحركات النبيلة والأخلاق الطيبة في كل مجتمع من المجتمعات فلذلك لم يسهل عليه أن يحكم على جماعة الطلبة الذين يرتادون الزاوية حكما واحدا مع أن الفرق بين واضح، فطبقة الطلبة كسائر الطبقات فيها خير وفيها شر والحكم بالخير والشر لا يصدر أحدهما على مجموعة كاملة بل هذان حكمان ينبغي أن يصدر أحدهما على فرد بعينه لا يساهمه غيره في حكمه فإذا تم شأن فرد تناول الحكم الأفراد الآخرين، وكان في هذا العقل والتروي من غيلان خير كثير ظهر أثره فيما بعد. وكان الشيخ سيدي إدريس الحراق يحب منه هذا الانتظار فكثيرا ما حدثنا عن شيخه سيدي الحاج عبد القادر بن عجيبة أنه كان ربما صدر منه كلام قارس في حق بعض أصحابه، فكان بعض الحاضرين يكرر ما سمعه من الشيخ فيبلغ الشيخ أن حديثه قد أعيد فينحي بالملامة على معيده ويردد المثل القائل «إن خبر السوء لا يبلغه إلا طير السوء». فكان غيلان عارفا بصحبة القوم الذين ليس لهم سرائر سوء فإذا تخيلوه ذكروه في صراحة لأن قلوبهم لا تحتمل أن يستقر فيها شر، ثم يعودون يرجون نظرة من نظرات الله التي تبدل القلوب في كل طرفة ولحظة ولمحة.

وقد أخذ غيلان يذاكرني في أول الحديث حول موضوعات علمية وأدبية فاستهواني حديثه وما له من نظريات وتعليقات وفي الواقع كان كل منا في هذا الحديث يمشي على غير سجيته، فأنا لم يبق لي التفكير في المصير بقية للأدب والحديث الطريف وهو كان يسلك في حديثه مسلك الرجل الذي يريد أن يطلع على ذات صدري، فإن عيني الحزينتين وإطراقي الدائم وكثيرا من العوارض الظاهرة لم يكن ليخفى على غيلان أنها

تؤذن بأن في أعماق القلب أمرا هائلا جعل هذا الشاب الجلد الوقور يترفع عن مطامع الشباب وينصرف عما يختارونه من الحالات التي تناسب أعمارهم وأفكارهم الفتية التي تسطو عليها الحيوية الحادة وهي أشد ما تكون حرارة فتجعل الشاب يركن إلى ما يشبع همه المادي، غير أن الأمر ـــ في نظر غيلان ـــ لدى هذا الشاب يختلف كثيرا عن حالات الشباب وإن كان لا يتهم بالعصمة إلا الأنبياء، فإنه فرق كثير بين من يقضي لبانته كضرورة من الضرورات البشرية وبين من يتمتع بها قبلها وبعدها ويقصر حديثه في التغزل بها والإشادة بشأنها. ثم أخذ غيلان يستميلني إليه ويجذبني في رفق للحديث عن الصوفية والتصوف فكانت نفسي ترتاح إلى حديثه ارتياح المريض للطبيب وهو يصف الداء والعلاج، وانساق بنا الحديث إلى أن صرحت له بكلمة لا أدري كيف كان خروجها من فمي إلا أنها انسابت كالقنبلة فرأيت غيلان بعد أن قلت له: إنني أريد شيخ التربية فدلني عليه وما رأيك في سيدي محمد بن الصديق الغماري الطنجي، حتى نظر إلي شزرا يلمح عيني هل فيها ما يدل على الصدق، فإذا وجه عليه كل ما خلق الله من أمارات الاهتمام يقول كلمة لا يترك شيئا من الجد إلا أودعه فيها، فعرف غيلان أنه قد عثر على ما كان يبحث عنه من سريرة هذا الشاب فمد يده إلى حق سحيق تبغة ونفض منه على ظهر راحته واستنشق نشوقه ونفض أنفه بالمنديل الأحمر، وهو في ذلك يفكر في هذه الحالة التي قد تكون مفاجأة لم يكن ينتظرها من شاب أنيق بسمت له الدنيا وتمتع بتقدير في الوسط الذي يشغله ونال نجاحا في دراسته حتى غدا ملتفت أنظار أساتذته ومشايخه. قد تكون هذه الأفكار دارت في رأسه كما أنه لم يكن من البعيد أن يكون قد رجعت به الذكرى إلى عهد السلف الصالح فقد حدث بين هذين البيتين أن قام الشاب مولاي عبد الله الشريف جد الأشراف الوزانيين موقف التلمذة وسلم إرادته لشيخه الغيلاني سيدي علي بن أحمد الصرصري، على أني كنت متهيئا لكل ما يلقى علي مما يتعلق بالحديث عن القوم وطريقهم فلو أمرني غيلان أن أتخذه شيخا لفعلت لأن الله قد ستر عني في تلك الفترة الزمنية عيوب الناس فلا أرى في هذا الكون إلا صورة الكمال وأينما وجهت بصري حسبت أنه يقع على ولي الله، غير أن غيلان صرف الحديث عن هذا الموضوع وطفق يتحدث عن أشياء تافهة تفرقنا بعدها وهبطت من غرفة الزاوية التي عن يمين الصاعد إلى السطح، وعندما كنت خارجا

رأيت الشيخ سيدي إدريس مقابلا لي فقد كان مجلسه في صدر الغرفة التي عن يسار الصاعد إلى سطح الزاوية وخلف ظهره الشباك المطل على فسيح وادي مرتيل الذي ينتهي إلى البحر الأبيض المتوسط. وعندما كنت خارجا رأيت الواجب يفرض علي أن أقبل يده وكنت شديد الاعتقاد في أهل البيت رضي الله عنهم بقطع النظر عن كونهم يدعون أو لا يدعون الصلاح فقبضت كف الشيخ وقبلتها فدعا لي بخير، ثم انصرفت ووساوسي كما هي ثم اتصلت بعد الظهر بغيلان فأعدت عليه القول في رغبتي في الشيخ فسكت سكوت من نضجت الفكرة في دماغه ثم التفت إلي التفاتة غريبة مساذجة وقال لي: لا تطلب لك شيخا في طنجة وإنما شيخك في تطوان، فقلت له دلني عليه فقال لي: إنك ستعرفه وسوف ينفعك الله بصحبته. ولم أكن أتصور أنه سيدلني على الشيخ سيدي إدريس فإن غيلان قد ذكر لي جملة من المشايخ والأولياء قابلهم وصحبهم وعرفوه وعرفهم ولم يذكر لي في جملتهم شيخه الحراق، فألححت عليه في الطلب إذ قد وجدت عنده ضالتي التي أنشدها فما ينبغي أن تنفلت من يدي بعد أن قضيت في سبيل البحث عنها الأمرين فهذا دواء نفسي العليلة قد أصبح على مقربة مني حتى إن دائي النفسي قد أخذ في النقاهة لمجرد البشرى التي بشرني بها غيلان. فعدت إلى الدار فرحا مستبشرا شاكرا الله الذي جعل لي من أمري فرجا ومخرجا ومهل علي الطريق فلقد كان صح مني العزم على أن أهيم في الأرض في طلب الشيخ فإذا بربي قد أحسن بي وقرب لي المسافة ورحم العجوز جدتي وأمي من أن يراهما حزينتين على فقدي عندما أذهب مع الذاهبين إلى الله واستطعت أن أتناول الطعام وعاد شيء من السكون إلى أعصابي. وهكذا كانت كلمات غيلان ترياق قلبي وعلاج روحي فحننت إليه حنين من بلغ به المرض إلى أن وصل إلى درجة العضال فوجد من أعطاه من العقاقير والمراهيم والسعوطات ما جعل الداء يخف وينصرم وينحل بلغمه شيئا فشيئا، غير أن النفس قد ازداد شوقها وتطلعت إلى ذلك اليوم السعيد الذي تنيخ به حمولتها في باب الله وتطلب رضاه عن طريق الإرشاد الذي يرشدها فيه شيخ كامل عارف بأدب الطريق مطلع على دسائس النفس ورعونتها خبير بالمراتب والمناصب صادقها وكاذبها وما يحيط بها من خطر، فلما ألححت وأكدت قال لي: ارجع غدا إلى الزاوية على الساعة العاشرة صباحا ولا يكون إلا خير، فاستبطأت وصول الوقت وأصبحت دقائقي

تعادل الساعات وما صدقت أن الوقت قد قرب بانفلاق الصباح عن نور الشمس في يوم ثاني عيد المولد النبوي حتى أخذت أفكر كيف يتم هذا الأمر ويا ترى من سيكون شيخي وهل هو ممن أعرفهم أو ممن لا أعرفهم وهل يكون من أهل العلم أو من طبقة أخرى من الناس. إلا أن هذا كله لا يهمني فليس الشيخ عندي مقيدا بقيود ولا يلزم أن تجتمع فيه الصفات التي تجعله كتمثال منحوت وإنما يهمني أن يكون شيخا عارفا وكفى، وبما أنني قد وضعت الثقة كلها في غيلان فإنه سوف لا يدلني إلا على من هذه صفته. ودارت عقارب الساعة التي أكاد أخرجها من جيبي كل دقيقة أو أقل في بطء ما عليه من مزيد فها أنا أتذكر بها يوم القيامة الذي قد يكون مثل أيام الدنيا ولكن الهموم والأحزان وطول التفكير تجعله عند أقوام كألف سنة وعند قوم آخرين شر منهم كخمسين ألف سنة بينما هو عند الفريق المطمئن كركعتي الفجر. وقدر الله أن يدور الزمان على كل حال وأن يصل الوقت المحدد بالضبط فما كادت تدق الساعة العاشرة حتى كانت قدماي تدقان فوق درج غرفة الزاوية، فإذا بالوقت والمكان قد هيآ لي خصوصا فليس بالزاوية أحد من أولئك الخدام والفقراء وليس بها صينية شاي ولا هرج ولا مرج وإنما أنا في غرفة عبق طيبها تملؤها المهابة وليس بها إلا غيلان جالسا كأنما ينتظر شيئا هاما وبصدر المكان الشيخ سيدي إدريس الحراق وقد لبس أفخم الملابس وتكحل وتعطر وفي عنقه السبحة البيضاء الغليظة، فدخلت وسلمت وقبلت يد الشيخ وتمنيت أن لو كان غائبا لأتحلى بالحديث مع غيلان، فانحنى غيلان على الشيخ سيدي إدريس وأسر إليه شيئا ثم قال لي: قم فهذا شيخك سيلقنك الورد، فوالله ما ارتعت ولا تأخرت ولا خطر بخاطري أي نوع من أنواع التردد بل قمت في اطمئنان وحنوت على ركبتي ووضعت كفي في كفه فأخذ يلقنني الورد ولكنني لم أتمكن من حفظ ما ذكره لي، وكان ذلك على الساعة العاشرة من يوم ثالث عشر ربيع الأول سنة 1337هـ موافق 17 دجنبر من سنة 1919م وسني إذ ذاك خمس عشرة سنة لأنني ولدت يوم الاثنين 2 صفر من سنة 1322هـ موافق 18 أبريل سنة 1905م[1]، وذلك في وقت حصار قبائل الجبل لتطوان عندما تمكنت من القبائل دعوة أبي حمارة وكان أشد تلك الأيام على

(1) وهذا التاريخ لا يوافق التاريخ الذي زودني به ولده السيد عبد الله بن التهامي والمثبوت في الحالة المدنية للعائلة وقد أوردته عند التعريف بالمؤلف في التقديم.

تطوان يوم الاثنين 9 صفر وهو يوم سابع ولادتي[1].

(1) كان حصار قبائل بني يدير وبني حزمر وبني معدان لتطوان قد وقع في عام 1321هـ 1903م، وهذا ما يعزز تاريخ ولادته كما ورد في التقديم، وكما أن الهجوم على تطوان لم يتم التحريض عليه إلا عند ظهور بو حمارة على مسرح الأحداث بالقرب من المنطقة. انظر كتابنا « تطوان خلال القرن التاسع عشر »، تطوان، 1996.

بعد أخذي للورد

ما هو إلا أن لقنني الشيخ سيدي إدريس الحراق الورد الحراقي الدرقاوي الشاذلي حتى تيقنت أن طور الحياة والارتباك في طلب الشيخ قد مضى وانصرف وأقبل عهد يجب فيه القيام بالواجب وبذل المجهود وتسليم الإرادة، وشعرت أنني وضعت حملا ثقيلا وما وضعته إلا لأتحمل ما هو أشد وأشق منه فالعين يلزم أن تغض عن المحارم والسمع يجب أن يكف عن سماع المآثم وكل عضو يجب القيام الشرعي الكامل بواجبه والفكر يجب أن لا يغفل عن الله طرفة عين. وإذا كنت معذورا بالأمس لعدم تهيئ الأسباب فها هي الأسباب قد تهيأت اليوم وإذا كنت بالأمس حيران أخشى أن يكون كل عمل أقصد منه الخير يجرني إلى الشر فها قد وجدت الشيخ الذي حسبت نفسي بين يديه كالميت بين يدي غاسله، فهو الذي يرشدني إلى ما ينفع وما يضر وبالجملة فقد انتقلت طفرة واحدة من باب الحيرة إلى راحة الاستسلام ولو كلف ما كلف، و لم أعد أفكر أن لي أصحابا ولا أصدقاء ونسيت أنني من عائلة لها طريقتها الخاصة في التصوف ولها مشايخها وطقوسها وتقاليدها، وغاب عني خيال كل شيء إلا كوني مفتقرا إلى من يأخذ بيدي فيعرفني بطريق الله التي سار فيها خيرة هذه الأمة الإسلامية وذوو الفضل بها. فلذلك لم أتردد مطلقا في امتثال كل ما يأمرني به الشيخ فقد تهيأ ذهني كامل التهيئة لأقبل كل شيء دون بحث ولا معرفة ولا اطلاع، فقد كانت الفترة التي سبقت يوم الانخراط العملي في طريق القوم قد صقلت نفسي صقلا تاما وعرفت خلالها من آداب السلوك ما آمنت معه بأن هؤلاء المشايخ كل أعمالهم وأقوالهم على صواب وإن كانت في رأي العين تظهر أنها مخالفة للمصلحة أو للشريعة،

فلذلك كنت أنتظر بتلهف الأوامر التي عسى أن يصدرها إلي الشيخ وهي فيما يعتقد الناس لا تتفق مع المصلحة فهذه كانت الهواجس الأولى. وبمجرد ما أخذت الورد وانفض ذلك المجلس اللذيذ الذي ما أحسب أن تلك اللحظة إلا ساعة من الساعات التي يقضيها المؤمنون في دار النعيم، وبعد أن صلينا الظهر الأول ــ وكانت عادة الشيخ يصليه أول الوقت إماما في الزاوية ومنها ينصرف إلى أهله ــ وذهبت إلى البيت طال علي الانتظار وحسبت أن الطعام الذي آكله قد يكون أكله غير موافق لروحي لأن الشيخ لم يعلمني كيف آكل وما هو المقدار الذي آكله، وكذلك كل حركاتي تشككني في كونها حركات لا توافق رضا الله وفي كونها مما يخالف السلوك الذي عزمت على الأخذ به، وكانت هذه الخواطر الجديدة تسد علي كل الطرق وترغمني على العودة إلى الزاوية ففيها آمن يسيرا من الشيطان والنفس والهوى لأنني فيها بمترلة المريض في المستشفى لا يتناول شيئا إلا بإرشاد الطبيب وإذا تجددت حالة من الحالات وجد الطبيب قريبا منه والدواء سهل التناول.

ولم أقض في البيت إلا بمقدار ما أمضغ لقيمات يقوم بهن صلبي ثم كأن النار قد اشتعلت من سائر جهاتي وهي تبعثني إلى المسلك الواحد الذي يربط بين الدار والزاوية وكلما تقدمت خطوة ملأت النار المكان الذي غادرته من خلفي إلى أن وصلت إلى الزاوية. ودام هذا الحال من لدن مدة قصيرة وربما كان في بعض الأحيان يخيل إلي أنه شيء حقيقي ثم وصلت إلى الزاوية فإذا ببابها رحال تشد ورجال مهيئون ودابة زرقاء مسرجة والفقراء في ملابسهم المتقشفة، فسألت فأخبرني أحد القوم بأن عادة الفقراء أن يذهبوا كل يوم ثاني عيد إلى مدشر شويخين من فرقة بني سالم من قبيلة الحوز بقصد زيارة من بها من المشايخ الأموات وصلة الرحم مع أهل بني سالم الذين جميعهم بدون استثناء فقراء حراقيون ذكراهم وإناثهم وأطفالهم وبناهم فالكل في عنقه السبحة يذكر الله ويمجده آناء الليل وأطراف النهار، وتقديرا لهذه الكتلة الصوفية من الذاكرين الذين لهم ماض مجيد في سبيل الدعوة والإرشاد من لدن قام الشيخ سيدي محمد الحراق يدعو إلى الله ويدل عليه، فسألت عن الدابة الزرقاء لمن هي فقيل إنها للشيخ سيدي إدريس فعلمت أنه مسافر وسوف يتركني على جمر الغضا إلا أنني عللت النفس بوجود غيلان

الذي يعرف كثيرا من دقائق علل النفس فقد دلني على كثير منها واستفدت منه خير استفادة ويكفي في قيمته عندي أنه هو الرجل الذي أوقفني على شيخ يأخذ بيدي.
وبباب الزاوية قابلني الشيخ فانحنيت على يده أقبلها وأنا أضبط عواطفي فقد صاحبني ضبط العواطف من لدن أول يوم عرفت فيه نور الشمس فلو شئت لتواجدت ولو شئت البكاء لبكيت ولو شئت أن أشكو من مر الفراق لشكوت، ولكن الأمر كان عندي جديا أكثر من ذلك كله فالمسألة تحتاج إلى برود وسكينة وتفتقر إلى رزانة ومتانة فوقفت وكل المعاني الهائجة أودعتها سري وابتسمت الابتسامة التي تشد قلبي وتقويه واشتد خفقان قلبي، ورغم كل شيء فقد بقيت أتحدث مع بعض الفقراء والشيخ مشتغل بتنظيم شأن الأحمال وإعطاء الأوامر مما يتعلق بالدار والزاوية وكلما مضت بضع دقائق عاد فآنسني ولاطفني. ولما تم كل شيء سار الفقراء فشيعنا مع المشيعين ثم رجعنا إلى الزاوية أملي كله معقود على غيلان وإنني لا أنسى له ما حييت الفضل الذي له علي فلقد قصر جهده وجمع قلبه وأعطاني كله و لم يفتح علي حديثا من أحاديث الدنيا وإنما كان يتعهدني بالحديث عن القوم، ولقد كان في تلك الأيام يقرأ كتاب الفتوحات المكية وكان معتكفا معه جماعة من الفقراء فكان معتكفا بها السيد العربي السالف الذكر والفقيه السيد محمد الركيك وهذان لم يذهبا هذه المرة لبني سالم فيما أذكر، فكان الفقيه الركيك قوي الحال في الذكر والعمارة إذا أخذ في الرقص فإنه لا يمل وكان يعتريه حال عظيم وكان ملازما لقراءة كتب القوم منقطعا لمطالعتها قاصرا عمله على التدبر فيها وإذا كان الليل ملأ الزاوية ذكرا وعبادة إلى أن يطلع النهار، وكان من أمره أنه يطالع حتى إذا أشكلت عليه مسألة سأل عنها غيلان فيجيبه في سرعة ويندفق كالنهر المنحدر يبين ويوضح، فكنت أتأمل في هذا الوسط اللذيذ المليء بالجد والعمل فليس هنالك إلا مذاكرات في كلام القوم أو قيام بالواجبات الدينية وقد ترابطت قلوب القوم على البذل والإنفاق فلا يخرج الفقيه الركيك إلا عاد وفي يده شيء من طعام أوشراب أو سكر أو خبز يضعه في خزانة الغرفة ليأكله الفقراء وكان يأتي بطعامه إلى الزاوية ليقاسم الإخوان في لقمته. أما غيلان فإنه كان يقيم بالزاوية الأسبوع والأسابيع لا يخرج منها وكان أهله يبعثون إليه بطعامه فكان إذا رأى الفقراء الملازمين محتاجين أظهر أنه في غير حاجة على الطعام في انبساط ومرح ومداعبة مع

هذا وذاك، وإنني أعلم أنه في حاجة إلى طعامه لكنه كان يؤثر ويعيش بمقدار من الطعام لو أكله عصفور ما ضمنت له الحياة، وإذا كان لديه مال أنفقه على الفقراء حتى إذا نفد باع جلابته فإذا نفد ثمنها باع باقي حوائجه وفي بعض الأحيان كان يبقى في خصوص القميص والشاشية ويتدثر بالغطاء وربما باعه على شريطة أن لا يسلمه إلى المشتري إلا بعد أن يحصل على غيره، فإذا غاب عن أمه طويلا طلعت يوم الخميس لتزوره بعد أن تزور أخته الميتة وكان الشيخ يحترمها حرمة خاصة فإذا بلغه أنها بالزاوية بعث إليها بكأسه الذي يشرب فيه الشاي ممتلئا معنبرا، كان لا يفعل ذلك بالنسبة للنساء إلا معها ومع زوجة الفقيه العلامة ابن الأبار وكانت هذه الأخيرة أخت الشيخ من الرضاع زيادة على ما كان لزوجها ابن الأبار من مواقف الدفاع عن الطريقة الحراقية خاصة وعن طريق القوم أجمعين عامة.

وكانت أم غيلان إذا صعدت إلى الزاوية أخذ الفقراء يستبشرون لأنها لا بد أن تصحب معها ما تقدمه للفقراء وما تعطيه لولدها من دراهم وملابس وحاجيات فيفعل بها غيلان ما فعل بسابقاتها، وإذا ذهب إلى الدار كان لا بد أن يأخذ منها شيئا كأسا أو ثوبا أو صينية أو غير ذلك كي يبيع ذلك وينفقه على الفقراء، وكان له في الإنفاق مذهب خاص وهو أن الفقراء يحل لهم كل شيء يسد رمقهم وأن النفقة عليهم واجبة على الأمة كلها وذلك رأي الشيخ أيضا، والشيخ وغيلان كانا يلمسان حاجة الناس فلذلك إذا تكلما على الإنفاق وعرضا ذكر الأغنياء والمتوسطين بالغا في تقريعهم وشدة التنكير عليهم.

وقد خلبني سلوك المنقطعين إلى الزاوية وكان عددهم في تلك الأيام كثيرا فقد صادفت الحال أن كان أثناء الحرب العظمى (1918-1914) قد قام الشيخ سيدي إدريس برحلة إلى المنطقة السلطانية في أبهة ملوكية، وقد صحبه من الأتباع جم غفير من بينهم جماعة المطربين الذين كانوا تقريبا كلهم في كفالة الشيخ لما كان له من المحبة في الموسيقى والطرب فكان الفن في عهده مزدهرا بتطوان وكان له جوق مشرف، فعندما قام برحلة إلى المنطقة استغل ذلك الفرنسيون ففسح الماريشال ليوطي له المجال كي يرى المغاربة الجنوبيون أن الحكم الفرنسي لا يمنع من اتصالهم بإخوانهم في الشمال،

وقد اطلع الموظفون المغاربة على أن فرنسا لا تمانع في رحلة الشيخ الحراق بل هي تحبذها بعد حياطتها بسياج كثيف من الجواسيس والمخبرين فكان الموظفون يتزلفون إلى الفرنسيين بتكريم الشيخ الحراق وكان الفرنسيون ينشرون بعض ذلك في جريدهم «السعادة»، وقد بلغ من أعمال الجاسوسية على الشيخ أن أحد الناس وهب له سبحة جيدة هي سبحته البيضاء المصنوعة من النقا وكان ذلك ليلا فلما أصبح الصباح الباكر كان على موعد مع مراقب المدينة وبمجرد ما قابله هنأه على السبحة التي حصل عليها في الهزيع الأخير من الليل بمحضر أفراد قلائل، ولكن الشيخ الحراق كان حذرا كل الحذر لا يتحدث إلا عن شؤونه الخاصة وأعمال أصحابه وأتباع طريقته، وفي إحدى مقابلاته لليوطي قال له: يأيها الشيخ إنك رجل طيب ولكن من بين أتباعك قوم طائشون فإن فلانا منهم أخذ يتكلم عن الشريف الريسوني بما لا تحبه فرنسا فعليك أن تنبههم إلى أن يسلكوا مسلكك ولولا أن هذا القائل من أتباعك لتصرفت فيه المحكمة.

وقد رجع الشيخ الحراق من هذه الرحلة أوائل ربيع الأول أو أواخر صفر سنة 1337هـ فكان الذين صاحبوه في رحلته لا يزال معظمهم لم يجد له عملا فكانوا يقيمون في الزاوية لا يبرحونها إلا قليلا، وكانت أقواهم تصلهم من دار الشيخ ثم كان ينضاف عليهم قوم آخرون من ضيوف وغير ضيوف فكان طعام الزاوية معروضا لكل من أراده، فكان في الغالب يتكدس من الناس ما لا يكفيه الطعام الوارد على الزاوية شيئا وإذ ذاك يقوم غيلان بالبحث عما يقدمه للواردين. وعندما ذهب هذه المرة الشيخ لبني سالم لم يبق منهم بالزاوية إلا القليل فمكث الفقراء ببني سالم يومين كنت في خلالها لا أبارح الزاوية إلا قليلا أتمتع بمفاكهة غيلان وحديثه وأقوم بسرد الكتب التي يقرؤها، وأول ما قدمه إلي كتاب الفتوحات المكية للحاتمي فقرأ[ت] مقدمتها فإذا بي في عالم واسع وحرية للفكر غير محددة ورجاء أوسع من الأرض والسماء وتحقيقات ما حلمت بها قط، ولم أكن في أول الأمر أفهم من ذلك إلا شيئا قليلا وكلما استعصى علي الفهم فزعت إلى العبادة والصبر والصلاة والذكر فأخذت المسائل تتوضح أمام بصيرتي، فما جاء الشيخ من بني سالم إلا وقد أصبحت على جانب مرضي من الاطلاع على الاصطلاحات، فأدهشني هذا العلم وخلب لبي واحتقرت كل ما عداه مما هو ضيق

محصور وودت أن لو التهمت كل كتب القوم دفعة واحدة. فلما رأى الشيخ صدق عزيمتي أخذ يزج بي في غمرات التصوف ويدلني بالأخص على كتاب الفتوحات التي هي أحب كتب القوم إليه.

الرفاق من الطلبة

كان رفقاؤنا من الطلبة لا يستطيعون أن لا يروني بينهم فلما أخذت ألازم الزاوية أخذوا يردون عليها مثلي ومن بين الطلبة سيدي عبد الرحمن اليعقوبي ومحمد بنونة كما كنا ندعوه إذ ذاك ومصطفى ابن مفتي وجماعة غيرهم. وكانت الزاوية الحراقية في هذه الأيام التي نتحدث عنها بلغت قمتها في الحيوية والحركة واشتهرت دون الزوايا بالغناء والطرب وكان الناس ينكرون أشد الإنكار هذه الخطة التي سار عليها الشيخ الحراق، فلقد كان الطرب في الزوايا قديما بصورة أن الفقراء يستدعون المطربين بالأجرة في بعض الأحيان وكان المطربون من ذوي السن المتقادمة حتى إذا تمت الحفلة انصرف كل إلى حال سبيله. أما سيدي إدريس فإنه كون مدرسة فعلية للطرب فاشترى كل آلة لهو من آلاته التي كانت تلك الأيام تباع بكثرة لأن الناس بعد فرض الحماية وأيام الحرب العظمى عمهم الحزن والكدر فتفرقت مجامع اللهو والانشراح وحسبوا أنهم لم يبق شيء يسرهم في الدنيا واستسلموا لليأس والقنوط فطفق أغلبهم يبيع آلات لهوه وطربه، فكان الشيخ الحراق يبالغ في أثمان هذه الأدوات وقيمها حتى كادت كل عيدان «الدويص» — وهو رجل مغربي كان مشهورا بجودة صنع عيدان الطرب — تجتمع عنده وجمع أفضل الربائب والكمانات وكل آلة جميلة، فكانت العيدان في الزاوية تعد بالعشرات وكذلك الكمانات والربائب وسائر الآلات وهذه الأدوات كان لها عنده مكان لا يشغله شيء. وكان الفقير الذاكر سيدي محمد ابن الحبيب الذي كان يقول الشيخ عنه إنه صديق هذه الطريقة الحراقية كثيرا ما يقضي الأيام والليالي المتعددة يصلح العيدان فإذا تغرفت فسخها ثم رد لها توازنها وإذا تكسر منها شيء أصلحه حتى كأن غرفة

الزاوية مصنع من مصانع الطرب ومدرسة من مدارسه. وكل يوم بعد صلاة العصر يجتمع هواة الطرب ومحترفوه بغرفة الزاوية فيستمرون في عملهم إلى أن يحين وقت صلاة المغرب وربما بعد الصلاة عاد مجلس الأنس لما كان عليه. وكان أكثر المطربين الجدد من الشبان الحسان الذين لا يزالون في مقتبل العمر، وكلما سمع الشيخ بفرد له صوت حسن أو له إلمام بالفن الموسيقي بعث وراءه وأسدى له من الإحسان ما يجعله قرير العين وأدرجه في زمرة أصحابه. وكان المطربون يأخذون كل ما يحتاجونه من أدوات الطرب وربما كسروها ومزقوا أوتارها وربما ملكوها والشيخ في كل ذلك مسرور مبتهج، فبطبيعة الحال ترقى الغناء وعم سائر الأماكن وانتشر انتشارا ما عليه من مزيد. وكان الشيخ إلى جنب ذلك يعجبه كل شيء جميل فكان يتخذ للشاي كؤوس البلور والعنبر الصافي ولا يستقر به المجلس إلا على رائحة العود الهندي القماري، وكان يتخذ أقفاص الطيور المغردة له بها اعتناء وأي اعتناء حتى كان هو الذي يقوم بخدمتها لا يعتمد على غيره في ذلك، وكان متسع الصدر في حق المرأة فكان يعمل جهده كي تشارك في التحلي بسماع النغم فكانت النسوة يقصدن الزاوية في أوقات العمارة التي كانت تقريبا لا تنقطع. أما ليلة الأربعاء فكان نظامها بديعا مستقرا لا يتخلف مطلقا ففي هذه الليلة تقام حفلة كاملة، فإذا كان يوم الأربعاء صباحا خرج غيلان أو أحد الفقراء وربما خرجت أنا أيضا فيطوف المكلف على الفقراء فيسلمه كل فقير بليونا واحدا «قرشا مغربيا» فيجتمع من هذه القروش مقدار يدفع للشيخ بقصد شرب الشاي بالليل، أما الشيخ فكان يهيئ العشاء بالليل فكان يتناوله كل أربعاء أكثر من خمسين شخصا ما بين مطربين وفقراء ملازمين وضيوف وواردين، وكان العشاء في الغالب يتكون من لونين من اللحم فإذا أتم الناس طعامهم هبطوا من الغرفة إلى الزاوية بقصد مشاهدة الحفلات. وفي الأيام الأولى التي لازمنا فيها الزاوية كانت ليلة الأربعاء تقام بالباحة الكبرى التي تقدر بنحو اثني عشر مترا في مثلها وكانت حديثة البنيان وهي المأثرة الخيرية التي قام بها المرحوم الوزير السيد أحمد الركينة، فهو الذي أنفق عليها وهو الذي اشترى بقعتها جزاه الله خيرا على حسن نيته وعمله المبرور، وقد أفرشت هذه القاعة بالزرابي وبخرت بأطيب الطيب وأوقدت فيها الثريات الكهربائية وجلس المطربون في المقعد المرتفع عنها بثلاث درج وجلس معهم الشيخ في حلة فخمة

وقد ادهن واكتحل، فيأخذ الموسيقيون في عملهم فتردد القاعة صدى نغماتهم حتى أنهوا ميزانا أو ميزانين وزعت نسخ همزية البوصيري على الحاضرين فقرأ الجميع نصابا من أنصبتها الخمسة التي جرت التقاليد في المغرب بتقسيمها إليها وكلما قرأوا بيتا أنصتوا لجواب آلات الطرب فتسمعها وكأنها تنطق بلسان عربي مبين، وهذا كله وقد رصت باقات الزهور وعلقت أقفاص الأطيار التي تهتاج عند سماع هذه الموسيقى فإذا أتت فترة السكوت أرسلت نغماتها الشجية. وبعد إنهاء القسم من قصيدة البوصيري يؤتى بصواني الشاي المعدنية وهي تتألق فتكاد تأخذ الأبصار فيأخذ الناس في شرب الشاي إما على نغم الطرب وإما على أصوات المسمعين والحداة والمنشدين وفي الكثير كانت تقام الحضرة فيتواجد الناس ويطيب الوقت.

فهذه الأمور التي بلغت من اللطف إلى حد بعيد في زمن الحرب والفتن وكانت تثير ضجة عظيمة من مختلف الطبقات وبالأخص رجال الفقه الذين لم يكونوا على شيء من المروءة التي هم عليها الآن، فكان يشددون النكير ويعزي بعضهم بعضا على المصيبة التي نزلت بالإسلام وضياع الدين، وكان الفقيه سيدي أحمد الرهوني من أشد الناس اعتراضا على هذه الحالة فكانت أقواله وانتقاداته تبلغ إلى الشيخ فكان يغتاظ حينا وحينا يسكت. وقد حدثني غيلان فقال إنه لما كثر اعتراض الرهوني على الشيخ الحراق حتى كان يعلن ذلك صراحة في مجلس درسه وفي سائر المجتمعات كان الشيخ يتأثر من ذلك ويغضب ويدعو، حتى كان ذات يوم وقد عم الشيخ التفكير في أمر من الأمور إذ دخل فقير فقال له: يا سيدي لقد قال الفقيه الرهوني بالأمس كذا وكذا، قال غيلان فلم يتحرك الشيخ ولم يغضب ولم يقل شيئا إلا أنه أطرق إطراقة طويلة تبعها دمعتان فاضتا على وجنة الشيخ ثم رفع رأسه وقال ما وجد الفقيه الرهوني ما يشتغل به غيرنا ثم لم يزد على ذلك شيئا ثم سكت، قال غيلان فلم تنصرم ثلاثة أيام حتى أصيب الفقيه الرهوني بحادثة شغلته بشؤونه الخاصة عن الزاوية وغيرها.

وإلى جنب هؤلاء المعترضين كان للشيخ الحراق ناصران من أفضل الناس هما العلامة الفقيه سيدي محمد ابن اللبار والفقيه الشريف سيدي محمد المؤذن، فلقد كان الشيخ سيدي إدريس الحراق إذا ذكرهما في حياتهما ثم بعد مماتهما قال إنهما نصيرا طريق

الله الذائدان عن التصوف ورجاله وشطحاته وما أحب أحدا حبه لهما ولا أعظم أحدا مثل ما كان يعظمهما، فهذان الرجلان كان يقول عنهما أيضا إنهما من أعلى منة علينا وبالأخص الفقيه ابن اللبار. والواقع أنهما كانا صوفيين حقيقيين لم يتركا من سنن القوم شيئا إلى أن قبض الله روحهما على العزائم، فالفقيه المؤذن كان على جلالة قدره وضعف بنيته وكبر سنه إذا قامت حلقة الذكر تواجد ورقص إلى أن يسقط كساؤه وينحل رداؤه، وعند دنو أجله كانت حفلة زفاف حضرها الفقراء وحضر معهم فتواجد فوق طاقته فلم يخرج بعدها من بيته إلى أن توفي رحمه الله، وكان لا يستطيع أن يسمع أحدا يذكر الشيخ الحراق بسوء أو يتناول بالطعن أهل الطريق كيف ما كان أمرهم فكان ذلك سببا في تخفيف الأذى بعض الشيء عن الشيخ الحراق وسلوكه وطريقته.

أما ابن اللبار فقد كان أعقل أهل زمانه وأقواهم شخصية وأعرفهم بطباع الناس وأقواهم على حل مشاكلهم وكان رجل دين ودنيا حلو الحديث صادق اللهجة ما رأينا أسلوبه لأحد، فقد كان إذا أخذ في الكلام ذهل سامعوه عن كل شيء إلا عن الموضوع الذي يحدثهم فيه فلو شاء أن يصرفهم كما شاء لفعل، وكان سخي الكف في غير إسراف محبا لأهل البيت قاضيا لهم حوائجهم معظما للمنتسبين على الله. وكانت زوجته أخت سيدي إدريس من الرضاع فكان يعرف لهذه القربى حقها وكان معظما عند الحكام محبوبا عند الناس فبهذه المواهب كان ينصر الطريق. وكان الشيخ سيدي إدريس قوي الشخصية لا ينقاد لأحد إلا للفقيه ابن اللبار فكان إذا أهمه أمر كيف ما كان نوعه قصد ابن اللبار الذي يعظمه ويعرف حقه، ولقد كان أكبر منه سنا وكان يستنشق تبغة ولا يرى فيها من بأس ولكنه إذا كان الشيخ سيدي إدريس بمحضره فإنه لا يستنشقها إلا من تحت الجلابة لأن سيدي إدريس الحراق يرى فيها ما كان يراه شيخه سيدي الحاج عبد القادر ابن عجيبة ووالده سيدي أحمد والشيخ مولاي العربي الدرقاوي فقد كان هؤلاء الأفاضل لا رخصة لهم فيها لا يرون بينها وبين الخمر فرقا. ولقد حدثنا الشيخ أن أحد أصحاب شيخه سيدي الحاج عبد القادر ابن عجيبة أخبره عن فقير صديق بأنه يستنشقها فقال الشيخ عجبا لفلان يتعاطى هذه

الموبقة، فقال قائل تخفيفا لغضب الشيخ: يا سيدي إنه إنما يتعاطاها لما يعتقد فيها الناس من أنها نافعة من داء الحملة وقد تعاطاها الرجل كدواء فعافاه الله، فقال الشيخ كان الأفضل أن يسقط الأنف أطرافا من أن يتداوى صاحبه باستنشاق تبغة. وقد وجدنا الفقراء يتحدثون عن الشيخ مولاي العربي الدرقاوي بأنه أمر أصحابه أن يشقوا رأس أحد الفقراء بعد موته فشقوه وأخرجوا منه كرة سوداء تكدست من تبغة وكانت سببا في عذاب صاحبها إلى غير ذلك من التشديدات في هذا الأمر. أما ابن اللبار فلم يكن يري فيها هذا الرأي لأنه لم يجد النص الشرعي الذي ينص على تحريمها والتحليل والتحريم موقوف أمرهما على الشارع غير أن ما له من الاعتقاد الجميل في المنتمين إلى طريق القوم كان يجعله لا يريد أن يظهر لهم ما يكرهونه. وكان أسلوبه في المعارضة أسلوبا خفيف الوطأة لا يبادر بالتخطئة ورغم أنه مصمم على أن يرد الغلط، فكان لذلك يأخذ في بيان النتائج والعواقب ويذكر الاحتمالات المعقولة التي تنجم عن الشيء عادة حتى يقتنع الرجل بخطئه فيعترف هو نفسه بأن الأفضل غير الرأي الذي كان عازما عليه. وبهذه الطريقة كان يعامل الشيخ الحراق فكان لا يشعره بأنه أمام عالم مرشد كبير بمقدار ما كان يجعله يعتقد أنه بين يدي رجل محب صادق مخلص ينظر في مصلحة الزاوية من أقرب طرقها وأبعدها عن الانزلاق. وكان ابن اللبار لا يأنف من أن يقوم بنفسه يبحث عن الرجل الذي يتعارض رأيه مع أعمال الفقراء فيطيب خاطره إلى أن يجعله يعود إلى الاعتدال.

وفي وقت الصراع العنيف الذي كان بين الشيخ الحراق وجماعة الفقهاء بتطوان تم طلوعنا إلى الزاوية ونحن غافلون عن أن الوطيس حام وأن الفريقين قد بلغ الحنق من كل منهما غايته، ولم يكن الحراقيون يقاسون محاربة الفقهاء وحدهم بل كانوا يحاربون أيضا باقي الطوائف الصوفية فقد كان الشيخ ممن لا يقبل أن أية كلمة انتقاد أو اعتراض مهما بلغت في الصغر فكان إذا بلغه شيء من ذلك أحفظه وأغضبه، فطفق يذكر صراحة ما عليه القوم من خطأ وما يرتكبونه من مخالفات ثم يقارن بين ما يلزم أن يكون عليه المسلمون وما هم عليه ثم يعين فلانا وفلانا ويذكر درجته من الغفلة عن الله ومبلغ تعلقه بالدنيا وزهرتها، فكان الجالسون ينقلون ذلك كله لصاحبه ثم يستمر الأمر بين

أخذ ورد إلى ما لا نهاية له. فلهذه الأسباب كان الشيخ الحراق لا يستطيع أن يفتح عينه على هؤلاء الفقهاء الذين كان دائما يقرنهم بوصف الجامدين، وكان لا يستطيع أن يسمع أن هذه الطوائف التي لا تعرف من التصوف إلا الاجتماع بالزاوية أن تسمي نفسها طوائف صوفية بينما كانت الزاوية الحراقية مستغرقة الوقت في الذكر وقراءة كتب القوم وبذل الطعام والقيام بالدعوة إلى الله، فلم يكن الشيخ يستطيع أن يرى أن تقارن هذه الزاوية التي تهتم بالتصوف اهتماما حقيقيا أوليا بالزوايا الأخرى التي كان أصحابها يحسبون التصوف نشوة ينتشون بها يتذكرونها إلى إتمام كل أشغالهم و لم يبق أمامهم إلا الراحة فتلك اللحظة هي التي يجعلونها لله. وقد كان الشيخ صريحا إلى درجة أن جعلته يقطع العلاقات مع كثير من الناس وبهذه الصراحة نفسها أخذ يعاملنا حينما طلعنا إلى الزاوية فقد سبق أنه قال لغيلان قل لهؤلاء الأطفال إما أن يأخذوا الورد وإما أن يتركونا ولا يعودوا لزيارتنا ولكن غيلان تربص في الأمر وانتظر ما يفعله الزمان. وكان الطلبة من إخواننا يتابعوننا في الذهاب إلى الزاوية فأخذوا يسمعون الشيخ يندد بأساتذتهم وبالطرق الأخرى ويعيب ما عليه القوم من الإعراض عن الجادة فأخذوا يتسللون واحدا واحدا، أما أنا فإن الأمر كان عندي على حد السواء فلو أمرني الشيخ بأن أوقع بهم لفعلت لأنني لم أعرف التردد وما عرفت إلا أنني أصبحت آلة عمياء في يد الشيخ يصرفها كما يشاء. وكان أكثر أصحابنا حبا لي محمد بنونة وسيدي عبد الرحمان اليعقوبي فهذان تحملا من البلاء طويلا وكانت أوضاعهما غير وضعيتي وذلك لأنني كنت في حاجة إلى الشيخ ضرورية أستطيع معها أن أفعل كل شيء معقولا كان أم غير معقول مشروعا أم غير مشروع، وكنت ابنا لامرأتين لا يهمهما من الدنيا إلا أن أكون طيب النفس باسم الوجه لا يعارضانني في إرادتي إلا بمقدار فإذا رأيتاني صممت العزم تركتاني وشأني وتحملتا التقريع من أعمامي وذوي رحمي. وكان عمي يحبني حبا خالصا زيادة على ما كان يمتاز به من رجاحة العقل وتقدير الأشياء فقد كانت لديه فلسفة فطرية خاصة تتلخص في أن الرجل إذا لم يكن يؤذي أحدا فإن له الحق في أن يفعل بنفسه ما أراد وما كان عنده في الدنيا شيء يستحق الاهتمام، فكان أبناء عمي يحاولون أن يؤثروا عليه بكوني بعد أن كنت متبوعا لأنني ابن مولاي عبد الله الشريف أصبحت تابعا لدرقاوة الذين كان أشرافنا يقولون عنهم « إذا كثر في الدنيا

درقاوة وهداوة فإنه لم يبق فيها ما يداوى »، ولكن عمي كان قوي الشخصية كان الإغراء لديه تحذيرا وكان التحذير إغراء و لم يبلغني عنه [إلا] الخير كما أنني ما سمعت منه أية كلمة تؤذيني في هذا الصدد، وحتى إذا أخذ بعض أشرافنا يذكر له شيئا عن هذه الحالة الجديدة أعرض بجانبه وأظهر أنه لا يسمع لما يقال حوله فكان لا ينكر مني ولا أنكر منه ما دمت لم أغير معه العادة، فأنا لا أزال أقبل يده ولا أزال أعظمه وأبجله دون أن أتأثر بشيء مما يتعلق بهذا الصدد. فهذه حالتي مع أهلي وقرابتي فإنهم ساعدوني في هذه الأزمة مساعدة لا أنساها لهم فلو لم يفعلوا لكنت نبذتهم وهجرتهم ما في ذلك شك ولا ريب لأن جانب الله ثم جانب الفقراء آثر عندي من عشيرتي وقومي. وأما في الخارج فإن مشايخي الذين كنت أدرس عليهم وكانوا يعجبون بي إعجابا لا مزيد عليه وبالأخص الفقيه الرهوني فإنهم حسبوا هذه إحدى الدواهي التي أتى بها الشيخ الحراق، فقد تحقق لديهم ما كانوا يقولونه من أن هذه الموسيقى والطرب شأنها أن تفسد عقول الشباب وها هو الفساد قد وصل إلى شباب كان يعتمد في حمل راية العلم والمعرفة في الغد القريب. وكان أرفق الناس بي وبرفقائي الفقيه سيدي محمد المرير فإن أباه كان مقدم الفقراء وكان على شأن من تعظيم الشيخ الحراق للوراثة عن أبيه أولا ولكونه كان يتابع الفقيه ابن الأبار ثانيا، فلقد كان ابن الأبار عمدة للمرير إلى آخر لحظة من حياته، فكان المرير يرى ويسمع من ابن اللبار ما يتعلق بسيدي إدريس الحراق فلذلك كان نصيرا في الجملة للحراقية. أما الباقون فإنهم جددوا الكره على الحراقيين هذه المرة واتصلوا بقرابات إخواننا الذين كانت ظروفهم أشق من ظروفنا وكان إيمانهم بهذا الأمر أضعف من إيماننا به، فلقد كان سيدي عبد الرحمن اليعقوبي قد أخذ الورد من الشيخ وقال فيه جملة قصائد يمدحه فيها وكتب كثيرا من الكتابات في التصوف وحقيقته وما يتعلق به ولكنه مع هذا كان مغرما بالعلم أكثر من قيس بليلى وروميو بجولييت، وكان قد توفي أبوه وأمه وإخوته الكبار وبقي في كفالة عمه سيدي أحمد اليعقوبي وهو رجل مريض حاد المزاج، فاتصل به الفقهاء وحضوه على أن ينهى ابن أخيه عن ارتياد الزاوية فإن ما بها من لهو وطرب شأنه أن يصرفه عن العلم والتعلم. فوقف سيدي أحمد موقفا حازما في هذا الباب فكان سيدي عبد الرحمان يشكون من موقف عمه إلى الشيخ وكان للشيخ بسيدي أحمد علاقة وصداقة قديمة، فقد قدر أن

سافر الرجلان معا حقبة طويلة وكان سيدي أحمد اليعقوبي يعطف أثناءها على الشاب سيدي إدريس الحراق لما يراه عليه من عبادة وتهجد وذكر وإعراض عن زهرة الدنيا وبذلها، فحسب سيدي إدريس أن سيدي أحمد اليعقوبي قد يقبل منه بعض ما يقول فقصده وكلمه في شأن ابن أخيه سيدي عبد الرحمن فأجابه سيدي أحمد بقوله يا سيدي إدريس إنني أصارحك مرة واحدة وهو أنك إن كنت تحبني فلا تترك الولد يرتاد زاويتك لأن ذلك يصرفه عن العلم، وإن تركته أو ذهب من تلقاء نفسه فإنني سأقاوم ذلك بكل أنواع المقاومة إلى أن أغلب فإني أرى مصلحة هذا الشاب أن يواصل دراسته ولا حاجة له اليوم بالزاوية وشؤونها، ثم تجاذب الرجلان الحراق واليعقوبي الحديث إلى أن كاد يصل بهما الأمر إلا حد خارج عن المعقول واليعقوبي في كل ذلك مصمم على رأيه، فذهب سيدي إدريس ومغاضبا ولم يسع سيدي عبد الرحمن إلا أن يقلل من ارتياد الزاوية شيئا فشيئا. وكان الشيخ كلما قابله ذكره بالزاوية وشؤونها ولامه على التفريط فيها فكان سيدي عبد الرحمن يتحمل ذلك، وما زال الأمر إلا أن ضجر حتى لقد حدثنا سيدي إدريس ذات مرة أنه قابل اليعقوبي فغير سيدي عبد الرحمن الطريق ليتقي مقابلة الشيخ. وما كان اليعقوبي لينافق أو يكون خشن الطبع ولكن العوامل التي أحدقت به جعلته يركب هذا المركب الصعب سيما وقد كان في هذه المدة يعد العدة ليسافر إلى فاس بقصد قراءة العلم والتوسع في المعرفة، ولقد تم له ما أراد من ذلك فقد وصل إلى فاس في بعثة كان من أكبر الدعاة إليها المرحوم الحاج عبد السلام بنونة وتلك كانت أول بعثة من تطوان قصدت فاسا بعد الاحتلال الأجنبي. ولقد حدثنا الفقيه سيدي محمد طنانة عن سيدي عبد الرحمن عجبا فقد ذكر أنه كان يرافقه في بيت المدرسة فكانا ينامان فيه وكان طنانة يكد ذهنه في مطالعة الدروس التي يقرؤها صباحا وطيلة اليوم فلم تكن بالشيء السهل وكان المدرسون لها يحتطبون من النقول ما إذا لم يطالع الطالب معه فإنه لا يمكن أن يستفيد شيئا. قال طنانة وكان اليعقوبي يطالع مطالعة عجيبة الشأن فكان يدني منه الشمعة أو المصباح ثم يأخذ في المطالعة دون اهتمام أو طول وقت ثم لا يلبث إلا يسيرا حتى يطفئ الشمعة بيده أو بإشارة بخرقة، فيناديه طنانة قائلا: ماذا تصنع ألست عازما على أن تدرس غدا، فيضحك اليعقوبي ويجيبه بقوله: لقد طالعت مطالعة جيدة. وكانت هذه المطالعة تكفيه كما حدثني به أخونا

العلامة سيدي محمد داود الذي كان يرافقه في درس المنطق، قال داود: كان لشيخنا فلان تقرير غريب في بابه فكان يكون من الدرس متكتلة لا يتقيد فيها بترتيب المسائل طبق ما فعله الشارح أو المصنف بل إنه كان يرتبها ترتيبا خاصا لو كان يكتب محاضرات لكان أفضل كتب المنطق، وكان يسرد له سيدي عبد الرحمن اليعقوبي فإذا أتم من التقرير طبق الصورة التي يختارها يقول لليعقوبي أسرد على النسق الذي قررنا. قال داود: فكان اليعقوبي يقوم بهذه المهمة الشاقة فيأخذ يقرأ من هذه الصفحة سطرين وثلاثة أسطر من فوق وسطرا ونصفا من الوسط إلى غير ذلك من التغييرات التي ارتكبها العالم في درسه، فإذا علم أن اليعقوبي الذي كان يقوم بهذه المهمة إنما كان يطالع على الطريقة التي رواها عنه طنانة فإن ذلك يفيدنا مبلغ ما كان عليه اليعقوبي من الذكاء الخارق للعادة الذي لا يسهل معه على من يعرف قيمته أن ينسلخ عن طلب العلم ويعكف على الذكر. وأما في حق أمثال اليعقوبي فإن طلب العلم لا شك أنه في حقه أفضل سيما وأن استعداده للعلم كان أكثر من استعداده للتصوف وأنه كان يشعر بالحاجة إلى المعرفة كما كنت أشعر أنا بالحاجة إلى التصوف فجرت الأمور فوق كل اعتبار على ما ترتضيه الميول والاستعدادات. ولكن الشيخ سيدي إدريس رحمه الله ورضي عنه كان لا يرى في الإكثار من العلوم الفقهية والنحوية إلا قساوة تنجر إلى القلب وها هم هؤلاء المتضلعون يأتون بالفظائع التي لا يأتي بها غيرهم ممن لم يسبق له أن طلب العلم. فكان حكمه صارما على الفقهاء الجامدين ولم يكن هو وحده الذي يقول بهذه النظرية بل إن البعض من الصوفية الأقدمين كانوا يرون هذا الرأي، وأن ما يؤثر عنهم في ذلك لا يمكن تأويله مثل قولهم اطرح كتابك وتعال، وقولهم امحي وصلصلي ولا تترك في إلا البسملة. وأبلغ من ذلك كله صنيع أبي الحسن الشاذلي حين هم بزيارة شيخه الشيخ عبد السلام بن مشيش فإنه عندما كان بالعيون الواقعة في سفح الجبل الواقعة بمقربة من دار مولاي اليزيد فوق مدشر الحصن تقدم واغتسل من إحدى العينين وقال: اللهم إني اغتسلت من عملي ومن علمي إلا ما يأتيني على يد هذا الشيخ. وروينا عن سيدي محمد الحراق الشيخ الكبير أنه عندما زار شيخه مولاي العربي الدرقاوي لأول مرة بقصد الأخذ عنه توضأ هذا الوضوء بهذه النية، قال: ولم يكن لي علم بقضية الشاذلي ولا معرفة بأن هذا الوضوء شرط في الدخول في طريق القوم. وقد

قال بعض المشايخ إن أحب المحبوبين لدى الصوفي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وقد سمع بعضهم ما جاء في ترجمة أبي العباس المرسي من أنه قال: لو أتاني بدوي يبول على ساقيه لما أمسى عليه المساء إلا وهو ولي الله، فقال ذلك السامع ليس العجب أن تنقلب حالة البدوي بنظرة واحدة من جلف غليظ إلى ولي من الأولياء مع استعداده وفراغ قلبه إلا لما يلقيه إليه الشيخ، وإنما العجب أن تنقلب حالة العالم الذي يحدثه علمه بأن الشريعة لا تجيز كذا ولا تبيح كذا أو تأمر بكذا وتنهى عن كذا، وبالجملة فإن كثيرا من الصوفية يرجون الخير في العوام أكثر مما يرجونه في العلماء قد تابع بعضهم بعضا في ذلك، وإن أبغض شيء إلى الصوفية هي القواعد المنطقية التي تخضع كل شيء للعقل والقانون فإنهم في الكثير يريدون أن يعيشوا في عالم واسع لا يحده لا العقل ولا تسيطر عليه الأوضاع كيف ما كان أمرها. فكان الشيخ سيدي إدريس الحراق متأثرا بهذه النظرية إلى حد بعيد كان يريد معها أن يقبل اليعقوبي على الزاوية ويعرض على طلب العلم ليكون تركه لأحب شيء إلى قلبه برهانا على أن جانب تصفية النفس وصقلها آثر عنده من تكديس المعلومات التي اعتاد حاملوها أن يجعلوها نظريات لا تنطبق على الحياة العملية إلا قليلا. وعذر اليعقوبي أنه لم يصل في حبه للتصوف إلى الدرجة التي تصهره صهرا فتحيله إلى ما يستحيل له الذهب بعد إحراقه بالنار. فكان الشيخ رحمه الله يؤلمه أشد الألم أن ينسحب شخص مثل اليعقوبي في سلامة صدره وصفاء قلبه وحبه لجميع الناس من ميدان التصوف الذي حصره الشيخ أولا وأخيرا في الاعتكاف بالزاوية الحراقية، وربما قال إن هذا الحرص من اليعقوبي على الدنيا والوسيلة إليها سوف يكون سببا في حرمانه من التمتع بها وكان يحن إليه كثيرا. فجرت الأقدار أن اليعقوبي أدرك ما يريد ثم رجع إلى تطوان فوجد جراثيم السل التي فتكت بأبيه وإخوته وعائلته كلها متحفزة له شاغرة أفواهها لالتهام هذه الزهرة المتفتحة التي عبق ريحها ودلت أوانها على ثمرة طيبة تؤتي أكلها، فسطا الداء العياء باليعقوبي إلى المنون والبلاد في أشد ما تكون من الحاجات إلى أمثاله أما هو فقد سار بعزم صادق في طريق ما طلب وليس في وسعه دفع المقدور، وأما الفقراء فإنهم شاهدوا بأعينهم كرامة من كرامات الشيخ فإن اليعقوبي لم يتمتع بمجهوداته رحمه الله رحمة واسعة. ومهما يكن من أمر فإن فقدانه لم يعوضه شيء عندي لأن مكانته في قلبي لم يكن من جنس المكانات التي تتسع لكثير من الناس

أو بمثابة كرسي المقاهي العامة بل كانت أريحية شمم تبادل اليعقوبي حبا بحب وإخلاصا بإخلاص، وقد قابلت اليعقوبي عدة مرات بعد رجوعه من فاس فإذا هو يخاطبني بنفس تلك اللغة التي كان يخاطبني بها بجنة الحاج العربي بنونة في الدردارة وفي وادي مرتيل وفي كل وقت ومكان، فقد كانت له معي لغة خاصة كلها عواطف غير متكلفة فهي عندي أن الصداقة الرفيعة التي كانت سائدة بين أصدقائنا لا يمكن أن يؤثر فيها شيء من الأشياء، وإنني كلما ذكرته أحس بجانب من فؤادي يضطرب ذلك الجانب الذي كان له وحده كما كنت أشغل من فؤاده جانبا لا يشغله أحد سواي، ولم يكن لي قصد بذرف العبرات ولكنها غلبتني وأنا أكتب هذه القطعة لأن العين تمتعت غير قليل بهذا الصديق الحميم فعليها أن تنطق بلغتها وما لها لغة إلا الدمع حارا أو باردا.

وكان من بين أصدقائنا الذين لم يهن عليهم أن تحكم الظروف بالانفصال فيما بيننا وبينهم أخونا الحميم محمد بن الحاج العربي بنونة فلقد نشأ بنونة في وسط متصوف له الاعتقاد الكبير في الصالحين والأولياء والتعظيم الذي لا مزيد عليه في جانب أهل البيت. ولنترك بنونة يحدثنا بنفسه كما سمعناه أخيرا بنادي جمعية الطالب المغربية يذكر وجهة نظره وهو طفل في صحبتي معه، فقال معنى ما يأتي: «لما فتحت عيني في الدنيا وجدت أن كل من يتصل بنا أو نتصل به من عائلتنا وأصدقائنا كلهم من أتباع الولي الصالح سيدي عبد السلام بن علي ابن ريسون سواء في ذلك أبي وأخي وأمي وخالتي وجدودي وحتى الأتباع والخدم كلهم على هذه العقيدة وهذا الرأي، وكان أعيان تطوان ووجهاؤها وسائر ذوي الحيثيات فيها لا يفضلون على آل بني ريسون أحدا ومن أول يوم والناس كافة يرون أن لا فرق بين الأشراف الوزانيين والأشراف الريسونيين فهم أبناء عم وجميعهم من قرية تازروت وكلهم علميون، وإذا ظهر أحد من الريسونيين آزره الوزانيون وإذا ظهر أحد من الوزانيين آزره الريسونيون فكانت العائلتان النبيلتان في حكم عائلة واحدة. وعلى مقدار ما كان لأهل تطوان من التعظيم في جانب الريسونيين والوزانيين كانوا يناوئون الطريقة الدرقاوية حتى نشأ عن ذلك أن العلامة الصوفي الشريف ولي الله سيدي أحمد ابن عجيبة أوذي وأدخل السجن سجن تطوان هو وأتباعه ما ذلك إلا من أثر مقاومة التطوانيين للدرقاوية الذين كانوا يحاولون

أن يضربوا عليها الحصار فلا تدخل هذه المدينة. أما فقراء تطوان والطبقة العاملة فكان معظمهم من أتباع الطريقة العيسوية وهي أخت الطريقة الريسونية غير أن الريسونية كانت تمثل التصوف الأرستقراطي بينما العيسوية تمثل الطبقة المتواضعة في هذه المدينة. قال بنونة: وكنت أسمع من والدي وقرابتي كيف كانوا يخدمون سيدي عبد السلام ابن ريسون فطمحت نفسي لكي أجد شريفا قويم السلوك لأكون معه مثل ما كان والدي مع سيدي عبد السلام ابن ريسون، وتربيتي التي تربيتها لا ترى فرقا بين في أن يكون الشريف ريسونيا أو وزانيا فكلاهما سواء في مجتمعنا غير أن الذي يخصني لذلك هو أن أرى بعض صفات الصلاح تجمعت في شريف من الأشراف لأتخذه مخدوما وأكون خادمه، فلما قدر لي _ وأنا بين الطفولة وعهد الشباب وفي عصر الصبا _ أن أتلقى مع سيدي التهامي ولمحت فيه بعض خلال الخير ولم يسبق إلى ذهني شيء قبل أن يسبق إليه إن هذا هو طلبتي التي كنت أطلبها من لدن زمن مديد فصاحبته على هذا الأساس، وكان كل يوم يمر في الصداقة بيننا أزداد استمساكا بهذه العقيدة لأنني لم أر إلا ما يقويها ويزيدها وكان والدي يشجعني على المضي في هذا السبيل فقد كان يثني خيرا على والد صديقي وباقي قرابته وأهله، وقد اطلع ذات مرة على صداق جد صديقي وفيه سلسلة نسبه فتأثر كثيرا وقال إن لا واحد في عمود هذا النسب إلا وهو ولي من أولياء الله، وكان يحب صديقي الوزاني حبا يصحبه كثير من التعظيم وما هو إلا أن أذكر أن الأمر فيه سيدي التهامي حتى ينغض أبي رأسه ويساعدني على ما أطلب، فمضيت في هذا السبيل مؤمنا بها كل الإيمان وكلما تقدمت في السن تقدم معه هذا الاحترام والتعظيم حتى إن والدي كان يهم بأن يرسلنا إلى الشام بقصد طلب العلم. ودار الزمان دورته فطلعنا إلى الزاوية في الكثير مجاراة لسيدي التهامي فلما علم أبي بذلك وقف وقفة لا هوادة فيها يمنعني من الطلوع إليها، فلما صارحني برأيه قلت له يا أبي إن فلانا يطلع إلى الزاوية فكان جوابه أن قال إن فعل ذلك فلان وظهرت منه علامات الطيش أول الناس ذلك بأنه جذب واصطفاء أما أنت فإن معنى ذلك في حقك وفي حق أمثالك حمق وبله وانتقام من الله ».

ولقد عبر بنونة تعبيرا صادقا عن وضعيته وحبه لي وتعظيمه أنه ذات مرة جاءني

وفي يده دراهم كثيرة لا أدري هل كانت عشرين ريالا أو عشرة وهذا المبلغ في ذلك الوقت لم تكن قيمته هي قيمة اليوم بل كان يعادل أكثر من مائة ريال، ثم أراد أن يناولني تلك الدراهم فلم يستطع أن يناولني إياها في أول الملاقاة بل إنه طلب مني أن نخرج إلى أن نسير على أقدامنا مرتاضين ففعلت وخرجنا ونحن نتذاكر في شؤون أكثر من جدية وهو يلعب ويداور إلى أن انشرحت نفسي وكان ذلك في الفدان قرب باب المشور وعلى مقربة من منبع الماء الذي كان منهمرا هناك، فوقف في تواضع وانحناء وأخبرني أن لديه حاجة لي فأخرج الدراهم وهممت بقبضها منه فوضعها وسط كفه وقال خذها ويدك العليا واليد العليا خير من السفلى، فقلت له يا فلان هذا أمر لا كلفة فيه بيننا فأنا وأنت أخوان شقيقان وهذه التكاليف إنما يرتكبها من بينهم نوع من الكلفة فأقسم لي بالله لا أخذتما إلا ويده سفلى ويدي عليا. وكان في اصطبل الحاج العربي عدة دواب أحسنها بغلة كانت لركوبه فكان لا يركب عليها إذا خرجنا إلى الخلاء أحد غيري أما محمد فيسير على قدميه وحتى إذا غلبني الحياء من هذا الإيثار الجم وأظهرت رغبتي في السير على القدم فلا واحد تحدثه نفسه بالركوب على دابة الحاج العربي بنونة. وكان إذا قام أصحابنا بنزهة أو غيرها كان يؤدي سهمين أحدهما عن نفسه والآخر عني هذا قبل كل شيء ثم يؤدي أسهما أخرى حتى كان قسط كبير من النفقات يتحمله الحاج العربي بنونة، وقد كنت وأنا صغير أشعر بهذا العطف ويسوؤني أن لا أجد مكافأة أكافئ بها الحاج العربي وولده وأخاه الحاج عبد السلام بنونة فينقلب كل ذلك حبا في قلبي لهذه العائلة الطيبة التي لو قلت أنني أعز أفرادها لم أكن كاذبا. وكان خدم الحاج العربي وأتباعه كلهم لا يفرقون بيني وبين محمد في شيء من الأشياء إلا أنهم يفضلونني عليه لشرفي ولمكانة أبي وعائلتي، ولم أكن أستغل هذه الطاعة وهذا الحب بل كنت أتعفف إلى درجة كانت تزيدني رفعة في أعين القوم. وتلك كانت من الأشياء التي تجعل الناس ينظرون إلي نظرة تختلف عن نظرهم إلى الأشخاص العاديين ويعلم الله أنني كنت أكثر لمن يوقرني إعظاما منه لي وكنت أشد تعففا عمن يسره أن ينيلني إحسانه ممن لا أعرفه ولا يعرفني، وما أذكر أنني أسأت إلى أحد من أصدقائي مهما كانت الإساءة صغيرة إلا أنني أذكر أننا ذات مرة كنا في نزهة وادي مرتيل فبينما نحن جلوس خلال المضارب إذ عن لي أن أداعب محمد بنونة بعض المداعبة، فرأيت منه

ما لم أره أبدا فلقد نثر يدي وصاح في وجهي دعني دعني فشعرت بأن كرامتي قد جرحت وأن أصدقائي بل وأعزهم أصبح يقلب لي ظهر المجن وإنني أشهد على نفسي بهذا الخلق فإنني إلى اليوم ومن لدن عقلت لا أطيق أن أتحمل أي قليل من الإهانة كائنة ما كانت وكائنا من كان فاعلها، فإذا وقع ونزل — ولا بد من الوقوع — فإنني كنت قادرا على محو الوصمة محوتها بأي ثمن كان وفي إمكاني أن أقوم بأدائه على أن سرعة الحلم في نفسي لأقل سبب من الترضية يلطف من حدة هذا الخلق الشرس. أما إن كانت الإهانة وجهت إلي ممن لا أستطيع النصفة منه فإنها تستحيل إلى إبر تخزني في قلبي وتوقظ جفني وتسلبني طعم الراحة إلا أن أرى الانتقام نازلا بمن تسبب لي في الإهانة، ولا أكتم أنني في هذه الحالة لا أعرف طعما للرحمة ولا للشفقة وإن هذه [الحدة] في نفسي كثيرا ما جلبت إلي كثيرا من الأتعاب ولكنها داء قديم أصيب به من يجري في عروقهم الدم العربي الخالص، وإن كل أنواع الملطفات لا تصل إلا إلى شيء يسير من الفائدة فيما يتعلق بنسيان الإهانة، وهذا كله إذا كانت الإهانة لا يد لي بها و لم أرتكب ما يوجبها فإن شعرت من ذات نفسي أنني ارتكبت ما يوجب الإهانة فإن وازع الضمير لا يزال يوازن بين السبب والمسبب إلى أن يخرج في الأخير بحكم: هذا بذاك ولا غالب ولا مغلوب. وإن هذه الشنشنة هي التي حملتني على أن يشتد حنقي على محمد بنونة حين صاح في وجهي صيحة منكرة لا وجه لها على الأقل في نظري، فصممت على أن أغيظه كما أغاظني وإن إغاظة محمد بنونة سهلة جدا فهو رجل عصبي المزاج يستطيع أقل الأشياء أن يؤثر عليه ثم لك أن تعبث به كما تريد إذا اشتد غضبه وتكهرب فإنه في هذه الحالة يركب رأسه فلا يداويه إلا الانتقام وإنه لا يمكن أن ينتقم مني بحال من الأحوال، فأخذت أعاكسه في بعض ما يقول وأتناوله بالسخرية فما هي إلا لحظات قلائل حتى أصيب الصديق بنونة بالصداع وانطفأ فيه ذلك النشاط الملكي الذي كان يحمله على أن يغرد على سيف البحر وأن يشق هدوء الليل بصوته العذب منشدا ومغنيا، حتى أنني كنت أقصد إلى الابتعاد عسى أن أتمتع بهذا الصوت الذي أحبه كما أحب صاحبه وإنه عندي أجمل من صوت البلبل والهزار وإن من أسعد أوقاتي ذلك الوقت الذي أستند فيه إلى الأخباء في ضوء القمر وبنونة يسير مع رفاقه ورفاقي وقد استحال كله إلى قطعة موسيقية تعزفها يد الطبيعة الساحرة التي تبدع في

بعض صنعها إلى أن تصل إلى حد لا يمكن للعقل أن يتصور أبدع منه، فبنونة رق طبعه حتى أشبه النسيم ورشق قوامه حتى انقطعت أسباب النقد ووصلت الصورة إلى درجة الإعجاز وتدخلت فضائله في فواضله فما كنت أراه إلا كما رأت النسوة يوسف إذ قلن ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم. ورغم كل ذلك فإن ثورتي لم تبال بهذا الفن وهذا الإبداع بل طالبتني أن أحطم ولو في ساعة من الزمان سرور ذلك القلب الطاهر الذي لا يضمر البغض لأحد ولا يحب السوء لأحد وإنما يهمه أن يكون الناس كلهم راضين. وما هو إلا أن انقلب بنونة من عصفور مغرد مرح وثاب إلى عصفور تذكر السجن فيحن إلى مجاري الأنهار يلتقط ديدانها ومن أثمارها ويستظل تحت أفيائها ويداعب غصونها وقد هبت عليها الصبا والشمال تداعبها وتبرد من لوعتها، فلما تذكر ذلك وهو في القفص حي وتداخل بعضه في بعض فنفر ريشه بعضه عن بعض وأدخل عنقه في جسده وأخذ نوم الأسى يداعب جفنيه ولو استطاع البكاء لبكى، فهكذا أصبح بنونة بعد كلمات قليلة أرسلتها إليه فأبى إحساسه الدقيق إلا أن يتأثر بالكلمة الأولى ورغم أن الجماعة لم يشعروا بشيء ما عدا صديقنا عبد السلام الطنجي فإنه فطن للأمر، وبات بنونة الليلة بدون عشاء أما أنا فإن ألم نفسي تداوى سريعا ثم انقلب الأمر عندي إلى ندم فما ضر لو صبرت لها وإن كنت لا أصبر لأحد فإن الواجب أن أقبلها من بنونة لألف اعتبار واعتبار، وما أشرق ضوء الصباح حتى صرح لي بنونة بذات قلبه واعتذر لي عن عمله ولامني لوما خفيفا وعاد كل شيء إلى ما كان عليه من صفاء ووداد، فهذه هي المرة التي يمكنني أن أقول عنها إنه جرى بيني وبين بنونة شيء يمكن أن يكدر علاقتنا. ثم سار الأمر بعد ذلك على صفاء أصفى من صفاء الهواء ومودة كنا نشعر معها أننا روح واحدة انقسمت في جسدين ولا زلنا على ذلك إلى أن طلعنا إلى الزاوية الحراقية لا يدفعنا إليها ما كان الناس يظنون أنه هو الدافع، فكثيرون وهموا في قضيتي لعلمهم أن الغناء والطرب لا يغريني ولم يتورعوا أن يجعلوا الحامل لبنونة على ارتياد الزاوية هو اللهو وحياة الانبساط وحتى أبوه الحاج العربي كان يتظاهر بهذا الرأي، وإنني أكاد أجزم بأن الحاج العربي لم يكن مطمئنا إلى أن الحامل لولده هو الطرب بل إنه في أعماق نفسه كان يقدر ما بيني وبين ولده من الأخوة المتينة إلا أن الحاج العربي لم يجرؤ أن يقول إنني أنا السبب لولده في هذه الأزمة العائلية، فتركني

جانبا وشأني وزيف ما يقوله الناس من أن الحامل لولده على هذا الأمر هو الميل للهو والمجون وكل ذلك كي لا يقول كلمة سوء في حقي. وقد تشدد الحاج العربي في منعه لولده من ارتياد الزاوية تشددا صارما لا يقبل فيه هوادة ولا يقبل كلام أحد، وكان بنونة الصغير على تعظيمه الزائد لوالده وبره به يعرض عن الوعد والوعيد ويأتي إلى الزاوية عن طريق باب المقابر ثم يصعد إلى غرفة الزاوية في تستر وخفاء فنقضي وقتا من أطيب الأوقات وأمتعها متلذذين بذلك الجو الذي كان كله ذكرا ومذاكرة، وكان بنونة إذا جلس أجلسه الشيخ عن جهة يساره وأجلسني عن جهة يمينه وسمانا السعدين وآخى بيني وبين بنونة وتلك كانت من أجل أمانيه حتى أنه بعد ذلك حينما ذهب به أخوه الحاج عبد السلام إلى إسبانيا بقصد صرفه عن جو الزاوية كتب إلى الشيخ في أحد كتبه التي كان يبعثها يوميا يتأكد فيه من الشيخ بأن يحفظ له أخوته مع سيدي التهامي، وكان إذا جلس إلى جانب الشيخ يأخذ يده يقبلها ويكب عليها بين آونة وأخرى ويظهر على الشاب من علامات الحب والإخلاص ما لم يبق مجالا للشك في أنه كان جاد[ا] صادق[ا] في عقيدته ومبلغ إيمانه بهذا الأمر الجديد الذي طرأ عليه. وكلما كثر تردد بنونة على الزاوية كثر المبلغون لوالده فيزداد عليه قسوة وغلظة، وقد أمرني الشيخ ذات مرة أن أفاتح الحاج العربي في هذا الشأن فسارعت بامتثال أمره ودخلت على الحاج العربي فقابلني على عادته بالترحيب والتعظيم فأخذت أراوده على أن يساعد ولده على رأيه الجديد فتنكر لي الحاج العربي وقال: اسمع يا فلان، إن ولدي محمدا أريد منه أن يقرأ وإن لنا طريقة رشيدة تلك هي طريقتنا الريسونية الطريقة التي نفهمها ونعرف ظاهرها وباطنها ونعلم كل التفاصيل عنها ولا يغيب عنا أحد أفراد العائلة الريسونية رجالا ونساء، أما هذا الأمر الذي يريد محمد أن يدخل فيه فإننا نجهله تماما ولا نعرف عنه إلا أن هؤلاء يذكرون الله وهم معنا في سلام لا نبعد منهم ولا نقرب إليهم فلهم عملهم ولنا عملنا وإذا كنت يا فلان تحبني فطاوعني في بساط هذا الحديث، فلما رأيت أن الرجل مصمم على رأيه لم يسعني إلا أن أطوي رأسي تحت طي جناحي ثم ودعته وانصرفت آيسا من أن يرجع عن رأيه فلو كان يرجع لأحد لرجع إكراما لي لأنني ولده أيضا ثم اشتد ضغطه على ولده. وكان الشيخ سيدي إدريس يشفق على بنونة الصغير فارتأى أن يوسط الفقيه ابن الأبار في هذا الشأن وكان

ابن الأبار لا يكاد يرد على سيدي إدريس كلمة من الكلمات وكان يعتبره ـــ على صغر سنه منه ـــ أحد مشايخه، فقد حدثني الشيخ أن الفقيه ابن الأبار قال له في هذه الأيام التي نتحدث عنها يا فلان لقد رأيتك في المنام تلقنني سورة يسن وإني أستأذنك في جعلها وردا آخذه عنك تصديقا لهذه الرؤيا، قال سيدي إدريس: فأذنته بذلك. وبعد أن قال لي ما قال تذكرت قصة جرت لي فلقد رأيت سيدي عبد السلام ابن ريسون في عالم الأرواح فدنوت منه حتى جعلت أذني قرب فمه ووضعت يدي في يده ـــ قال سيدي إدريس ـــ فأخذ يقرأ في أذني سورة يسن إلى قول الله تعالى وجعلني من المكرمين، ثم سكت وأخرج من كمه رزمة من النور تتسع وتكبر ثم تتجمع وتصغر كأنها تتنفس من الروح فقال هذه تتمة ما قلناه لك ـــ قال سيدي إدريس ـــ فلما شرح الله صدري للأخذ بالطرب والغناء علمت تأويل الرؤيا، فهي إذن من الشيخ ابن ريسون لي في أن أقوم بعمله وأن أسلك طريقته وقد ظهر لي أن هذه الرؤيا كانت رؤيا صالحة لأنها تشتمل على القرآن الكريم ولأنني لم آخذ سورة يسن وردا عن أحد ما عدا أني أخذتها عن سيدي عبد السلام ابن ريسون فكذلك رأى الفقيه ابن الأبار أني ألقنه هذه السورة. وإن من أقسام الوحي ما كان مناما فقد أخذ عنا ابن اللبار مناما هذه السورة كما أخذناها عن سيدي عبد السلام ابن ريسون، فلهذا ولما سبق كان ابن اللبار لا يكاد يرد على سيدي إدريس ما كان يطلبه منه فلما رغب إليه في أن يخاطب الحاج العربي بنونة في هذا الشأن قصده في داره وكان كل من الرجلين يعرف قيمة الآخر. قال ابن اللبار حسبما حكاه عنه الشيخ: قلت للحاج العربي أتدري لماذا وردت عليك؟ لقد أتيتك في شأن ولدك محمد فإنه يظهر من المحبة والإخلاص لهذه الطريقة ما لا يناسب معه أن تقف في وجهه إلى هذه الدرجة فلو سايرته في بعض ما يريد. قال ابن اللبار وأردت أن أعظ الرجل فما هو إلا أن شعر أنني أستعد لأملأ أذنه من أشياء ربما حملته على الاعتدال حتى قاطعني بقوله: يا فلان أرجوك أن لا تعظني في هذا الباب فإنه شيء لا يمكنني أن أقبله بحال من الأحوال. قال ابن اللبار حسبما يحكيه الشيخ فلما قال لي الحاج العربي ما قال أغضبني قوله وهممت بأن أقول له يا فلان إنك بهذا القول أصبحت أحد رجلين، إما أن تكون تعتقد أهلا للوعظ والإرشاد وهذا يكون قدحا في رجل يعده قومه من علمائهم الذين يرجعون إليهم في أمور دينهم فضلا عن أمور

دنياهم، وإما أن تجعل نفسك في المرتبة التي لا تنفع معها موعظة وذلك يجعلك تحكم على نفسك بشر الأحكام فإن الذكرى تنفع المؤمنين. قال: ولكنني خشيت أن أحرجه إلى أن يشتد غضبه فيزداد قسوة على ولده الشاب فلم يسعن إلا أن ودعته وانصرفت. وفشلت محاولة ابن اللبار مع الحاج العربي أيضا ولكن بنونة الصغير كان أقوى عزما رغم كل هذه التشديدات فكان يتحين الأوقات التي يمكن أن تخف فيها الأقدام عن ارتياد الزاوية فيقصدها، وربما أقام له الشيخ حلقة الذكر فكان يتواجد ويضطرب ويصيح وقد ظهرت عليه علامات خرق العوائد حتى أنه كان لا يملك شيئا لطيفا إلا قدمه للشيخ. ولقد كان أبوه يعطيه كل شهر ستة أريلة فكانت تكفيه لكماليات شاب فلما اتصل بالفقراء أخذ يسلمها إلى الشيخ كما يقبضها دون أن يتصرف في فلس منها، فإذا وصل وقت استلام واجب الثلث الذي خلفه جده لأمه الحاج عبد الكريم بريشة لحفدته كان أبوه يعطيه منه شيئا زيادة على ما يعطيه له شهريا، فإذا استلم بنونة الصغير ذلك وضعه في جيبه والتمس من سيدي محمد بن الحبيب ـــ أحد أساطين الفقراء ـــ أن لا يذهب هذا اليوم إلى شغله ثم مكنه من الأجرة التي يتقاضاها في ذلك اليوم كي يشبه شبه فيهون عليه الأمر ويذكره بما يسلي همومه ويخفف من أحزانه. فلما أعيت أباه الحيلة فزع إلى أخيه الداهية الحاج عبد السلام فأشار علية بأن يحمله على مفارقة هذه المدينة فإن الابتعاد عنها يحمله على بعض النسيان. وتنفيذا لهذه الفكرة نذر الحاج عبد السلام رحلة إلى البلاد الإسبانية وكان كثير الزيارة لها وربما زارها عدة مرات في السنة حتى كان يعرف كل دقائقها، وفي هذه المرة أصحب معه أخاه الفتى فرأى الصغير ما لم يكن رآه قط وسمع ما لم يسمع ووقف على الآثار التي خلفها العرب وزار المصانع والمعامل وشاهد النهضة في أوربا التي تشمل سائر النواحي. وكان الحاج عبد السلام كلما رآه معجبا بمظهر من مظاهر الفن والحضارة استغل فيه موقفه فأفاض في شرح مزايا العلم وأن كل هذا النشاط إنما منبعه المعرفة الدقيقة والدرس المستمر والبحث المستفيض، فكل شيء في أوربا خاضع للعلم وكل شيء له كتب مضبوطة وحدود محدودة، ثم لا بد للمتجول في أوربا أن يرى إلى جنب العمل الدائب مظهر الخلاعة واللهو ولا بد أن يزور تلك الأماكن التي ينمو فيها الفن من مراقص ومسارح وملاعب. فكان بنونة الصغير في أول الأمر يدفع عنه شياطين التفكير في هذه الشؤون

التي قد تصرفه لحظات عن التفكير في شيخه وطريقه وشقيقه الذي آخى بينه وبينه الشيخ فيعرض عن هذه الأمور، ولكن القدماء قالوا كم عسى أن يسبح الغريق فكان لا بد لبنونة أن ينسى تطوان وجوها ولو لحظات قلائل وكل لحظة من النسيان تطرأ على الفتى كان أخوه الداهية يرى فيها علائم النصر وبشائر الفوز، وكان بنونة الصغير إذا أتم من عمله في الارتياض والتجول فزع إلى القرطاس والقلم فناح ما شاء له النوح من ما شاء له الحنين وضمن كل ذلك في عبارات شديدة الحرارة يطويها في رسالته اليومية فيودعها البريد الذي يمكننا منها، فإذا بنونة هو هو لم يتبدل ولم يتغير غير أنه مهما يكن من أمر فإن العالم الجديد الذي شاهده كان لا بد أن يتخذ لنفسه مكانا من قلب الفتى. ثم انقضت هذه الرحلة فرجع بنونة الصغير وهو أقل حرارة بيسير لما كان عليه من ذي قبل وقل من اطلع له على هذا الفتور الضئيل أما أنا فقد عرفته وأهمني أمره ولكنني غالطت نفسي وطردت الوسوسة، ألم يكن محمد مؤمنا صادقا لا يحتاج إلى برهان ولا دليل ثم ها هو اليوم ــ بعد أن رجع من إسبانيا ــ قد طلب مني أن أرافقه في طريقه فنظرت في باب الزاوية يمينا وشمالا فأشرت إليه أن لا رقيب في الطريق، فغطى رأسه ثم خرج يجري إلى أن تجاوز باب المقابر فلما بعد يسيرا ووصلنا إلى ما بين أسوار المقابر سألني في شيء من التردد: هل سيدي إدريس ولي من أولياء الله؟ وهل يعرف أسرارنا ويطلع عليها كما يطلع على ذلك الأولياء الكبار؟ فأجبته دفعة واحدة بقولي: والله الذي لا إله إلا هو لو علمت أنه يخفى على الشيخ شأن من شؤوني لما تبعته شبرا، ولقد أقسمت بناء على ما أعتقد فلقد كنت جاهلا بأن الغيب لا يعلمه إلا الله وأن الولي لا يقدح في ولايته أن يبقى بشرا يخفى عليه ما لا يصح أن يعلمه إلا علام الغيوب فكانت هذه اليمين الصادرة مني إنما أردت بها التأكد من القول بولاية الشيخ وكان الكشف عندي لازما من لوازم الولاية. وها أنا اليوم وقد شاب رأسي أسجل على نفسي أنني كنت ولا زلت أعتقد ولاية الشيخ ولكنني اليوم مؤمن بأن الغيب لا يعلمه إلا الله وهو سبحانه إذا أراد إطلاع رسله على الغيب أطلع من شاء منهم على بعض الأشياء دون بعض ولا يضر أن لا يطلعهم على شيء أصلا ما داموا عبيد الله المنفرد بالعلم المحيط فأنا أستغفر الله من تلك اليمين اللغو وأعترف بجهلي ولا زلت جاهلا. أما اليمين فكانت لبنونة الصغير كافية لكي يزداد بعقيدته تشبثا لولا أن أباه وقف موقفا

حازما في سبيل انتشاله من هذه الوضعية الجديدة، فحيث لم يفد تهديد الشيخ الوقور فإن حيل الحاج عبد السلام لا يعجزها أن تصرف أخاه الذي كان يحبه حبا جما عن وجهة نظره فقرر الحاج عبد السلام إبعاد أخيه عن هذا الوسط الذي تفسد فيه الحيل، وكان هم الحاج عبد السلام في هذه الأيام أن ينظم بعثة علمية إلى فاس فصرف جهده لتنفيذ فكرته وذاكر في الأمر أولياء نجباء التلاميذ فتألفت بعثة هي أولى البعثات من تطوان إلى فاس بعد الاحتلال الأجنبي، وكان بنونة الصغير عضوا في هذه البعثة وقبل أن يفارق تطوان عانق جدران الزاوية وبكى وشكا ما يلاقيه من البعد فأوصاه الشيخ بأن يحتفظ في قلبه بمودة الفقراء. ثم ذهب بنونة إلى فاس فوجد جوا علميا اتصل فيه بشباب المغرب وكانت كلية القرويين في هذه الأيام تعج عجا بالطلبة وتصطخب اصطخابا من أثر التطور والانقلاب، فلقد صادف الحال في الحجاز والجزيرة العربية تغلب الملك عبد العزيز آل سعود على الملك حسين وتربع الملك العادل على دست حراسة الحرمين الشريفين وسلك في خطته مع العربان خطة الحزم والصرامة فأمنت السبل إلى بيت الله الحرام ومنبر نبيه عليه السلام، ثم إنه إلى جنب هذا قام فهدم القباب بالبقيع وبغير البقيع ولم يترك إلا قبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن مذهب الملك عبد العزيز لا يتساهل في البناء على القبور، واشتهرت هذه الحركة بالحركة الوهابية[1] وأعاد من جديد مراجعة تاريخها وكيف قام بها مؤسسها، وكانت ولا تزال الأكثرية الساحقة من المغاربة تعتقد في القبور وأصحابها وتتغالى في تقديس الأموات إلى درجة تخالف نصوص الشريعة الإسلامية، وفي هذا الوقت أيضا كانت الحركة الوطنية المصرية بقيادة سعد[2] قد بلغت إلى أعلى درجتها فكانت الصحف والمؤلفات والأخبار ترد على المغرب بهاتين الحركتين المصطخبتين في المشرق، وكانت كلية القرويين موطن الصدى لهذه الحوادث الجديدة فكثر الحديث في شأن الوطنية المصرية من جهة والحركة السلفية من جهة أخرى، وشارك في هذين الميدانين بفاس القدماء والمحدثون على السواء فالقدماء يفندون ويزيفون والمحدثون يحبذون وينتصرون، وقام في القرويين

---

(1) تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن تميم، ولد بنجد عام 1703م، وتأثر بما كتبه ابن تيمية وابن جوزية في الإصلاح الديني وقد صادفت دعوته النجاح بعد أن قبل بها أمير نجد محمد بن سعود.

(2) سعد زغلول أبرز زعماء حزب الوفد الذي كان أقوى حزب في مصر خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

رجال اعتنقوا السلفية مرة واحدة وهاجموا هذه الطرق والمنتمين إليها مهاجمة عنيفة وكثرت الرسائل والمباحثات في هذا الباب وأدلى كل فريق بما عنده فاضطر الطرقيون إلى تعديل خطتهم بعد أن حاولوا أن يستمروا على ما كانوا عليه.

ففي هذا الجو دخل بنونة الصغير كلية القرويين وخاض قهرا فيما يخوض فيه الناس وسمع من أدلة السلفيين ما فيه الحجة القاطعة، فأخذ في باطنه يعدل من خطته ويتساءل وكلما أعاد الحوار بينه وبين نفسه نقص نزر يسير من رأيه في هذه الطرق فكان كالصخرة الجيرية على شاطئ البحر ترطمها الأمواج وكلما صدمتها أخذت منها قدرا وإن كان ضئيلا، إلا أن تكرار النقصان السنوات تلو السنوات والأحقاب تلو الأحقاب لا بد أن يستبين وأن تظهر التخاريب في البقع التي تكون رخوة نوعا ما حتى إذا انهار الرخو وبقيت الصخرة أشبه شيء في صورتها بالشبكة أو بالمجموعة من الأعصاب التي تقلص عنها اللحم سهلت مهاجمة هذه الأعصاب المنفردة فلم يسعها إلا أن تخور وتسلس قيادها للهجمات المستمرة. وبعد أن كان بنونة الصغير يفخر بطريقته أصبح يخفيها وهو مطمئن القلب بها إلا أن ذلك الاندفاع استحال إلى هدوء فقلت الرسائل التي ترد من جهته، وكان كلما توغل في دراسة السلفية قل ميله إلى الطريقة إلى أن لم يبق من ذلك كله إلا كما يبقى من الوشم في ظاهر اليد، ثم بعد أن قضى بفاس ما قدر له أن يقضيه من الأيام عاد إلى تطوان بعد أن تطوف في عواصم المغرب واتصل بالشبيبة الناهضة به، فرجع بنونة شخصا آخر يدافع عن السلفية إلا أنه لم يتحمس في تحطيم الطريقة حتى في أشد أيام اندفاعه في تأييد السلفية وبنونة إذا اعتقد شيئا اعتقده بشعره وبشره ونسي كل شغل دونه حتى إذا تجدد عليه الجديد انصرف إليه بنفس القوة وأعرض عما سبق كأن لم تربطه به رابطة، على أنني لم أقطع الأمل في صديقي القديم فإن الزاوية لم تكن وحدها هي التي تجمعنا غير أن مسافة الخلق قد بعدت بيننا، فأنا متطرف من ناحية وهو متطرف من ناحية إلا أن التطرف من جهتنا لم يسبب في يوم من الأيام معركة ولا اشتباكا ولا نزاعا.

وبعد أن استقر بنونة بتطوان بعد رجوعه من فاس وذلك بعد وفاة والده الحاج العربي هم بالتزوج فتزوج بإحدى كريمات الوجيه السيد أحمد مدينة وهي بنت خالته،

وقد تكلف بنونة لحفلات عرسه تكاليف عظيمة واستدعى لحضور حفلة زفافه وفودا كثيرة وردت من فاس والرباط والدار البيضاء وطنجة وغيرها، ولقد قابلته على قرب من زفافه فأردت أن أعجم عوده كي أدرك هل بقي فيه أمل في أن يعود إلى الزاوية أم تقطع فيه كل رجاء فقلت له: يا فلان افعل كذا فذلك من عادة الفقراء فالتفت إلي في جد وانفعال وقال لي: يا فلان إنني لم أبق فقيرا فقد ظهر لي أن هذا ضرب من الحياة لا ينبغي لي أن أسير فيه وإذا كان يغرك مني أنني لا أزال أحتفظ بودك فليس ذلك من بقية تأثير الزاوية بل هو حفظ للوداد القديم بيننا، فأطرقت برأسي إطراقة وألجمت عن الجواب جملة وتفصيلا ولو كان غيره قالها لأصابه مني شر كبير. وهكذا انفض أصحابنا من حولنا وتركونا وشأننا فتركناهم لله واستبدلنا بهم أقواما لله خشية وأحرصهم على ذكره وما يقرب إليه.

الأوامر الأولى

بعد أن لازمت الزاوية بضعة أيام استدعاني الشيخ وقال لي: إنني فكرت في أمرك فوجدت أن مصارحتك بكل شيء أفضل من السلوك بك مسلك التدرج وإنك طالب علم ظهرت نجابتك وسوف تقرأ على هؤلاء القوم الذين يجاهروننا بالعداء وذلك يفسد عليك توجهك إلى الاشتغال بطريق القوم، وإنني لا أحب أن أقطعك عن سبيل العلم إلا أنني أريد أن لا تقرأ على أعدائنا فإذا كنت ولا بد فاعلا فاحضر دروس الفقيه المرير فهي مأمونة لأنه من أهل حجتنا، فقلت له على الفور والبداهة: يا سيدي والله ما عاهدتك على طريق الله إلا لأنسى أن لي عقلا وتدبيرا فأمرني بما تريد فما لي بهذا العلم من حاجة إذا كان الأمر يقتضي الاستغناء عنه وسوف أنصب نفسي لعداوة من عادى الطريق وحب من يحبها ويؤيدها. ثم لم أتردد في أن أصممت العزم على أن أقطع عن الدراسة فلما انقضت أيام عيد المولد قصدت دروس الفقيه المرير وكان الدرس الذي حضرته درسا في ألفية ابن مالك كان يلقيه بزاوية سيدي بركة، فكنت أسمع تلك العبارات وأنا أجتهد أن لا أغفل عن الله وقت الدرس فكانت معاني الفتوحات تمر أمام عيني وأخذ شأن الدراسة الجافة يقل شأنا في عيني فكان ذلك آخر درس حضرته بعد أن تعاطيت الدراسة سنة ونصف أخرى وهي كل ما درسته في حياتي على المعلمين، ما عدا ما كنت قرأته على الفقيه الكحاك وهو المرشد المعين مرة واحدة والأجرومية مرتين والألفية من أولها إلى باب الابتداء فهذه كل الدراسة التي درستها. ولقد ذكرت للشيخ أن لي بعض الرغبة في قراءة شفاء القاضي عياض فلقد كان الفقيه المرير مصابا بالمرض فدعا الطلبة لأن يقرأ معهم كتاب الشفاء ولتكن القراءة درسا واحدا في

الأسبوع، فكان يحضر هذا الدرس تقريبا كل الطلبة الموجودين في تطوان بل وكثير من الأساتذة وكان المرير يلقي هذا الدرس في بيت صهره الناظر القناوي وكان يحتفل احتفالا ما مزيد عليه فكان يلبس جميل الثياب ويفرش غرفته ذات الخراجة بأفخم الفرش، وإذا كان وقت الدرس كان بخور العود يعبق به المكان حتى إذا فرغنا من الدراسة أحضرت آنية الشاي وقدمت صواني الحلواء، وفي هذه الأثناء يكون المزمرون يرددون الأذكار وقطع الموسيقى الجميلة وأبياتا من همزية البوصيري وكلام القوم وعلى رأس المسمعين سيدي محمد النبخوت رحمه الله وسيدي أحمد بن عبد الكريم الحداد. وكان موعد هذا الدرس يوم الأربعاء بعد صلاة العصر فكنا نجد فيه متعة وذكرى وناديا نتصل فيه بأماثل أهل العلم والفكر، فإذا تم ذلك أخذ الحاضرون في حديث دونه متساقط الطل على غروس البرتقال وقد أزهرت فروعها وانتشرت روائحها، وهذا الدرس أقرب إلى حلق الذكر من مجالس العلم حتى إذا حضر وقت المغرب صليناها جماعة ثم لا يكون انصرافنا إلا قرب العتمة. فلما دخلت في الطريق بقي في النفس شيء من هذا الدرس سيما ويعسوب مثوله هو الفقيه المرير الذي أجاز لي الشيخ حضور دروسه، فاستشرت الشيخ في حضوره فسمح لي بذلك فلما حل الموعد كان الشيخ حذرا من اتصال جديد أشم فيه هواء الطقس القديم فعزم على أن يرافقني في حضور هذا الدرس، فلما صلينا العصر اختار جماعة من الفقراء وقصدنا جميعا دار الفقيه المرير فتلقينا الدرس وبعد ذلك طاب الوقت بالذكر والمذاكرة وكانت ساعة تعادل بالأعمار وذلك آخر درس حضرته كتلميذ وطالب علم إلى هذا اليوم. وقد حدث أن الفقيه المرير استدعي من طرف الحكومة ليقوم بوظيف القضاء في القصر الكبير فلم تمض إلا أيام قلائل حتى فارق تطوان فاستراح خاطر الشيخ من هذه الناحية و لم يبق ما يشوش باله من خوف تعاطي الدروس من جانبي.

وقد وقع نبأ انقطاعي عن الدراسة في الأوساط التعليمية بهذه العاصمة التطوانية موقع الدهشة والغرابة وطفق الناس يعزي بعضهم بعضا على هذه المصيبة التي حلت بي فقد كانوا ينتظرون مني عالما جليل القدر لما كانوا يرون من علامات ذلك في الوقت القصير الذي قضيته في الدراسة، ووجد الفقيه سيدي أحمد الرهوني بابا جديدا يهاجم

منه الشيخ سيدي إدريس الحراق وكانت حملته في هذه المرة أشد وأقوى، فلقد كان شيخنا الرهوني يحبنا محبة خالصة فلقد فطره الله على محبة آل البيت وأعقاب الصالحين وكان يتوسم فينا سمة الخير ويحرص كل الحرص على أن أواظب على الدراسة والتحصيل وكم من مرة لم أشعر إلا وقد وضع في يدي دراهم أو أرسل إلي جلابة أو شيئا من الطرف أو الهدايا، وكنت من جانبي أعظمه على قدر محبته لي وقد جعلته عمدتي في الدراسة فلا أحضر درسا إلا إذا كان وقت درس الرهوني فارغا أما إذا كان الوقت وقت درسه فهو المقدم على الجميع. وكان الرهوني يجد في هذه العناية من الطلبة بدروسه مشجعا على العمل فكان يلقي في اليوم الواحد خمسة من الدروس درسين بعد الظهر وآخر بعد العصر ودرسين بعد قراءة حزب المغرب، فكنا نسمي الوقت من الظهر فما فوق باحتكار الرهوني وكان يعتبرنا كأبناء صلبه. فلما انقطعت عن الدرس وكان سبب الانقطاع موجها إليه بالقصد الأول لأنه هو الذي يخشى منه من التهجم على الشيخ وخطته لم يسهل عليه الأمر، فأخذ يجاهر بالاعتراض على سلوك الشيخ ويجد المكان صالحا للطعن فها هو سيدي إدريس يمنع تلاميذه من قراءة العلم وأي ذنب أعظم من هذا الذنب، وكان كل شيء يقوله يبلغنا فانقلبت كل محبة لي فيه بغضا له لأن الشيخ يبغضه ولم أجد ما أغيظه به إلا أنني كنت أتعرض له فأقف بباب درب شرفاء وزان بعد صلاة العشاء حتى إذا فرغ هو من درسه بالزاوية التيجانية وقصد بيته برأس الرخامة وجدني واقفا بباب دربنا وبيدي سبحة كبيرة وأنا متكئ على عصاي، فلا أسلم عليه ولا أكلمه لأنني أعتقد أقبح الاعتقاد فيمن تحدثه نفسه باعتراض شيء من أعمال الشيخ فضلا عن أن يصل إلى انتقاده أو القدح فيه، وكنت أتعجب من لطف الله وإمهاله لعبيده حتى أنه ليؤخر نزول العذاب على الذين يقدحون في الشيخ فلولا أن إلهنا الكريم يمهل الظالمين لما أتم أحد قوله في الشيخ إلا إذا مسخ مسخا أو ابتلعته الأرض كما ابتلعت قارون من قبل.

وقد كنت لما قصدت الزاوية ألبس الطربوش فبعد ثلاثة أو أربعة أيام أمرني الشيخ أن أعتم من فوقه ثم أمرني بلبس شاشية جديدة مع جلابة بيضاء جديدة ثم أمرني بوضع السبحة الغليظة على عنقي ففعلت، وبعد انقضاء نحو شهر صعد يوما إلى الزاوية وبيده

عصا لطيفة الشكل من عود الشوك قبضتها من العاج فقال إن هذه عصا الحاج محمد الطريس أهداني إياها وهي عزيزة علي وها أنا أقدمها لك فعليك أن لا تفارقها، وقد خشي أن لا أشجع على ذلك فأمرني بمرافقته فخرجت خلفه ومعنا جماعة من الفقراء وبيدي العصا فوالله ما كنت أشعر أني أسير على وجه الأرض وودت [لو] أن السماء رفعتني أو الأرض ابتلعتني، ولكنني كنت أظهر الثبات والتجلد واعترتني حال شعرت معها أنني أنقلب من صورة شخص إلى صورة شخص آخر.

وفي هذه الفترة كنت أطالع فهرسة سيدي أحمد ابن عجيبة وفيها ذكر ما مر عليه في أيام الخراب بعد أن كان من أهل العلم والعدالة والجاه فكان ذلك يسليني كثيرا فقضيتي أقل بكثير من قضية ابن عجيبة، أولا: لأنه كان رجلا كاملا قد أخذ يتمتع بالجاه والعلم بينما أنا لا أزال في حالة هي بالطفولة أشبه فست عشرة سنة ليست بالشيء الكثير، ثانيا: لأن الاختبارات التي سار في طريقها ابن عجيبة كانت أصعب مما أنا فيه فقد بلغ من أمره أنه كان يمد اليد بالسؤال مع تشويه في الملبس والهندام.

ولا أدري كم مرة قرأت تلك الفهرسة حتى كادت تكون محفوظة لدي من ظهر قلب، وأحب شيء إلي كانت هي الخلوة وكثيرا ما تمنيت أن يأذن لي الشيخ بها وكنت بصفة عامة أرجح جانب التخلي عن جانب التحلي ولكن الشيخ كان يذكرنا في كل حين بأن طريقته طريقة الجمال لا طريقة الجلال، وهذه الطريقة تسمح بالمنضم إليها أن يبقى على ما كان عليه من تجارة أو طلب أو ما شاكل ذلك وإنما قيامها هي الأسس الأربعة التي بنى عليها الشيخ الأكبر سيدي محمد الحراق طريقته وهي الذكر والمذاكرة والعلم والمحبة، وكثيرا ما كان يفيض القول في هذا الموضوع فكان يقول: إن أصحاب هذا الشأن متفقون على أن الطريقة أمران: تحلية وتخلية وإن شئت تجردا أو تخلقا وإن شئت قلت تركا وعملا، فالترك والتحلي والتجرد هو الانكفاف عما لا يتفق مع التوحيد الخاص من تفكير وحالة فيصبح الفكر متحررا من تلك القيود التي ترسف فيها العامة التي لها رأي في توحيد الخالق سبحانه لا يمكن لصاحبه أن يحلق في سماء التنزيه الواسعة، فالعامي يجد أمامه الحدود التي تفرض عليه أن يقيم الدليل العقلي فيتصور الذات الأقدس على نوع من الكمال هو في حق العامي كمال ولكنه في حق العارف

نقصان. و لم يكلف الله الدجاجة أن تطير إلى حيث يحلق النسر كما أن للنسر أن يسير طبق ما فطره الله عليه من قوة الطيران دون أن يكلف فيجاري الدجاجة ويسلم رقبته للذابح أي وقت شاء. والصوفي عليه أن يتجرد ويتخلى عما تواضع عليه الناس من الحدود الضيقة التي حسبوا داخلها كمال الباري المطلق المتره عن الحدود والقيود، وكما يتخلى عن نوع تفكيره فيما يتعلق بالتوحيد عليه كذلك أيضا أن لا يقف مع حرفيات العلم وما سطره العلماء ففوق كل ذي علم عليم، لأن الكلام الذي لا يقبل التبديل ولا التغيير إنما هو كلام الله القديم في قرآنه الحكيم وما وردت به السنة الصحيحة في أحاديث خير المرسلين دون النظر في التفاسير ولا الشروح التي تضيق الواسع وتسد السبل أمام الفيوضات التي يتلقاها القلب عن الرب، وإن الأمر ليصل بالمتجرد إلى أن يتخذ له مذهبا خاصا حتى في النحو والطب والأدب وموضوعات اللغة. وكما أن الصوفي عليه أن يتحرر عقله من كل قيد من قيود التفكير عليه كذلك أن يتحرر من نفسه وشهواتها وما ألفته في تاريخ حياتها، فعليه أن يخرق عليها العوائد فيخرق عادة النوم بالسهر والشبع بالجوع والأناقة بالتبذل والكبر بالتواضع ويجرد نفسه من كل عادة مستحكمة حتى يكون إبراهيمي المقام أقدره الله على أن يكسر الأصنام ويقول وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. فإذ ذاك يكون متجردا حقيقة التجرد ترك كل شيء لله وانصرفت عنه همته جملة وتفصيلا دون أن تطالبه بالرجوع أو تندم على ما كانت عليه من عز وجاه ومال وأولاد وأهل ومتاع إلى أن ينسى ذلك كله وتمحى صورته من ذاكرته ويجد بينه وبين الماضي حائلا قطع كل وصلة بين اليوم والأمس، وإذا تحدث عما فات كان كأنما يتحدث عن شخص آخر لا يتحرك من ذلك إلا بمقدار ما يتحرك بالحديث عن شخص بعيد، وإذا حقق هذا الحال وأصبح له مقاما ملازما صح له أن يقول ما قال أبو يزيد البسطامي للرجل الذي سأله عن أبي يزيد وهو لا يعرف أنه هو: مات أبو يزيد وأنا لي مدة كذا سنة أطلب أبا يزيد ولا أبا يزيد وذلك لأن كل شيء تبدد في الرجل، وهل الإنسان إلا أفكاره وأحواله؟ فإذا تجرد منهما محق محقا، وقضية أبي يزيد هذه في هذا المقام هكذا تفسر وفي مقام الفناء الذي ينبغي أن يكون هو مقام أبي يزيد في ذلك الوقت تجد تفسيرا آخر فلكل مقام مقال. وإذا فهمت معنى التخلي هذا حق لك أن تعرف أن طريقة

السلف كانت قائمة على أن الشروع في طريق القوم إنما يبتدأ فيها بالتخلي والرجوع إلى جزئيات السنة المطهرة في كل قول وعمل، والابتعاد عن كل موطن من مواطن الريبة إلى حيث تحقق السلامة وتجنب كل ما من شأنه أن يجر إلى التهاون أو التراخي وهذا ما حمل القوم على التورع عن الشبهات والزهد في الحلال.

إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تحل على حال بواليهـــا

فإنهم بعملهم هذا سدوا كل طريق في وجه الشيطان وأوصدوا دونه الأبواب فلهذا كانت طريقة السلف أسلم حيث قدموا السلامة التي هي التحرر من الدنيا والشهوات عن الغنيمة التي هي القيام بحقوق الله في البلاد وما تهواه النفس، وإنهم بعد أن يترع الله من قلوبهم كل غرض وهوى ويجعلهم قادرين على أن يقوموا بحقوقه في نعمه التي أباحها لعباده المؤمنين لم يحملهم ذلك على أن يتمتعوا بشيء من زهراتها وما فعل أخذ بمقدار وعرض نفسه لاعتراض إخوانه الذين يرجحون السلامة في الدين على كل شيء. ولقد كان الصوفية الأقدمون ومنهم رجال رسالة القشيري لا يشرعون إلا بالتخلي ودام الأمر على ذلك طويلا إلى أن جاء الشاذلي بطريقة الشكر فسلك مسلكا لم يسلكه من سبقه فتنعم بالملابس والمراكب حتى كانت الغاشية ترفع بين يديه وكان المنادي ينادي في موكبه: من أراد أن يشاهد القطب فليأت، بينما كان الأقدمون يتبرأون من الدعاوي إلا في حالة الاصطلام أو الشطح. وظهرت الطريقة الشاذلية بمظهرها الجديد فكان مشايخها يكتفون من أتباعهم بتنقية القلب وتصفية الباطن واقتصروا من العبادات على بعض ما كان يأتي به السابقون، وقد اعترض عليهم في ذلك بعض من سلكوا سبيل الجادة فقال رجل منهم كان يلبس المرقعات للشاذلي حين رآه في ملابس فخمة تفوح منها روائح الطيب: ما هذه الملابس يا أبا الحسن؟ فقال له: ملابسك تقول للناس أعطوني ما عندكم أما ملابسي فتقول إني في غنى عنكم، على أن الشاذلية نفسها تفرعت فكان من فروعها أقوام سلكوا طريق التخلية. ووجهة نظر الشاذلية في الاكتفاء بإصلاح الباطن دون تخريب الظاهر هي أن السابقين كانوا يعمدون إلى الخراب اشتغالا بشؤونهم الأخروية عن الحياة الدنيا وأيضا ليتواضعوا حتى لا يشار إليهم بالبنان وبالأصابع، فأبى الله إلا أن يظهر فضلهم وهم في خلقاتهم وأبت

الأمة إلا أن تعظمهم لما كانوا عليه من متانة الأخلاق وشدة الاستقامة، ولم تستطع الثياب المهلهلة أن تمنع من ظهور فضلهم بل إن ذلك تكاثر حتى أصبحت الملابس الخشنة شعارا للشرف والدين والعلم والولاية فأصبح لأصحابها من المزية ما لم يدرك بعضه أصحاب التيجان والعروش، وكادت القلوب تطبق على أن كل فضل إنما هو في طبقة الزهاد والورعين وأن الذين يلبسون الثياب الحسنة لا يمكن أن يتصفوا بصفة من صفات الولاية فانقلبت الآية عندما أصبحت العامة على هذا الرأي، فجاء الشاذلي ومن تبعه منددا بهذا المذهب يقول بلسان حاله: يا قوم لا تجعلوا الملابس المخرقة عنوان الصلاح فكم يلبسها من مرائين ومتلصصين ولا تتخذوا الملابس الحسنة دليلا على الغفلة عن الله والميل عن طريقه إلى طريق الذين أسرفوا على أنفسهم فإن من بين المتجملين من هو أعلا عند الله منزلة من كثير من المتنطعين الذين لم ينقطعوا عن العمل الدنيوي اشتغالا بالعلم وشؤون الآخرة بل إن منهم من انقطع عن العمل تكاسلا وليكون كلا على الناس، فطريق السير إلى الله ليست لها معالم في الملابس والمطاعم وإنما في اتباع الكتاب والسنة وسلامة القلب من الأمراض الباطنية، وفي الإمكان أن يتوجه جميع الخلق إلى ربهم لو أرادوا ذلك مع بقاء أسباب الحياة قائمة كما فرضتها سنة الله في خلقه، فللتاجر أن يواصل عمله في التجارة وللزارع أن يزرع ولكل ذي عمل دنيوي أن يقوم به وهو مع ذلك قادر على أن يسير في طريق أهل العلم والذكر وما يضره أن يقول « الجسد في الحانوت والقلب في الملكوت ». فكانت طريقة الشاذلي هذه ثورة على ما تواضع عليه الناس حتى أصبح اسم الصوفي مرادفا لاسم البطال الذي لا يحترف ولا يعمل ويطلب من الناس أن يرزقوه. وكانت طائفة المتكسبين بتقشفهم ضررا على الصوفية والمتصوفة فلم يرعهم إلا أن فتح الشاذلي الباب على مصراعيه وضرب من نفسه ومن أصحابه مثلا، فأدرك المسلمون أن الطريق الموصل إلى الله ليس حبيسا على أصحاب المرقعات ولا وقفا على المنقطعين عن العمل بل إنه سهل ميسور لكل أحد، وكما ثار على التقشف ثار كذلك أيضا على كثرة الأوراد والوظائف وقد سأله أحد أتباعه فقال له: يا سيدي وظف علي وظائف أقوم بها فأجابه الشاذلي بقوله: « أرسول أنا؟ إن كتاب الله يتلى وسنة رسوله تقرأ فانظر فيما أمرا به فائتمر به وما نهيا عنه فانته عنه ». وكانت الشاذلية الأولى واضحة المعالم قائمة على السنة بمعتدل

مفهومها لم تكثر من الإجهاد ولا من فرض الفرائض مع التحري فيما كان عليه السابقون، قال الشاذلي: « والله لا أقبل شيئا إلا بشهادة عدلين كتاب الله وسنة رسوله ». ومن لدن ظهرت الشاذلية كثر إقبال أهل الطريق عليها حتى قال قائلهم: مثل الشاذلية في طريق القوم كمثل الشريعة المحمدية في الشرائع نسختها بآيات خير منها أو مثلها، وكان في الشاذلية رجال من شكل سيدي محمد الحنفي وابن وفا وأضرابهما وقد كثرت في المغرب هذه الطريقة فلم تقف أمامها طريقة أخرى قادرية ولا غيرها، ثم توزعتها المذاهب إلى أن وصلت إلى يد أقوام أخذوا منها سهالتها وإباحة التنعم بالنعم وأسرفوا في هذا الباب كما أخذوا من الصوفية القديمة إعراضها عن العمل، فكانوا مترفين غير عاملين ملتزمين للناس بأن يقدموا إليهم ما هم في حاجة إليه من متاع ورفاهية وتوسلوا لذلك بالوقوف في أبواب الملوك. فلما جاء مولاي العربي الدرقاوي سلك في أصحابه مسلكين فأمر طائفة بالتجريد والتقشف وسمح لطائفة بأن تستمر على ما هي عليه، وكانت طريقته تنقسم إلى طريقة قديمة وأخرى حديثة جديدة فالمذهب الأول كان مذهب التجريد والتوكل والمذهب الأخير كان مذهب الشكر وإبقاء ما كان على ما كان والله الفتاح. فكان من أهل المذهب الأول وعلى رأسه سيدي محمد البوزيدي الغماري تلميذ مولاي العربي الدرقاوي وقد أدرك من الحال مع الله ما لم نعرف مثله إلا لقليل من كبار أهل هذا الشأن رضي الله عنهم، وعن البوزيدي أخذ سيدي أحمد ابن عجيبة الطريقة الصوفية ومن أهل هذا المذهب أيضا سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن الغماري وعنه أخذ الطريقة سيدي الحاج عبد القادر بن سيدي أحمد بن عجيبة السالف الذكر طريقة القوم، وكان يتردد حسبما حدث عن نفسه بين أن يأخذها عن الشيخ الأكبر سيدي محمد الحراق أو عن سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن فآثر الجهة الأخيرة لأنها كانت إلى ميله أوفق فإنه كان متأثرا بوالده سيدي أحمد الذي مال إلى الله جملة وتفصيلا وانقطع عن الدنيا بالمرة وأخرق العوائد بكل أنواع الخرق. وكان من أصحاب المذهب الأخير لمولاي العربي الدرقاوي الشيخ العلامة الأديب سيدي محمد الحراق فإنه بعد أن قابل مولاي العربي وقد اغتسل من علمه وعمله إلا ما يأتيه على يد الشيخ دون أن يكون له علم بقضية الشاذلي لم يزده على أن قال له اذكر وذكر، فقال قدماء أصحاب مولاي العربي لشيخهم: غفر الله لك

يا سيدي بعضنا معك ههنا كذا سنة ما حصل على شيء حتى جاء الفقيه الحراق فأذنت له في كل شيء قبل أن يترل عن ظهر بغلته، فأجاهم الشيخ مولاي العربي: إن سيدي محمد الحراق جاء وقد غسل مصباحه وملأه زيتا صافيا ووضع فيه فتيلة نقية فلم أزد شيئا على أن أوقدت مصباحه وإن أحدكم يأتي مفتقرا إلى كثير من العلاج والأمر بيدي الله وليس بيدي. وقد بقي الشيخ الحراق على ما كان عليه لم يزد شيئا فوق حمل السبحة على العنق وقبض العصا و لم يأمر أصحابه بالتجريد بل كان شاذليا حقيقة.

وعندما دخل الشيخ سيدي إدريس طريقة القوم اتخذ عمدته وشيخه فيها سيدي الحاج عبد القادر بن عجيبة وكانت طريقته طريقة التجريد فجرد سيدي إدريس شيخنا وقاسى في ذلك مع إخوانه وأنصار طريقة جده أهوالا كثيرة، غير أن سيدي إدريس الحراق بعد أن انتصب للأمر رجح أن يسير في طريقه على نهج جده الشيخ الأكبر سيدي محمد الحراق لا على نسق طريق شيخه سيدي الحاج عبد القادر بن عجيبة، وقد كانت تربيته التي تربى عليها تفرض عليه الخراب وشيئا من الجذب فكانت تربيته وسبحته لو سار معها يحثانه على العجيبية وميوله تحدوه إلى أن يتتبع طريقة جده وفي كثير من الأحيان كان سلوكه غير مفهوم لما فيه من التعارض الذي لم يكن سره إلا التراع الحاصل في تفكيره بين التربية والميول. وهذا الاضطراب بعينه هو ما حملت على أن أتجه فيه فلقد كانت رغبتي إنما هي أن أسير عن طريق الرياضات والمجاهدات ثم إن هذه الرغبة مني لم تكن لها قيمة في نظري لأنني أصبحت ميتا بين يدي غاسله يقلبه كما يشاء، وكان الأمر عندي في التناقض الذي يفرض علي مفهوما واضحا فقد تعلمت أن طريق القوم يسير المشايخ فيها تلاميذهم على أساس تحطيم أصنامهم وإخراجهم عما ألفوه وأحبوه، فإذا قال الشيخ افعل فعلت ثم لا تمضي إلا فترة يسيرة حتى يقول لا تفعل فأكف عن العمل دون أن أقول: إن هذه متناقضات فالدواء بيدي وهو أن قسما كبيرا من السير قائم على أساس إخراج النفس عما ألفته من المألوفات ولو كان من أنواع العبادة. ومثل أوامر الشيخ مثل الأغذية والأدوية والأشربة لا يأخذ المحتاج إليه منها إلا ما يكفيه فالأغذية يؤخذ منها بمقدار ما يحفظ سلامة الجسم وقل مثل ذلك في العبادات أيضا فإن الشريعة نوعتها بل وحرمت الصلوات النافلة قبل

طلوع الشمس وقبل غروبها وحرمت صيام العيدين، وكل ذلك ليحمل المجتهدون الجادون على أن يستريحوا حذرا من الملل والضجر وربما أعجبت المريد حاله إذا كان في نوع من أنواع الطاعات فيدخل عليه الغرور من باب الطاعة، وواجب الشيخ حينذاك إخراج المريد عن هذه الطاعة لا لأنها تعبد مطلوبا بل لأنها أصبحت بابا من أبواب الهلاك الذي يجر صاحبه إلى ما يخالف طهران النفس أو صفاءها وإخلاصها في العمل لوجه الله، وأخوف ما يخشاه الصوفية الوقوف مع حال من الأحوال أو مقام من المقامات فالمطلوب أمام وما يتجلى من الأسرار والألطاف إنما هي عطايا ينالها السائر في الطريق دون أن يقف معها ويشتغل بها عما هو بصدده. وهذا الشاذلي يحدثنا عن شيخه مولاي عبد السلام بن مشيش فيقول: « قلت للشيخ كيف أصبحت يا سيدي؟ فقال أصبحت أشكو برد الرضى والتسليم كما أصبحت تشكو حر التدبير والاختيار»، فقال الشاذلي: « يا سيدي لقد فهمت الشكوى من حر التدبير والاختيار لأنني قد ذقتها وأنا فيهما ولكنني لم أفهم شكواك من برد الرضى والتسليم »، فقال الشيخ ابن مشيش: «مخافة أن تشغلني حلاوتهما عن الله ». وهذا مبدأ مفروغ منه عند القوم وقد كان بيدنا سلاح ماض من أقوالهم وتعاليمهم فلا تكاد تتجدد حالة من الحالات على القلب حتى نرجعها لبابها ونتخذ لها من الدواء الوصفة العلاجية التي وصفها أطباء القلوب، وكنا ننظر إلى الرجل بإجلال حتى إذا رأيناه بطيء السير مربوطا بالرياضات التي على الصوفي أن يتجرد منها سقط من عيننا ونزل في نظرنا إلى مقام العامة التي لها نوع من المعاملة تليق بها، وهذا السلاح الذي كان بيدنا كان دائما يظهر لنا أن كل ما يأتي به الشيخ في غاية الحكمة والكمال رغم أنه لا يسير على الخطة التي نريدها، ومن جملة ذلك أننا كنا نريد المجاهرة فلم نذق منها الشكل الذي كنا نتصوره بل كانت مجاهرة شاقة من نوع آخر ولقد ساعدنا الشيخ ذات مرة في شأن العزلة رغم أن الزاوية الحراقية ذات جو لا يعيش فيه المتقشفون فهي ضوضاء وحركة وغناء وطرب تكاد جدرانها تسيل بذلك. وقد اتخذ المشايخ زواياهم ليجعلوها مجتمعات قائمة بنفسها لتطبيق ما يرونه من المبادئ والأفكار ويخلقون وسط الضوضاء صوتا خافتا وخلوة صالحة لمثلهم العليا وهذه الزوايا تتجلى فيها فكرة الشيخ رئيسها وتظهر فيها نفسه واضحة جلية، فالزوايا القائمة على أساس الخلوة والتخلية تجد بها خلوات كخلايا

النحل تخرج منها زفرات حرى ويسكنها قوم صفر الوجوه ذوو أجسام كالشن البالي من العبادة والجهد، وقد اصطبغت زاويتهم بنفسهم فلا يستطيع البقاء بها إلا من حسب أنه خرج من دار الغرور إلى دار البقاء ومات قبل موته وقطع ما بينه وبين الخلق من علاقات. أما الزاوية الحراقية فليس بها بيوت للخلوات ولا ما يلائم حياة العزلة والانقطاع وإنما بها غرفتان للضيوف ولاجتماع الفقراء على المذاكرة وسماع الموسيقى وشرب أكواب الشاي المعنبر، والماعون الذي تراه بهاتين الغرفتين عبارة عن رباب وعود وكمان على ألوان وأشكال بعضها جديد وبعضها معد للإصلاح وإلى جنب ذلك الفرش الوتيرة وماعون الشاي من كؤوس بلورية وصواني مفضضة وشمعدانات وعصافير صفراء مغردة وخزائن للكتب كالحديقة الغناء على صغرها جمعت من كل العلوم والفنون، وشغل الملازمين من الفقراء إما حفظ قصيدة من كلام أعيان القوم أو تعلم وتعليم دور من أدوار الغناء أو الانكباب على المطالعة والدرس، وبها ضيوف من كل شكل ولون لا يطلب منهم أحد أن يقوموا للصلاة ولا يعكر عليهم ما هم فيه موكولين إلى دينهم ومبلغ عقيدتهم. ففي هذا الجو أحببت أن أختلي على أن رغبتي لم تكن في الإقامة بالزاوية إلا بمقدار ما أسمع فيها من كلام الشيخ وحديثه وإلا فإنني أتذكر أن مولاي عبد الله الشريف صاحب وزان وقطبها لم يكن مقيما مع شيخه سيدي علي بن أحمد الغيلاني الكرفطي بل إن شيخه أمره بأن ينصرف إلى مكان قفر ليشتغل بغرس الأشجار، فأخلص مولاي عبد الله في أمر شيخه وخلق من حجرة في الجبل روضة غناء بها من كل الثمرات حتى بلغ الخبر الشيخ بأن الروضة قد أزهت وأزهرت فزارها مع الفقراء وطلب من مولاي عبد الله أن يقدم له من فاكهة بستانه فأتاه فيما أتاه به برمان، فلما فلقه الشيخ وجده حامضا فقال له: يا مولاي عبد الله ما لك أعطيتنا رمانا حامضا؟ فأجابه مولاي عبد الله: والله يا سيدي ما ذقته أبدا فأعرف حلوه من حامضه وإنما جنيت ما وقعت عليه يدي فدعا له سيدي علي بن أحمد بخير وأمره بالذهاب إلى وزان فسوف يكون له بها شأن وأي شأن. وهذه القصة وأمثالها كانت نصب عيني فلو أمرني الشيخ بالعمل في فدان أو بستان أو أي مكان لكان ذلك أحب الأشياء إلى قلبي ولكن الشيخ أراد أن يطيب خاطري فأذن لي بالخلوة وأمرني بأن أختلي في غرفة الزاوية التي تقع على يمين الصاعد إلى السطح، فدخلتها وأحكمت غلق

نوافذها فشعرت أنني في ظلام حالك فلما طلت بها ألفت بصري ثقوب دقيقة تدخل منها خيوط من النور تعاظمت في عيني وأقلقتني فتتبعتها بالغلق إلى أن انفصلت عن الدنيا انفصالا كليا. وقبل أن أدخل الخلوة كنت أخذت في التقليل من الطعام وأخبرت بذلك غيلان وسألته عن الطريقة التي يسير عليها أصحاب الرياضات في التقليل من الطعام، فذكر لي عدة أشياء منها: أن شيخا كان يأمر أصحابه حينما يدخلون الطريق ويرغبون في الرياضة والمجاهدة أن يعمدوا إلى الغذاء الذي يأكلونه ثم لا يأخذونه إلا بعد أن يزنوه بميزان، ولنفرض أن الرجل وجد نفسه يأكل رطلا من الطعام فهذا عليه أن يعمد إلى شجرة من شجر التين فيأخذ من خشبها الأخضر مقدار الرطل ثم لا يعود إلى أن يزن قوته برطل الحجر أو الحديد بل عليه أن يتخذ هذه القطعة أو الرزمة من خشب التين الخضراء ثم يزن بها قوته، وهذه القطعة أو الرزمة يأخذ ماؤها في التبخر وكلما ذبلت ويبست خف وزنها والمرتاض في ذلك يزن طعامه بها إلى أن تخف جدا فيكون الطعام الموزون بها قليلا يجعل الجسم والمعدة غير مكتظة، وذلك من شأنه أن يذكي العقل ويقلل من شهوات الجسم ويصرف النفس إلى أن تتفكر فإذا تهيأت للتفكير كان عليه أن يوجد لها ما تفكر فيه لئلا تجمح فتأخذ في التفكير في شؤون دنيوية أو خيالات ضارة فاسدة، وهذا الاستعداد هو التفرغ للعبادة والذكر وتلاوة القرآن وحصر الهمة في أن لا تغفل النفس عن الله طرفة عين فإذا زاغ الخاطر رده بالذكر وإذا فترت الأعضاء شغلها بالعبادة، فإذا تعب الجسم أخذ المختلي يفكر في بديع صنع الله واستحضر تاريخ عظماء الخليقة من صحابة وتابعين وتابعيهم ومن جرى على سبيلهم ثم يتذكر أقوى الأشياء التي ظهرت من أقوالهم وأفعالهم فترتاح النفس وتجتهد أن تصل إلى درجتهم أو أن تطل عليها من قريب أو بعيد. وإنني وإن لم أسر على هذه الخطة فقد اخترت ما تيسر عمله فكرهت نفسي أكل اللحوم والأدهان وكان أحب الأطعمة إلي اللبن المخيض الحامض وكسرة من خبز الشعير أو الذرة فإن لم يوجد اللبن فالفلفل الحريق وكانت أكلة واحدة تكفيني كل أربع وعشرين ساعة وما أظن أن وزنها كان يصل إلى ربع رطل. أما شعوري في الخلوة فإنني بعد ثلاث أو أربع ساعات أحسست بأنني أصبحت رجلا آخر وفي عالم آخر فإذا بنور ألطف من نور القمر قد غمر علي المكان فأصبحت أشاهد الأشياء كلها وربما شاهدت ما خلف

الجدران وسمعت أصواتا وكلمت رجالا وكلموني سواء أغلقت عيني أو فتحتها وسواء كانت أذني صماء أو سامعة فهذه الحواس أصبحت تؤدي مهمتها دون أن تحول بينها وبين ذلك حوائل، وكنت أرى نفسي بين جملة الحاضرين وإذا كان الناس يضربون المثل بأن العين لا ترى نفسها فإنني كنت أرى عيني بعيني كأنما أنظر نفسي في مرآة مجلوة صقيلة، ولم أكن بحالم ولا بنائم ولا بساه ولكنني شاعر بكل شيء ولم يكن ذلك العالم ولا أولئك الملأ ممن يدهشني شأنهم بل وجدت نفسي كأنني خلقت في ذلك العالم من أول يوم فتحت فيه عيني على نور الشمس، وعبثا كنت أحاول أن أضبط نفسي لأعود إلى مثل ما كنت عليه قبل الرياضة والخلوة على أنني لم أكن في حاجة إلى ذلك فإنني في عالم لذيذ لا شر فيه ولا كلفة، لا يحتاج إلى طعام وشراب وإنما هو حالة لم أعرفها في شيء من المواطن إلا في بعض قطع الموسيقى التي ينسى الإنسان فيها أنه موجود وينسى اللذة والألم ويصبح صوتا من تلك الأصوات المرتبة التي تؤدي واجبها بانتظام ولا تنافر فيه كأنما تؤديه الطبيعة نفسها، ولم أشعر بالزمان ولا بالمكان فلا أدري ألحظة كانت أم دهرا أم كنت في الدنيا أم في الآخرة إلا أنني مع هذا كله صحيح الإدراك سالم التفكير لا أشعر بتنقل ولا بخوف ولا حيرة، ولم يهلني الأمر دون أن أعرف أن سبب عدم الإرتباك هو ذلك المران على مراجعة كتب القوم إلا أن ما تصفه الكتب لا يصور شيئا من الحالة النفسية الواقعية، وربما حركت لساني بذكر الله فلا أجد الذكر صوتا ولا حرفا وإنما هو شيء يصبغ ذلك العالم ويصبغني بالمعنى المدلول عليه في اللفظ فيكسو الجدران كما يكسوني، فلو قلت إنها ناطقة لصدقت ولكن نطقها كنطقي ونطق لساني كنطق يدي وشعري إلا أن نطق كل شيء بحسبه فالذكر على اللسان صوت وعلى الجوارح أمر آخر وفي الجدران كذلك، وما مثله على وجه التقريب إلا كنور الشمس التي تصبغ الكون كله فإذا وقعت على الأجسام أظهرتها بمقدار ما فيها من استعداد وما هي فيه من وضع وشكل فهذه شجرة وهذه خضرة أو صفرة وذاك جدار والكل يتقبل نور الشمس على قدر ما له من استعداد ووضع، فلماذا لا ندرك كلام الله في قرآنه بأصوات وحروف حيث أنه وقع على كل شيء ومن ذلك أسماعنا فاستفادت على قدر ما لها من قابلية.

فلما مضت برهة طويلة وحضر الشيخ سيدي إدريس إلى الزاوية أمر غيلان بأن يطرق علي الباب ففتحته له وأنا مطمئن فلقد كنت في نفسي أشاهد كل شيء و لم يكن عندي فرق فالشيخ كان معي في ذلك العالم ثم ها هو نفسه، إلا أن نور الشمس ضايقني في أول الأمر والأرض أخذت تميد تحت قدمي والجدران تتكسر فكأن الكون ليس هو حقيقيا وإنما أشاهد صورته على صفحة من الماء الراكد جاء من هذه بانتظام فأخذت الأشياء أو صورها تتلوى في نظر الرائي بحسب تغير الموجات، ورغم أنني لم أكن في دهشة في نفسي لاحظت أن الشيخ وغيلان ينظران إلي نظرا غريبا فأخذت أبتسم دون أن أعير أي اهتمام ما هما فيه، فطفق الشيخ يحدثني بأن الخلوة تظهر فيها أشياء مرعبة فلم أفهم كلامه وربما سمعته سمعا خفيفا انفصم عني وقد وعيت ما قال ثم أمرني بالصلاة صلاة الظهر وكأنه يختبر إدراكي وهل طار عقلي من هول ما رأيت أم لا زلت أحس، فقمت وصليت خلفه وكل ما أشعر به هو أن الميدان في شيء من القلق يدفعني إلى أن أعود إلى خلوتي التي وجدت فيها قلبي فأمرني الشيخ بالانصراف إلى أهلنا وأظن أنه بعث أحد الفقراء يقفو أثري فلم أضل الطريق و لم أنسها إلا أنني كنت كالسكران أنظر إلى وجوه الناس فلا أراها على ما هي عليه وإنما أراها كما يرى الإنسان نفسه أو غيره في بيوت المرايا التي بعضها محدب وبعضها معقب وبعضها نصفه العلوي معقب ونصفه السفلي محدب إلى غير ذلك من الأشكال، حتى أنني لما دخلت بيتا من هذا النوع لأول مرة في حياتي في معرض كان أقيم بمدينة طنجة تذكرت كأن هذا شيء كنت أعرفه من ذي قبل، ثم أخذت صور الناس تختلف في نظري فبعضهم له صورة القمر وبعضهم صورة خترير على أنني لو سئلت عن أسمائهم لأجبت بأن هذا فلان وهذا فلان فقد كنت ذا إدراكات متناقضة متخالفة في الشيء الواحد، ولا أدري كيف وقع حتى رجعت إلى طبيعتي التي لم أفقدها و لم أتحسر عليها و لم تكن تفارقني وكل ما في الأمر هو أنني ازددت بصرا واطلاعا ولو وجهت نفسي إلى الرجل لعرفت ما يفكر فيه وما هو في قلبه، وليفهم القارئون ما أقول أمثل لهم بالرجل يمر على معروضات الدكاكين في الحي الإفرنجي فقد يمر سريعا فلا يرى شيئا من خلف الزجاج ولو وجه بصره لأدرك ما بداخلها من ملابس أو حلي أو أثاث أو ما شاء الله. وقد دخلت على جدتي وأمي فلم تلاحظا علي شيئا فزرتهما ثم قصدت مسجد سيدي بركة

فتوضأت وصليت فلم يزد الأمر إلا تقدما واطرادا، وإنني في كل ذلك أحمد الله وأشكره وأدعوه أن لا أكون مستدرجا بي ناقصا منه إلا به فما كانت هذه الأمور لتغريني بي بعد ما قرأت لكبار القوم من تفاصيل حالات النفس ومراحل الطريق ما لم أصل إلا إلى أقل قليل منه، فأين أنا من معراج الحاتمي وأين حالتي من حالته وقد بقي عدة سنوات مستغرقا في مقام من المقامات لا يشعر بما يأتيه من عمل و قد قدر في هذه الفترة أن يكون إماما في أحد المساجد فلما رجع إلى حسه سأل المؤذن عن عمله فأخبره بأنه كان تام الإدراك صحيح الشعور يلقي دروس العلم ويؤدي الصلوات في أوقاتها كأحسن ما يكون، فأجابه بقوله: الحمد لله الذي حفظ علينا جوارحنا وإنه سبحانه جزانا على حفظنا لقلوبنا بأن نظم شؤون جوارحنا.

وكان الشيخ رأى أن هذا القدر من الخلوة كاف لتذوق حياة المختلين التي لم يكن يختارها لأصحابه رغم كونه سار عن طريق المجاهدة والرياضة والخلوة.

بداية الأشراف الحراقيين في تطوان

سبب دخول بيت الحراق إلى تطوان هو أن السلطان المقدس مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله بن مولاي إسماعيل لما أمر بتجديد بناء الجامع الأعظم بتطوان وتم له ما أراد عزم على أن يملأه بالعلم والمعرفة فاختار لهذه الغاية الشيخ سيدي محمد بن عبد الواحد ، وكان أصل الحراق هذا من مدينة شفشاون فلما ترعرع وظهر فيه من النجابة والنبوغ ما لم يكن لكثير في عصره قصد مدينة فاس بقصد قراءة العلم، وكان وحيد والديه فلم يهن عليهما فراقه فرافقاه إلى فاس حيث توفيا بها وبقي هو مكبا على دراسة العلم وتعاطيه إلى أن أصبح مضرب الأمثال بين طلبة القرويين ثم أخذ في تعاطي التعليم. وعندما اقترح السلطان على شيخ الجماعة بفاس أن يبحث له عمن يعمر المسجد الجديد الكبير بتطوان أرشده إلى سيدي محمد الحراق. وفي النهاية بارح فاسا قاصدا تطوان وبها نفذ له السلطان دار الحراق الحالية بعد أن لم تبق دارا للأعشار حيث انتقل اليهود من الملاح البالي إلى الملاح الجديد، ولا يزال الحبل الغليظ الذي كان معلقا فيه الميزان موجودا بسقف مباح المقعد الصغير من الدار المذكورة حيث كان يجلس به الأمناء والكتاب. وقد أخذ ذكر سيدي محمد الحراق يعلو وصيته يشتهر إلى أن غار منه الذين جاء منافسا لهم ولكن حماية السلطان وقائد البلد عصمته من شرورهم، وكان يلقي دروس العلم بالجامع الأعظم ويخطب خطبة الجمعة بالمسجد الجامع من حارة العيون التي كان يرغب أهلها في أن يكون خطيبهم بها من نفس حارتهم ولكنهم لا يقدرون أن يعارضوا إرادة السلطان، فعمدوا إلى حيلة ليجعلوها حجة في إسقاط الحراق من وظيف خطبة الجمعة فلما كان يوم الجمعة والوقت وقت خطبة دخل الإمام

إلى المقصورة ليدخل منها إلى المسجد على العادة و لم يغلقها من خلفه، وقد أرصد له خصومه متتبعين لحركته بعضهم خارج المسجد وبعضهم داخله فلما رأى المراقبون من الداخل أن الإمام قد أخذ مستقره من المنبر أشاروا إلى مساعديهم فأمروا امرأة من الفاجرات كانوا قد زينوها واختاروها ففعلت ما أمروا به، ثم وقفوا على أبواب المسجد يجمعون الناس والكل دهش ساكت إلى أن اجتمع بباب المقصورة خلق كثير فإذ ذاك خرجت المرأة كأنها تتسلل لا علم لها بما وراء الباب فتهامس الناس في الأذان ثم شاعت القضية وأقام الناس بينة البينات شهد فيها أربعة وأربعون ومائة رجل. وكان الفقيه سيدي عبد الرحمن الحائك هو قاضي المدينة وكان يغار من الحراق الذي نازعه في المسجد الأعظم فلما جاء الشهود كتبوا رسمهم بذلك ودفعوه إلى عامل المدينة وهو وجهه إلى حضرة السلطان، فعرف مولاي سليمان أن هذه مناورة مفضوحة لأنه لا يتصور أن لا يختار الرجل العاقل لفجوره إلا مقصورة الجامع وفي وقت خطبة الجمعة ولكنه تنازل إلى عقلية الدهماء فأمر بأن يعزل الحراق من الإمامة والعدالة وبقي على خطته في التدريس، وكان له من الأنصار من دافعوا هذه الشبهة بكل حماس فكانت بمثابة إعلان ضخم كتب بالخط العريض عن الشيخ الحراق فكان هؤلاء الخصوم كمن يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وقد أدرك من بعد ذلك من النفوذ والشهرة ما اختفى معه من قصر باعه في العلم. وهذا العلامة سيدي أحمد بن عجيبة لما وضع تفسيره للقرآن الكريم المسمى بالبحر المديد أتى بنسخة منه إلى سيدي محمد الحراق ليقرظه فلما مرت فترة من الزمان رجع ابن عجيبة وسأل الحراق عن رأيه في الكتاب فقال له إن هذا عمل جيد ثم دفع له الكتاب دون تقريظ. وتوفي بعد ذلك ابن عجيبة ودار الزمان دورته حتى دخل الحراق في طريق القوم فإذ ذاك صارح أصحابه بهذه القصة وأخبرهم على أنه لم يفتح كتاب ابن عجيبة لأنه بلغه عنه أن سلك مسلك الإشارة فلم ير تأليفا من هذا النوع يستحق حتى الاطلاع على ما جاء فيه، ثم يقول الحراق وأما قولي إن هذا عمل جيد فقد قصدت به تسفير الكتاب فقد كان من العمل الجلدي الفاسي المزخرف بالذهب، فهذه كانت درجة الشيخ الحراق في تطوان و لم يكن يقنعه من العلماء إلا الفاسيون المحققون الذين كان يزورهم من حين لآخر. ثم يسدل التاريخ شيئا من الغموض على حياة الشيخ بعد هذا العصر ثم لا نجد له ذكرا

إلا بعد أن يدخل في طريق القوم وكل ما نعلمه عنه إنما هو بعد التصوف، ويمكن من التاريخ التقريبي أن نعرف وقت مجرى الحوادث فلقد حدثني سيدي إدريس الحراق أن جده توفي عن نحو 70 سنة وكان يقول عن نفسه ولعل هذا العمر هو الذي يكون نصيبي من الدنيا فكان الأمر قريبا مما قال، وذلك وإن لم يكن على سبيل التدقيق لا يخرج عن كون سيدي محمد الحراق لم يمت عن أقل من السبعين فلنجعل عمره حوالي (1271 — 1197) وتاريخ وفاته محقق، ولنـــعلم أيضا أن سلطنة مولاي سليمان كانت (1238 — 1206) وكان عمر مولاي العربي الدرقاوي نحو الثمانين سنة وتاريخ وفاته معروف فليكن عمره (1239 — 1159) وقد أدركنا الفقراء يذكرون أن صحبة الشيخ سيدي محمد الحراق لمولاي العربي الدرقاوي لم تزد عن ستة [ست] سنين(1233).

وإذن فهذه هي المعالم التي يمكن أن نرجع إليها في تاريخ الحوادث وأضف إليها أن الفراغ من إعادة بناء الجامع الكبير كان سنة 1223 هـــ فلنفرض إذا أن رحلة سيدي محمد الحراق مع أبويه إلى فاس كانت سنة 1215 وكان سنه إذ ذاك ثمان عشرة سنة، فإذا جعلنا مجيئه إلى تطوان كان سنة 1224 فإنه يكون دخلها ابن 26 سنة بعد أن درس تسع سنين وبقي على ذلك إلى أن كانت سنة 1233 ففيها دخل الطريق وعمره ستة وثلاثون عاما بعدها أصبح صوفيا عالما عاملا يتردد في مدن المغرب وقبائله بقصد الدعوة والإرشاد ثم يعود إلى تطوان التي استقر بها نهائيا، ولما سئل عن سبب حبه لتطوان أجاب بأنه وجد فيها ما لم يجده في غيرها فقيل له وماذا وجدته فيها؟ قال: وجدت أهلها في غنى عني لو أردت أن أستريح ما شئت الراحة لاستطعت ذلك. وكان الشيخ الأكبر سيدي محمد الحراق ناطقة عالية قلما قرأناها لأحد من كبار القوم وغزل رقيق يصل البعض منه إلى أعلى درجات البلاغة التي عرفها ذلك العهد والعصور قبله لا في المغرب ولكن في العالم العربي، والشيخ الحراق الأكبر هو الشاعر المغربي الذي يمكن للمغاربة أن يعدوه في أول من يعدون من شعرائهم ومفكريهم على الطريقة الصوفية التي لم يكن عليها إلا أفذاذ هذا الفن، وكل من قرأ ديوان شعره وكان على شيء من معرفة الصناعة يستطيع أن يفرق بين الشعر الذي كان ربما أنشده في زمان صباه والشعر الصقيل الرصين الذي لا يقوله إلا فحل من فحول اللغة العربية. وكان الشيخ الأكبر شيخ وحده قلما يجد من يفهمه فكان وهو يدرس التفسير بالمسجد

الأعظم يتعمق في بعض الأحيان ثم يلتفت وينادي قائلا: « هلموا لتسمعوا ما لا تعودون إلى سماعه »، وكان إذا اشتاق إلى من يفهمه فلم يجد أمامه إلا رجالا قصروا عنه شديد القصور يقول: « ارحموا هذا الغريب بين ظهران أهله » وقلما كان يجد رجلا جمع بين التصوف وأساليب العلم فيصارحه مصارحة كاملة في كل أفكاره على أنه كان شديد التحفظ. وكان إذا اشتاق إلى من يفهمه رحل إلى فاس موطن العلماء الذين كانوا يتذوقون معانيه فيعجبون به إعجابا لا حد له حتى أنه إذا وصل إلى فاس تسلى أغلبهم عن عمله ولازموه صباح مساء، فكان لا ينطق إلا من تحت عقله وكان يحترز أن يقول ما ينكره أهل الظاهر وكل ما صدر عنه من الحقائق الصوفية إنما هو الموجود في كتاباته وأشعاره وقصائده أما أن يتحدث بذلك فلا. وقد حدثني سيدي أحمد حلحول عن شيخه سيدي عبد السلام أجزول أن سيدي محمد بن الأحسن ــ على طول صحبته للشيخ ــ لم يسمع منه طول حياته إلا حقيقة واحدة، فقد كان معه في الجنان وكان الوقت وقت عنب فأقبل فقير بقراب مملوء من العنب فالتفت الشيخ سيدي محمد الحراق إلى سيدي محمد بن الأحسن وقال له: « العنب هو القراب والقراب هو العنب » قال ابن الأحسن فهذه هي الحقيقة الواحدة التي سمعتها من الشيخ سيدي محمد الحراق. ولقد حدثنا الشيخ سيدي إدريس عن سيدي المهدي ابن القاطي شارح تائية سيدي محمد الحراق أنه قال: « نمت ذات ليلة فرأيت في منامي قائلا يقول: قد أقبل الشيخ الحراق إلى فاس فكأنني ذهبت إلى زيارته فحادثني طويلا وكان من جملة ما قال لي: إن مقام الولاية يسبق مقام النبوة، ثم استيقظت صباحا وأنا أفكر في الرؤيا التي رأيتها فلما طلع النهار لقيت أحد إخواننا فذكر لي أن الشيخ قد وصل في هذا اليوم إلى فاس فذهبت لأزوره فإذا معه خلائق لا تحصى ما بين علماء ودهماء، فخنقتني العبرة وتقدمت أزور الشيخ ثم حدثته برؤياي التي جاءت كفلق الصبح فلما وصلت إلى قوله لي في المنام من أن مقام الولاية سابق لمقام النبوة التفت إلي وقال: إنني لا أقول بهذا، فتعجبت وانصرفت إلى حال سبيلي فلم يرعني بعد ذلك إلا رسول الشيخ يقول إنه يأذنك بزيارته فقمت فوجدته متفرغا ليس معه أحد فقال لي: يا ولدي لو قلت لك إن ما ذكرته عني صحيح سمع ذلك الناس وتأولوه على أقبح الوجوه فلا يلبث الأمر إلا قليلا حتى يشاع عني أنني أفضل الأولياء على الأنبياء فنفيت لك أن أكون من

القائلين بذلك القول بالصفة التي يحمله عليها من يحرفون الكلام عن مواضعه، أما وقد انفردنا فإن ما ذكرته لك مناما صحيح فإن الولاية تسبق النبوة في التاريخ لا في المكانة والرتبة فلا تنزل النبوة إلا على الأولياء وإلا فإن الذات العادية لا تستطيع أن تتحمل نور النبوة من أول وهلة» . قال ابن القاطي ثم إني استأذنته في شرح تائيته فأذن لي في ذلك فلما كان بعد ذلك أحضرت ما هيئته من شرحها وعرضته عليه فأخذ الكراس من يدي وقبض القلم وغمسه في المداد ثم أخذ يشطب إلى أن أنهى عمله، ثم قال لي إنني شطبت لك على ما بالشرح من إعراب وقواعد نحوية فإن للنحو موطنا آخر أما كلامنا فيقرؤه من لا يحتاج إلى إعراب وشرح المتن ينبغي ألا يفسد المشروح بشيء خارج عن الموضوع.

فهذه قصة تدل على ما كان عليه الشيخ من حذر وتفصيل بين المواطن فإن لكل مقام مقالا فللعلم لسان وإنما يختلطان إلى درجة الحاجة من الاختلاط فلذلك شطب على ما جاء في شرح التائية من نحو. ولقد زاره مرة في تطوان جماعة من علماء فاس أولاد بن سودة وغيرهم فلما كان يوم الجمعة مساء قصد الزاوية ومعه الضيوف الأعلام فرقى وإياهم إلى غرفة الزاوية وبقي الفقراء يذكرون الله ويقيمون حلقة الذكر في الزاوية، فلما أذن المؤذنون لصلاة العشاء قام إلى الصلاة فورا فصلى وصلى وراءه الضيوف وشعر بعض الفقراء بأن الشيخ يصلي فتسللوا وصلوا خلف الشيخ فلما سلم من صلاته وانتبه إلى من كان خلفه من الفقراء أمر بإحضار المقدم فأسر إليه بأن لا ينصرف الذين صلوا معه من الزاوية وليطل الفقراء المكث حتى يحدثهم بأمر هام، فلما انصرف الضيوف إلى الدار المعدة لهم جلس الشيخ إلى الفقراء فقال لهم: أتشكون في نصحنا لكم؟ إننا ما عرفناكم لوجه الله لكي نغشكم فلو رأيت أن صلاتكم معي خير لكم من حلقة الذكر التي أنتم فيها لأمرتكم بذلك ولهبطت وقمت فيكم إماما، أما ما فعلته مع ضيوفنا فإن أولئك أقوام إنما يعرفون طريق الشريعة ففعلت ما فعلته حذرا من أن يقولوا أو يظنوا سوءا أما أنتم فأمامكم وقت واسع وإنكم جماعة كثيرة عاكفون على نوع من أنواع العبادة خاشعون فيها خشوعا لا ينبغي أن تصرفوا عنه، والشيطان يقنع من المؤمن بأن يصرفه من عبادة هو فيها حاضر القلب إلى عبادة أخرى أما الذين

صلوا معنا فإن عليهم أن يكرموا.

وكان يعامل أصحابه برفق وتعفف وينظر إلى مصالحهم أكثر مما ينظرون فلقد كان ذات مرة يزور بعض القبائل فأتاه رجل بثور لا يملك غيره ووهبه إياه، فقال له الشيخ قد قبلناه منك ثم رددناه لك وخذ هذه الدراهم فاشتر بها ثورا آخر حتى إذا ورد عليك الضيف وجدت ما تقابله به. وكان إذا قرب عيد الأضحى اشترى كثيرا من الأضاحي لتوزع على المحتاجين من أتباعه من الفقراء، ففي سنة من السنين أتى أصحابه لاستلام ضحاياهم فأخذوها ونفدت الكباش فلم تبق إلا الجديان وبقي فقير بدون كبش ــ وعادة التطوانيين أن يقدموا في الضحية الكبش على الجدي إلى درجة أنهم يعتبرون التضحية بالجدي كلا تضحية ــ ولما رأى الشيخ أن الكباش قد نفدت أمر لصاحبنا بتيس من التيوس، فذهب به الرجل يسوقه إلى أهله فلما أدخله الدار قامت أهله مغاضبة وأقسمت له ليدفعن له الشيخ الكبش أو يضع السبحة في عنق التيس ويرده على صاحبه مع سبحته وكذلك كان الأمر فإن الشقي رجع بالتيس إلى أن وصل به إلى باب دار الشيخ فوضع السبحة في عنقه ودفعه ليدخل الدار، فقالت زيد الخير أو غيرها من خدم الدار يا سيدي قد دخل تيس وفي عنقه سبحة فعرف الشيخ الجدي الذي وهبه من قريب وعرف السبحة وكان يعرف من أخلاق الرجل ضعف عقيدته فابتسم ابتسامة وقال علي بفلان وبكبش أضحيتي الفلاني، فحضر الرجل خجلا فقال له الشيخ: لقد استقلتنا وما نحن بمقيلك اذهب إلى أهلك بهذا الكبش فهو خير مما ذهب به إخوانك الفقراء. وقد حدث مرة أن غاب عن اجتماع مهم فقيران أحدهما من الأغنياء الوجهاء والآخر من المساكين المتجردين فأمر الشيخ المقدم بأن يأخذ من الغني ــ عقابا على غيابه ــ بضعة دراهم ثم قال وأما فلان ففي أي مكان وجدتموه فجردوه من ملابسه كلها. فأما المثري فدفع ما فرض عليه وأما المسكين فإن الرسول أخبره بأن الشيخ أمره بتجريده فوقف في مكانه وأخذ يخلع ما عليه من الملابس إلى أن بقي في السراويل فأراد أن يحلها تنفيذا لأمر الشيخ على أتم الوجوه فمنعه الرسول من ذلك، فلما وصل الرسول على الزاوية وجد صاحبه الذي جرده في حلة جديدة فقام وعانقه وقال جزاك الله خيرا عني حيث أبلغتني رسالة الشيخ وإن الله قد عوضني خيرا من

ملابسي التي خرجت عنها لله يدا بيد، ثم سأل كبار الفقراء الشيخ عن حكمه على الثري بأداء بضعة دراهم وعلى المحتاج بملابسه وهي تقريبا كل ما يملك من حطام الدنيا فأجابهم بأن ما أخذ منهما على نسبة محبتهما للطريق. وسأله شريف مجذوب كان لا يدعو الشيخ إلا بسيدي أخي وكان قلما يفارق الشيخ في ظعن أو إقامة فقال له: يا سيدي أخي بالأمس في فاس عرض عليك فلان أراضي مزروعة بالزيتون تكفي قبيلة فرددتها عليه بعد أن قبلتها منه واليوم تجرد هذا المسكين من ملابسه ! فأجابه الشيخ يا فلان إن الذي رددنا عليه ما رددناه لم يقصد به وجه الله ويوشك إذا نزل به الفقر أن يقع في أعراضنا فيهلكه الله فرفقنا بدينه وعقيدته، أما من أخذنا ثيابه فسبيكة ذهب اعتراها شيء خفيف من الكدرة فمحوناها عنه بما رأيت ولصدقه فيما فعل عوض الله عليه ما فقد قبل أن تتم الساعة دورتها. وكان لا يدل إلا على تصفية القلب دون أن يأمر أصحابه بخرق العوائد ويقول: « دخلت من باب الفضل فلا أدل إلا عليه »، فكان أصحابه دون باقي المنتمين للطريقة الدرقاوية يلبسون ويتأنقون في ملبسهم وخصوصا يوم الجمعة حتى أن بعض من يتعاطون الحرف الشاقة من أصحابه كالبنائين والنجارين كانوا يتخذون ملابس خاصة ليوم الجمعة بيضاء نقية ومنهم من كان له كساء من القطن مصبن مكبرت مطيب يلبسه يوم الجمعة، أما العمل فقد كانوا لا يقومون به في هذا اليوم لأنه مملوء بالعبادة. وكان أصحاب مولاي العربي الدرقاوي ينتقدون على الشيخ سيدي محمد الحراق هذه الخطة لأنها تخالف ما هم عليه من التقشف، وقد عرض به يوما أحد فقراء مولاي العربي فقال له: يا سيدي محمد الحراق في أي وقت ذكرت الله؟ فأجابه الشيخ بقوله: ذكرته في الوقت الذي كنتم تشتغلون فيه بتنسيق المرقعات فتلفقون الأحمر إلى جنب الأزرق وتجمعون من كل ثوب وملبس. وقد أقام الفقراء في دار الشيخ ذات مرة حلقة الذكر فتواجد سيدي محمد الحصار (أحد وجهاء تطوان من أصحاب الشيخ المقربين إليه) ودخل وسط الحلقة وكان لابسا أحسن ملابس ذلك العصر فكان يلبس بدعيتين وجابدور وجوخة وسراويل من الملف من لون واحد وكل ذلك مطرز بالحرير الهندي وفوق كل ذلك كساء بزيوي وفي طوقه ساعة من الذهب سلسلتها من نفس المعدن، فعندما دخل الحلقة متواجدا سقط الكساء عن منكبيه وبقي متجردا في بذلته التي أصلها من ملابس أتراك القطر الجزائري

فأخذها عنهم التطوانيون بعد هجرة الجزائريين إلى تطوان عقب احتلال فرنسا للمغرب الأوسط وتواجد الحصار فخرجت الساعة الذهبية من جيبه تهتز باهتزازه ذات اليمين وذات الشمال، وكان الشيخ حاضرا كما كان حاضرا بعض المتقشفين من أصحاب مولاي العربي فعمد هذا المتقشف ودخل وسط الحلقة وأخرج منها الحصار وهو في تواجده وفهم الشيخ أن اقتحامه الحلقة عليه لم يكن له من سبب إلا كون الحصار لابسا أحسن اللباس، فلما سكن الناس ووقفت الحلقة التفت الشيخ إلى الحاضرين وهم بضع مئات فقال لهم: « اعلموا أن سيدي محمد الحصار ولي الله لا يضره أن يلبس الجوخة أو المرقعة فإذا كان في وسط الحلقة فلا يخرجه أحد ».

وكان مع شيخه مولاي العربي على جانب عظيم من الأدب لا يطمع طامع أن يلحقه في هذا الباب، ولنترك أصحاب الشيخ يحدثوننا عن العلاقة بين الشيخ الحراق والشيخ مولاي العربي فقد ذكروا أن سيدي محمد الحراق مرض مرضا شديدا فخطر في باله أن يتفرغ للعبادة فقال: « لئن عافاني الله لأدخلن في طريق القوم أناء الليل وأطراف النهار »، فقدر أن تم له الشفاء فجاء الطلبة يطلبون منه أن يقرأ معهم شيئا من علم الظاهر فقال لهم: إنني أريد أن أقرأ شيئا من كلام القوم فاقترحوا عليه الحكم العطائية فقال نعما هي فصار يدرسها مع طلبته بزاوية ابن الفقيه بالجنوي حيث كانت العلائق متوترة بينه وبين القاضي الحائك الذي كان يتضايق من وجوده بالجامع الكبير، فبينما الشيخ يدرس الحكم ذات يوم وحوله طلبته إذ دخل بعض الفقراء من أصحاب مولاي العربي فلما انتهى الدرس قاموا فسلموا عليه فسألهم عن سبب مجيئهم وفي أي وقت وصلوا، فذكروا أن الشيخ مولاي العربي أسرج دابة وقال لهم اتبعوها فحيثما سارت فكونوا في إثرها قالوا فما زالت سائرة من غمارة التي كان بها إذ ذاك مولاي العربي ورد إليها بقصد العزاء في تلميذه وخليله سيدي محمد البوزيدي إلى أن وقفت على هذه الزاوية، فقال الشيخ سيدي محمد الحراق: إن هذه إشارة من مولاي العربي بأن أتوجه إليه فاستعد الشيخ بعض الاستعداد ثم ركب البغلة التي وجهها مولاي العربي ولم يكلم أحدا في شأنها و[أوغل] السير إلى أن وصل إلى مكان قريب من المدشر الذي فيه الشيخ وكان هنالك عين ماء، فتقدم الشيخ الحراق وتوضأ وعاهد الله على أن يتبرأ

من علمه وعمله إلا ما يأتيه الله به على يد الشيخ مولاي العربي. قال سيدي محمد الحراق فيما بعد: « لم يكن لي علم بقضية الشاذلي و لم أكن أعرف أن هذا الوضوء حسا أو معنى من إشراط الدخول في طريق القوم ولكنه شيء ألهمنيه الله به »، ثم سار الشيخ وسبقه من يعلم مولاي العربي بوصول سيدي محمد الحراق. وكان مولاي العربي يتأدب مع أصحابه ويكرمهم ويعرف حقهم فقام لمقابلة الشيخ فلما وقعت عليه عين سيدي محمد الحراق هم بالنزول فناداه مولاي العربي أقسمت عليك بالله أن تظل راكبا فقد أركبناك ركوب الأبد، وبعد البر بقسم مولاي العربي ترجل سيدي محمد الحراق وعانق الشيخ في ملأ كبير من الناس الذين كانوا لا يزالون في عزاء البوزيدي والذين وردوا لزيارة الشيخ مولاي العربي ثم صار الجميع يذكرون الله إلى أن دخلوا إلى المكان المعد لهؤلاء الأفاضل، وبعد أن استقر القوم جالسين أخذ مولاي العربي قدحا من الصامت الحلو الخاثر فشرب منه ثم ناوله الشيخ سيدي محمد الحراق ثم لقنه الورد، وبمجرد ما اشتبكت الأيدي قال مولاي العربي لسيدي محمد الحراق اذكر وذكر و لم يأمره بلبس مرقعة ولا بذكر في الأسواق ولا بسؤال مما كان يأمر به مولاي العربي أصحابه الداخلين في طريق القوم على يده. وبعد أن انصرف سيدي محمد الحراق والتفت كبراء الأصحاب إلى مولاي العربي وقالوا له: غفر الله لك يا سيدي كم لنا في صحبتك من زمان ومع ذلك لم نصل منك إلى درجة الكرامة التي أكرمت بها الفقيه الحراق فقد دفعت له الأمانة مرة واحدة دون أن يتكلف لذلك أقل كلفة، فقال مولاي العربي: « إننا لم نزد سيدي محمد الحراق شيئا على كوننا أوقدنا فتيلته فقد جاء ومصباحه صاف نظيف وقد وضع في أسفله ماء نقيا وصب عليه زيتا يكاد يضيء من صفائه ووضع فيه فتيلة نقية لا تحتاج إلى تقويم ولا تهذيب ثم طلب منا أن نوقده له ففعلنا » (وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء)

وبعد أن فرغ سيدي محمد الحراق من مأموريته في أخذ الورد وذلك حوالي سنة 1233 استأذن الشيخ في الانصراف فإذن له في ذلك وقال له: اجعل طريقك على الشيخ مولانا عبد السلام وزره، فأجاب سيدي محمد الحراق بقوله: نعم يا سيدي سأفعل ذلك امتثالا لأمرك وإلا لو كان حيا لما زدته على سنة السلام لأننا قوم أغنانا الله بكم،

فعرف أصحاب مولاي العربي معنى إكرامه للحراق الشريف العالم الذي تجرد مرة واحدة على كل شيء فحقق بذلك ما أشار إليه هو في بعض رسائله إلى بعض فقراء الرباط حيث قال « مل إلى الله علانية يمل الله إليك علانية ». وكان الحراق يقول لأصحابه إذا قصد زيارة الشيخ مولاي العربي: لا تفعلوا معي أدبا بحضرة الشيخ وإنما أنا واحد منكم، وكان الأشياخ الكبار من أصحاب مولاي العربي إذا جاءوا لزيارته وحضروا الموسم ساقوا معهم الخيام والقباب، فإذا سأل مولاي العربي عنها قيل له تلك خيمة سيدي فلان وذلك مضرب سيدي فلان وأصحابه وربما كان لبعضهم من الأتباع والخدم ما ليس لزاوية شيخهم، أما سيدي محمد الحراق فكان يقلل من الأصحاب الذين يرافقونه للزيارة ثم يدخل قرية شيخه بباب ريح من قبيلة بني زروال ساكتا حتى يقال إن الفقيه قد وصل زائرا، ثم لم يضرب قبة ولا خيمة بل يترل حيث يأمر له به الشيخ ويقول لأصحابه اندمجوا في أصحاب مولاي العربي ولا يظهر لكم أثر، على أن مولاي العربي كان يحتفل لمقابلة أصحابه والكبراء منهم احتفالا لائقا فكان يوجه في وقت الموسم أصحابه إلى المسارب والطرقات يتجسسون أخبار الواردين فإذا ورد عليه البشير بأن سيدي فلانا وأصحابه وصلوا كان مولاي العربي يقوم في جمهرة من أصحابه ومعهم الطبالون والمزمرون يردون على الذاكرين من الفقراء حتى إذا تقابل الواردون والمرحبون بهم تقدم الجميع للسلام على مولاي العربي وأقيمت حلقة الذكر، ثم رجع الجميع يذكرون الله إلى أن يصلوا إلى الزاوية وإذ ذاك يقوم المكلفون بتقديم العلف والمؤن للزوار الذين يقدمون للشيخ ما ساقوه من هدايا ونذور، وكان على رأس من يحتفل منهم جماعة من الشيوخ الذين وصل بعضهم إلى درجة القطبية وبعضهم إلى الفردية كما كان سيدي محمد البوزيدي. وفي سنة من السنين أشرف مولاي العربي على بسيط من الأرض وكله قباب عالية وكلما سأل عن قبة من القباب قيل له هي لسيدي فلان فأخذ لون الشيخ يتغير ورجع إلى البيت ثم قال إيتوني بحائك، فأتي به فطواه عدة طيات ثم جلس عليه فلم يحل الحول وأحد من أولئك الرجال أصحاب القباب يعيش على وجه الدنيا رحمهم الله ورضي عنهم. أما سيدي محمد الحراق فلم تكن له قبة يغار منها الشيخ وقد حدث مرة في موسم أن اختلف أصحاب مولاي العربي في شأن بهيمة ذبحت أشيع أنها مغلصمة فأقبل مقدم الزاوية على الشيخ مولاي

العربي وذكر له المسألة فقال له: اسألوا عنها سيدي محمد الحراق فإنه أعلم من حضر الموسم، فذهب المقدم إلى سيدي محمد الحراق وذكر له ما قاله الشيخ فقال الحراق: ارجع إلى الشيخ وقل له إن الحراق كان عارفا قبل أن يصل إلى أبوابكم أما بعد ذلك فإنه أجهل الجاهلين وإن لكم من المعرفة بالله ما يغيب فيه علم الحراق كما يغيب نور النجوم إذا طلعت الشمس، فرجع المقدم وأخبر الشيخ بذلك فالتفت إلى أصحابه وقال: انظروا إلى الحراق يعلمكم الأدب أيها المقدم اذهب فإن قال لكم سيدي محمد الحراق كولوا فكولوا وإن قال اطرحوها فافعلوا ما يقول لكم.

وكانت الطريقة الدرقاوية مضطهدة في تطوان لا يستطيع أحد أن ينتمي إليها وقد أوذي أصحابها أذى شديدا وإن في فهرسة سيدي أحمد ابن عجيبة بيانا لما كان عليه أصحاب هذه الطريقة من الاضطهاد، فلما انضم إليها الشيخ الحراق فتر عنها بعض ما كانت فيه من الشدة نظرا لما كان عليه سيدي محمد الحراق من العلم والجاه وكرم الأخلاق سيما وأنه قد عدل كثيرا مما كان يكثر النقد حوله، فترك لفقرائه أن يسألوا ورباهم على متابعة الشريعة حسبما وردت به النصوص وأزال عن الطريقة سمة التقشف وسار بها كما يقتضيه طبعه الرقيق، وكان ذا نفوذ في الدوائر الحكومية حتى كان باشا تطوان الحاج محمد أشعاش الكبير لا يكاد يقطع أمرا دون مشاورته، ولم يكن الشيخ سيدي محمد الحراق ليسير مع الباشا سيرة من يجعله يجفل من النصيحة بل كان يعامله معاملة اللين والأخذ بالحسنى إذا خاف عليه أن يتنصل من الشريعة ويعمل ما يمليه طبع الاستبداد الذي كان منتشرا في ذلك العهد بحيث كان باشا تطوان يفعل في المقاطعات ما شاء وأراد، ومن جملة هذه الملاطفة أن أشعاش أمر بضرب رجل بالسياط فضرب حتى مات فأرسل الباشا من وراء الشيخ الحراق وسأله ماذا عليه في قتل هذا الرجل فسأله الشيخ عن العمل الذي استوجب به الرجل العقاب، فذكر الباشا فظائع منها قتل النفس وسائر الموبقات ثم قال الباشا إنني لم أكن راغبا في قتله ولكن عمره قد حان وأخشى أن يكون علي حرج فيما فعلته، فقال الشيخ: إنك قد اجتهدت ورفعت الأذى عن المسلمين أما الهالك فإنما يبعثه الله مع الفئران والقطط فابتسم الباشا وسري عنه. وبعد أن فصل الشيخ الحراق عن المجلس سأله صاحبه وخليله سيدي محمد بن

الأحسن فقال: يا سيدي لقد سمعت منك عجبا فقد سمعت أن الرجل سيبعث مع الحيوانات، فقال له الشيخ: لو قلنا للباشا إنك من الظالمين لما ردعه قولنا عن ظلمه بل كان يزداد ظلما إلى ظلمه وشرا إلى شره ولكننا فتحنا له باب الأمل لئلا ييأس من رحمة الله فيكون شره أعظم على المسلمين، أما الرجل الهالك فعلمه عند الله فهو أدرى في أي زمرة يبعثه وأما قولي إنه يبعث مع الفئران والقطط فإن الله يبعث النفوس جميعا مع بعضها. وقد كان الشيخ في أحد مجالسه يذكر أكل الحرام وما ورد فيه وينهى من أن يذوق الناس طعام الظالمين الذين يأكلون أموال الناس بغير حق وكان ابن الأحسن لا يفارق الشيخ إلا قليلا فسمعه يقول ما قال، ثم بعد أيام استدعى باشا المدينة أشعاش الشيخ الحراق لإكرام عنده فحضره وكان في صحبته سيدي محمد بن الأحسن، فلما حضر وقت شرب الشاي امتنع ابن الأحسن عن شربه وعن أكل الحلواء التي قدمت معه فلما حضر الطعام كذلك امتنع من الأكل أما سيدي محمد الحراق فإنه شرب الشاي وأكل حتى رضي الباشا، فلما خرج التفت الشيخ إلى ابن الأحسن وقال له: لقد لاحظت أنك لم تشرب ولم تأكل ونعم ما فعلت أما أنا فكان لا بد لي من أن أفعل لأن ذلك سبب في ترضية العامل وإن ترضيته تترك لنا جاها عنده فنستطيع بهذه الأكلة أن نرفع الظلم عن نفوس لا تحصى من الضعفاء، على أنني أعتقد أن لدى العامل قسطا من بيت مال المسلمين ولنا فيه آل البيت نصيب مفروض أباحه الله لنا فأكلت من نصيبي ثم إنني سأتصدق بثمن ما شربت وما أكلت وأتوب إلى الله. وبهذه الأساليب الحكيمة كان العامل لا يقطع أمرا إلا بمشورة الشيخ وقد حدث مرة أن أحد الفقراء من أصحاب مولاي العربي سمع بعض إخوانه يتذاكرون في قضية وحدة الوجود على طريقة الصوفية في ذلك فاستولت عليه الفكرة وخرج فوضع الريش في عمامته واجتمع حوله الناس فصعد أحد الدرج وقال (أنا ربكم الأعلى) فأخذ الناس يرشقونه بالحجارة وذاع الخبر، فأرسل العامل وراء هذا الفقير وأودعه السجن ثم اجتمع من بالمدينة من العلماء وقصدوا دار الباشا وأخذوا يتكلمون في العقاب الذي يستحقه قائل هذه الكلمة فاتفقوا على أنها كفر وردة وحكمها القتل، ثم قال الباشا ما ينبغي لنا أن نقطع أمرا دون حضور سيدي محمد الحراق فبعث من ورائه وكان قد وصل الخبر إلى الشيخ بما قاله الرجل، وعرف الشيخ أن الرجل حمله الجهل بتأويل كلام القوم على أن قال ما

قال فأوقعه الطيش والجهالة في موقف حرج، فركب الشيخ دابته ــ وكان قلما يسير على قدميه ــ ثم قصد المشور وجعل طريقه على السجن وهنالك هبط عن ظهر دابته وقصد الرجل السجين فأطل عليه من الشباك الحديدي وسأله عن حالته هذه فتذبذب الرجل وأصابه خوف ورعب ولاسيما مع الأنباء التي تصله من الائتمار بقتله، فقال له الشيخ: إن الباشا أرسل من ورائي ولا داعي لذلك إلا قصتك وإنني سأجد عنده الفقهاء فلا يسعني إلا أن أحكم بحكمهم في قتلك لأن ظاهر الشرع يوجب ذلك ولكن الخلاص ممكن فإنني سأحمل القوم على أن تحضر في المجلس بقصد التحقيق معك فإذا دخلت علينا فارفع صوتك بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إني تائب إلى الله ثم ودعه وانصرف، فوجد مجلس عامل المدينة غاصا بأهله فقاموا مرحبين بالشيخ ثم دار الحديث حول مسألة الفقير فقال الشيخ: علينا أن نسمع كلامه أولا فإن دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ليس البت فيها بالأمر الهين، فلما حضر الرجل صاح بكلمتي الشهادة وأعلن التوبة فلما سئل لم يزد على أنه لم يدر كيف صدر ما صدر عنه إلا أن يكون مسا من الجن وانتهت القصة على هذه الصورة. وهكذا كان تصرفه دائما بحكمة واتزان وبهذه الخطة المتينة كان يدافع عن الفقراء المنتمين إلى التصوف.

وقبل أن يبني الزاوية كان يكتفي بأن يحضر هو وأصحابه ويجتمعوا في المسجد الأعظم وهناك كان يذكرهم ويرشدهم وكان يحضر بمجلسه كثير من أهل الدين والورع سواء كانوا آخذين عنه أم لا، وقد طاب المجلس ذات يوم وانتشى الحاضرون من أثر ما يسمعونه من الشيخ من الأسرار الجديدة التي كان يفتح الله عليه بها فقام بعض الحاضرين يتواجدون، وكان القاضي الحائك بالمقصورة من الجامع الكبير فلما سمع حس الذكر والرقص قبض في يده عصا الخطيب وخرج مرتاعا قاصدا للحلقة فطفق يضرب الفقراء وهم يرقصون، فغضب الشيخ الحراق وأمر أصحابه بالانصراف إلى الدار فلما اجتمعوا قال لهم: « من كان منكم ملصقا بالعجين فليسقط »، ثم ترك الشيخ الموضوع الذي كان يدرسه من التفسير وطفق من الغد يفسر قول الله تعالى: « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها » فذكر في ذلك أسرارا عظيمة وحمل على القاضي ضمنا حملة شعواء واستمر في تفسير هذه الآية بضعة

أسابيع والناس يتواردون من كل جهة ليسمعوا قول الشيخ ويروا ماذا يفعله القاضي، فتزعزع القاضي عن موقفه وتحمل التهجم عليه حيث أبى من الانتصار. ومن هذا يظهر أن الشيخ الحراق لم يعرض كل الإعراض عن الدرس بعد أن دخل في طريق القوم بل إنه واصل درس التفسير وقد أدركناهم يقولون: إن الشيخ سيدي محمد الحراق آخر من درس التفسير بتطوان على طريقة المفسرين. وبينما هو ذات يوم يقرر معنى آية من كتاب الله إذ تصدع الكرسي من تحته فتلا الشيخ « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله »، وبقي الكرسي دون تغيير حتى كان وقت إمامة ونظارة الفقيه العلامة سيدي أحمد السلاوي فقال له الناس لو غيرنا هذا الكرسي فقال إن هذا الكرسي تصدع من خشية الله وإذا كان ولا بد فليبطن باللوح، ولا زال الكرسي إلى يومنا هذا بالجامع الكبير وكلما نخر خشبه بطن بخشب جديد وهو الكرسي الذي كان يدرس عليه الشيخ سيدي محمد الحراق تفسير كتاب الله عز وجل.
ثم إن الشيخ الحراق فهم عن الله فلو كان مراده تعالى أن لا يتخذ الحراق زاوية لما سلط عليه القاضي يجعل الفقراء ينفرون من بيت الله خشية الأذى فتعلقت همة الحراق باتخاذ زاوية يجتمع فيها الفقراء للذكر والمذاكرة دون أن يكدر عليهم وقتهم أحد، فأخذ يتخير الأمكنة الصالحة لإقامة الزاوية وكان أولا يهتم بأن يقيمها في روض قرب الدار هو الذي بنى فيه الحاج العربي بن المهدي بنونة دار سكناه ثم انتقلت بعد وفاته إلى سيدي أحمد بن عبود، فقد كانت هنالك عرصة يتسع فيها الشيخ الحراق وبها كان يذبح الذبائح ويترل الواردون فارتأى الشيخ أن يبني هنالك زاوية ثم استخار الله في ذلك وطلب منه سبحانه أن يهديه إلى المكان المناسب فكشف الله له عن عمود من النور قائم من الأرض ثم ارتفع إلى السماء فأخذ يتبع ذلك العمود إما بالهمة والفكر والإرادة وإما بالقدم والسعي فإذا بالعمود يصعد من أسس الزاوية الحالية تجاه باب المقابر من تطوان وكانت هناك خربات، فأخبر أصحابه بما كشف له من شأن الزاوية فتصدى رجل من أُصحابه يقال له توكورت ـــ وهو مدفون إلى جنب الشيخ سيدي محمد الحراق والقبة الخشبية فوق قبريهما معا ـــ وذكر للشيخ أن له أموالا من الحلال الخالص يريد إنفاقها في وجوه الخير التي على رأسها بناء بيت لتقام فيه الصلوات ويذكر فيه اسم الله كثيرا، فقبل منه الشيخ ذلك فبنيت الزاوية الحراقية بناها توكورت رحمه

الله.

وكان الشيخ سيدي محمد الحراق شديد التعظيم لآل البيت ولأصحابه ولكل من له مزية ويحكى عنه من الأدب مع أصحابه الشيء كثير، وقال أصدق أصدقائه وأحب أصحابه إليه وأعلاهم عنده سيدي محمد بن الأحسن هذا الرجل الغريب الأطوار الذي لم تعرف الشدة والقسوة سبيلا إلى قلبه حتى أنه كان له دكان يتجر فيه وكان فيه سكر وسمن وغيرهما، فكانت الفئران تجتمع في الدكان فينصب لها ابن الأحسن المصائد التي يسهل على الفأر الدخول إليها ثم يتعذر عليه الخروج منها لأن أفواهها متسعة من الخارج ضيقة وشائكة من الداخل، فإذا أصبح الصباح وجاء ابن الأحسن إلى الدكان وكان دكانه مرتفعا عن الأرض بنحو متر وبابه يقسم إلى قسمين أحدهما يفتح إلى أعلى فيكون شبه مظلة على الباب مسندة بعصا والقسم الثاني مرسل مع الارتفاع الذي بين الأرض وأرضية الحانوت ووجد كلبا نائما تحت حانوته وقف ينتظر إلى أن يستيقظ الكلب فينصرف لحال سبيله في غير عنف ولا قلق، أما إذا استمر الكلب نائما بباب الدكان فإن ابن الأحسن يستمر في انتظاره حتى لا يزعجه ولا يقلقه. وكان لابن الأحسن جار يرى هذا السلوك من جاره فيتضايق منه ويعمد إلى نكايته وابن الأحسن لا ينكيه أن يشتم أو أن يضرب ولا يكاد يرفع بصره من الأرض من شدة الحياء، فكان الرجل لا يجد طريقا أيسر إلى إغاضة ابن الأحسن من أنه كان إذا وجد الكلب نائما في مسقط لشق الباب الأسفل اقترب من الباب في رفق وفك عنه الأغلاق ثم تركه يسقط سقطة قاسية على ظهر الكلب الذي يفاجأ بالصدمة فيقوم عاويا مولولا، فيتضجر ابن الأحسن ويستفظع الأمر ويقوم يعالج الكلب ويدلكه حتى يرضى، ثم إذا فتح ابن الأحسن الباب باب الدكان ووجد الفئران في المصائد مقفصة قبض القفص في رفق ثم صار يتأمل في خلقة الفأر ويسبح الله ويكبره، وإذا كان معه رفيق قال له: انظر إلى عين هذا الفأر كيف تبرق من الفزع وربما كانت أنثى تركت أولادها ثم يلتفت إلى الفأر يخاطبه بقوله ألا تدري أن السكر لا زال بالدين وأن الزيت إذا وقعت فيه أفسدته ثم يعدد عليه جناياته وبعد أن يعظه عسى أن لا يعود إلى التعرض للمأكولات يفتح باب المصيدة فينصرف الفأر إلى حال سبيله. وما سأل أحد ابن الأحسن شيئا فقال لا

إلا أن يكون حراما وكان مشهورا بهذه الأخلاق الكريمة وهو مع ذلك صاحب سكينة ووقار ونظافة كاملة وعلم واسع واطلاع قلما يوجد إلا عند الخواص، وكان الناس يقصدونه للشفاعات فيشفع لهم ويتحمل عنهم ما يطيق أداءه من المال وقد طلبه أحد الناس في أن يضمنه في مال فلم يمتنع لأنه لا يمتنع عن خير أبدا، فذهب معه إلى القاضي وكان القاضي يعرف أن المضمون شخص لدود وإنما رغبته في أن يتنصل من المسؤولية ويلقيها على كاهل غيره وحيث أنه لم يجد من يكفله لما اشتهر به من اللدد فإنه قصد ابن الأحسن الذي لا يرد طلبا، فلما دخل وإياه على القاضي قال القاضي للمطلوب إنني لا أقبل في الضمانة شخصا لا يفرق بين السجن والدار فابن الأحسن سواء كان في بيته أو في السجن فحالته دائمة. وكان الفقراء إذا غاضبهم الشيخ سيدي محمد الحراق قصدوا سيدي محمد بن الأحسن وحدث أن الشيخ تخاصم مع بعض الشرفاء من أصحابه ثم ندم الشريف على ما صدر منه من مخالفة الشيخ فقصد ابن الأحسن كي يسترضي الشيخ ويطيب خاطره، فقام ابن الأحسن في وقاره وقصد دار الشيخ ووقف بين يديه واجما فسأله الشيخ عن حاجته وكان يعرف أحواله فقال له: يا سيدي لقد جئتك مستشفعا في سيدي فلان، فأصاب الشيخ حال عظيم وقال له: أنت تتشفع في سيدي فلان والله لأقبلن الأقدام التي جاءت تتشفع في بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحير ابن الأحسن في أمره ولم يدر كيف يفعل ليتخلص من هذه الورطة فكيف يتصور أن الشيخ سيدي محمد الحراق على جلالة قدره يهوي إلى قدمي ابن الأحسن يقبلها ولكن الشيخ أقسم ولا بد أن يبر بيمينه، وهكذا انحنى الشيخ الحراق وقبل قدمي ابن الأحسن اللتين جاءتا تشفعان في شريف منحدر عن بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ ابن الأحسن فيما يفعل في أمره فدخل الدار مسرعا وكان يسكن على مقربة من الشيخ في الدويرة التي عن يسار الداخل إلى دار الحراق وقد وهبها الشيخ لابن الأحسن حيث كان لا يستغني عنه فأسكنه بمقربة منه، ثم إن ابن الأحسن غسل رجليه وطيبهما ولفهما في ثياب نظيفة وقعد على السرير فقال له أهله ما هذا الذي أنت فيه؟ فقال: لقد حدث أمر عظيم ما أنا له بمطيق فلقد قبل الشيخ قدمي وما ينبغي لي أن أعود إلى المشي عليهما وقد بلغ من شأنهما أن الشيخ قبلهما، وبلغ الخبر الشيخ وهو الذي في يده دواء هذه الحالة وعلاجها فقام الشيخ بزيارة ابن الأحسن في داره

فلما دخل عليه الغرفة كان لا بد لابن الأحسن أن يقابل الشيخ فترك رجليه ملفوفتين وقدم يديه ورأسه في الهبوط من السرير احتفاظا بفكرته في أن لا يعود إلى المشي على قدميه، فأخذ الشيخ يفهمه أن المشي في حاجة الإخوان وقضاء حوائج المؤمنين أفضل على كل حال من الاستقرار الذي لا فائدة فيه رغما عن نبل القصد في ذلك فلم يسعه إلا امتثال أوامر الشيخ. وقد حدثنا الشيخ سيدي إدريس الحراق عن شيخه سيدي الحاج عبد القادر ابن عجيبة أنه حدثه فقال: « لقد قصدت زيارة الشيخ سيدي محمد الحراق فلما دخلت عليه قام ولف كساءه وأمرني بأن أجلس عليه فتأولت هذه الكرامة من جدك لي بتربيتك بعد أن أخذت عنا العهد، ولقد كانت نفسي تنازعني وأتردد هل آخذ الطريق عن جدك أم عن سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن فجذبني جدك من أمام وجذبني سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن من خلف وكان التجريد أحب إلي فأخذت عن ابن عبد المؤمن ».

والعارف بمذهب سيدي محمد الحراق لا يبقى عنده شك في أنه لم يبسط رداءه لابن عجيبة إلا احتراما لأبيه ولبنيه ومكانته من التقوى والعلم فتلك الشنشنة التي نعرفها من أخزم. وقد كان الشيخ شديد التعظيم لتلميذه سيدي الخضر الشجعي وإن الشيخ كان ذات مرة بفاس فكانت تتوارد عليه الوفود فيقابلها بكرمه وأخلاقه الطيبة، وهؤلاء الكرماء تمر بهم أوقات صعبة ويعانون أزمات شديدة فأصبح الشيخ ذات يوم لا يملك درهما ولا دينارا في الزاوية ينتظر ماذا يرى من صنع الله ولطفه، وقبل ذلك بأيام معدودة كان سيدي الخضر الشجعي أخذ عنه الورد وكان لا يزال يتعاطى طلب العلم فبينما الشيخ بالزاوية إذ أقبل سيدي الخضر وبيده صرة من مال فدفعها إلى الشيخ وقال له: يا سيدي لقد بعت الكتب التي كنت أقرأ فيها وبعت كل ما تملكه يدي لأتفرغ للأخذ عنك وهذا ما تحصل في بيع ذلك، فلما حضر الفقراء قال الشيخ: لقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة في أقواله وأفعاله وتقريراته وقد قال حينما جاءه أبو بكر بماله كله ما نفعني مال غير مال أبي بكر وإن رسول الله لم يقل ذلك إلا تعليما لنا وإني أقول: ما نفعني مال غير مال الخضر، ثم كشف الشيخ عن ذراعه وفك أزرار الغلالة إلى أن بدا شعر زنده فقال: إن كل شعرة مني تقول يا ليتها

كانت في الخضر وإنني لم أصل إلى كعبه، ولقد كانت فراسة الشيخ صادقة في سيدي الخضر الشجعي فلقد أظهر من القوة في جانب الله ما لم يكن إلا للفحول وبلغ من محبته للشيخ ولآل البيت أنه كان ذات مرة بأشجع خارج فاس فسمع الأصوات مرتفعة بالذكر فسأل، فقيل له إن مولاي الحسين ابن الشيخ سيدي محمد الحراق قد ورد زائرا فقال: أوصل مولاي الحسين؟ فقالوا نعم، فقال اذبحوا فذبحوا بقرة ثم كرر السؤال وكلما أجابوه بقولهم نعم قال اذبحوا فلا يسعهم إلا أن يمتثلوا أوامر الشيخ إلى أن كاد يفني البقر والغنم، فلما دخل مولاي الحسين قال له ما هذا فإن في بعضه الكفاية فقال له لو تأخرت قليلا لما وجدت منها حيوانا حيا وإن ورود مولاي الحسين ابن الشيخ سيدي محمد الحراق علي لا تعوضه الدنيا بما فيها، ثم حمل نفسه سيدي الخضر على أن يسيح مع مولاي الحسين فكان كلما قيل في قبيلة من القبائل إن مولاي الحسين الحراق قد وصل وفي ركابه سيدي الخضر خشع الناس وأخذوا يقدمون ما تصل إليهم مقدوراتهم من الهدايا حتى تجمع من خصوص الخلاخيل والأقراط والأساور الفضية ما بلغ وقر دابة ثم قفل مولاي الحسين إلى فاس بعد أن ترك عائلته وعائلة أبيه في تطوان لا تملك شروى نقير، وكانت دار الشيخ مكتظة بأهلها لا يدري كم عدد النسمات التي يعولها مولاي الحسين زيادة على واجبات الزاوية وقد قال لمولاي الحسين يوما ما أحد وجهاء تطوان يا مولاي الحسين اذكر لي عدد أفراد عائلتك لأبعث إليهم ببعض الملابس، فطفق يذكر له الأسماء والرجل يكتب إلى أن أعياه العد فقال له على سبيل المداعبة: يا مولانا لعلك ظننت أنني طلبت منك أسماء الخلائق الموجودة بالغرسة الكبيرة (سوق بتطوان)، وكان سيدي الخضر يعرف ذلك فحسب بهذه السياحة أن الحالة تتسع على دار الشيخ ولكن مولاي الحسين نسي كل شيء واتصل به لفيف من الطماعين بفاس فحملوه على الزواج ــ وكان كثيرا ما يتزوج ــ فأخذ ينفق ذات اليمين وذات الشمال إلى أن كاد يأتي على ذلك كله دون أن تستفيد منه دار الشيخ بتطوان، فأقبل سيدي الخضر الشجعي إلى فاس وذهب مولاي الحسين لزيارته فلما دخل عليه قال له: يا مولاي الحسين ذكروا لي أنك تزوجت والله إن زوجكما[1] لعديم الحياء ثم أمره بالقفول إلى تطوان، فهذه كانت حالة سيدي الخضر الذي قال الشيخ

(1) لعل الصواب زواجك أو بالأحرى وجهك.

سيدي محمد الحراق في حقه إن كل شعرة مني تتمنى أن لو كانت في الخضر. وبلغ من تعظيم سيدي محمد الحراق لأصحابه أنه كان يمضي ما أمضوه فلقد كان إذا هم بالسياحة والخروج من تطوان لا يقيم ليالي ذكر للفقراء ثم يصعد نساء الشيخ إلى سطح الدار يودعن جاراتهن مع أنهن لا يسافرن بل يبقين في الدار، ولكن ما دام الشيخ غائبا عن المدينة فإن الذي يبقى مفوضا في شؤون الدار ومن ها هو سيدي محمد ابن الأحسن إذا لم يرافق الشيخ في سياحته، وابن الأحسن على ما عرف من حلمه ووقاره وتواضعه لم يكن يعرف التساهل في الواجب فقد كان يأمر بأن يغلق باب السطح بالمفتاح فلا سبيل إلى فتحه قبل أن يرد الشيخ من وجهته ويأمر بأن يغلق باب الدار كذلك أيضا، وحيث أن نسوة الشيخ لم يبق لهن طمع في رؤية جيرانهن كن يودعنهن إلى أجل غير محدود وما بينهن وبينهن إلا شقة الجدار ولكن لا سبيل إلى تجاوزها. وكان لإحدى زوجات الشيخ سيدي محمد الحراق دالة على زوجها فأحرى على من هو دونه فسافر الشيخ ذات مرة فهمت بالخروج لزيارة بعض أقاربها فمنعها ابن الأحسن فأصرت على أن تخرج، فقال لها لك أن تخرجي ولكن لا سبيل إلى رجوعك للدار قبل رجوع الشيخ فحسبت أن ذلك منه تهديدا لها فحسب خصوصا لما تعرفه من حب زوجها لها، وخرجت المرأة فلما فرغت من زيارتها لأقاربها عادت إلى الدار فإذا هي مغلقة وإذا بابن الأحسن يمنعها منعا صارما لا هوادة فيه فاضطرت إلى العودة لدار أبيها وبقيت بها إلى أن رجع الشيخ من رحلته، فلما بلغه النبأ قال: ما كنا لندخل من أخرجها ابن الأحسن ثم أرسل لها برسم الطلاق. وتزوج ذات مرة سيدي محمد المكي ـــ أحد أعيان أصحاب الشيخ الحراق وكان الشيخ آخى بينه وبين ابن الأحسن رغم ما كان بينهما من اختلاف في الطبع فقد كان ابن الأحسن رجلا حليما وكان سيدي محمد المكي رجلا قويا حاد المزاج ـــ وكان يلازم الشيخ، فلما تزوج حدث أن أبطأ عن الشيخ بعض البطاء فلما ورد عليه قال له الشيخ يمازحه: لقد شغلتك الزوجة عنا، فلم يتردد سيدي محمد المكي في الجواب ولم يتلعثم في الخطاب بل إنه أجاب على البداهة بأن زوجته طالق ثلاثا فلا خير في شيء يشغل عن خدمة الشيخ فلامه الشيخ الحراق على هذا التسرع وأنبأه بأن الأمر لم يكن يتجاوز دائرة المزاح واستغفر الله واسترجع ولكن المكي في عزمه لم يندم ولم يتأسف، وكان أصل المكي من قبيلة الحوز من بني سالم منها

وبنو سالم كانوا أنصارا للشيخ قبل أخذه للطريق وبعدها فقد كان زعيمهم وكبيرهم سيدي محمد الخلنجي اليدري الأصل من طلبة الشيخ الحراق فلما دخل الطريق تابعه على رأيه الجديد، وكانت الزوجة التي طلقها سيدي محمد المكي من بنات أحد أعيان بني سالم فلما انقضت عدتها تزوجها الشيخ ترضية لخاطرها وخاطر قومها. وكان سيدي محمد المكي يبرم الأمر فلا يرده الشيخ وربما رجع الشيخ إلى رأيه وحدث مرة أن رجلا تعرض للشيخ سيدي محمد الحراق وهو راكب على بغله فقال له يا سيدي أعطني هذا البغل، فترل عنه الشيخ في الحال وأخذ الرجل بمقوده فلقيه وهو فرح مستبشر سيدي محمد المكي فقال له: إلى أين أنت ذاهب بهذا البغل فقال له: إن الشيخ أعطاني إياه فانتزعه منه المكي وقال له: ليس للشيخ ما يعطيه، فذهب الرجل إلى الشيخ وأخبره الخبر فقال له الشيخ: لقد صدق المكي فليس لمحمد الحراق ما يعطيه فهلا قلت له هو من فضل الله الذي أنعم به علي. وحدث مرة أخرى أن رجلا قال للشيخ أعطني هذا البغل لوجه الله فأجابه بقوله: هو راكبه وهذه قولة صارت عن الشيخ في حال الشهود والفناء. وكان الشيخ كثير الاستغراق رغم تشبثه واستمساكه بحبل الشريعة المتين وقد أجاد في التعبير عن نفسه في قوله:

من رآنـــي ثابتـــا في حيرتي ظنني وسنــــــــان

واتفق أن عامل المدينة قبض على بعض الفقراء فلما بلغ الخبر الشيخ وهو بالزاوية قام وتبعه الفقراء فسار لا يلوي على شيء حتى كان بباب حمام السوق الفوقي فعندها وقف كمن صحا من سكره والتفت إلى من معه من الفقراء فقال لهم: إلى أين نحن ذاهبون؟ فأجابوه إلى الله فقال إنه سيهدينا سيروا بنا على بركة الله للشفاعة في فلان فلم يعودوا إلا وهو في صحبتهم. وكان الحراق كثير الفهم عن الله فقد هم ذات مرة بالسياحة وهيأ كل شيء وشدت الأحمال وحضر الناس للوداع والدواب مسرجة وكل شيء تام، فإذا بالشيخ سمع امرأة تقول: إنها لم تختمر تجيب صبي الفران عن الخبز فقال الشيخ لأصحابه اسمعوا ما قيل لكم إنها لم تختمر ولم يصل أوانها ثم أمر بإنزال الأحمال وفسخ الأوقار ولم يتحرك إلا بعد أن حصل له الإذن في السفر. ومرة أخرى بينما كان كل شيء قد تم وإذا بطفل صغير قد أخذ بثياب الشيخ وقال له يا عمي الشريف لا

تسافر وامكث معنا فقال له الشيخ حبا وكرامة وأخبر أصحابه بأن الرحلة قد تأجل وقتها إلى أجل غير مسمى، وسمع صوت طفل يبكي وكان بمحضره جماعة من الفقراء فقال رحمة الله على مولاي العربي الدرقاوي عظم الله أجرنا وأجركم فيه فبهت الحاضرون وألجموا وقيدوا الوقت الذي قال فيه الشيخ تلك الكلمة، وبعد أسبوع وصل الخبر بوفاة مولاي العربي في نفس الوقت الذي تكلم فيه الشيخ بما تكلم به، فلما قيل له بأي شيء عرفت ذلك يا سيدي قال: رأيت كأننا في محفل عظيم والناس كلهم مكشوفو الرؤوس وعلى رأس مولاي العربي شاشية جديدة فقام ونزعها من فوق رأسه وألبسني إياها فأولتها بالخلافة من بعده.

وكان على تواضعه شديد الغيرة على المقام الذي منحه الله إياه لا يرى منة إلا لله ويجب أن تحترم نعمه. وقد كان بفاس ذات مرة فأبلغه أحد أصحابه أن بعض الناس يقولون لم يظهر الشيخ الحراق بفاس إلا العلماء من ـــ وكانوا أربعة وكلهم محققون أئمة ـــ ولولاهم لما عرفه أحد ولكنهم بعد أن أخذوا منه الطريق ذاع أمره، وكان الشيخ جالسا في مشربة مع بعض أصحابه فلما سمع ما قيل قال لخادمه يا فلان املأ كوبا من الماء فملأه وأتى به فقال له أهرقه في الدرج فأهرقه فلم يبق في ذلك اليوم كبير من كبراء فاس أو عين من أعيانها أو عالم من علمائها إلا ورد لزيارة الشيخ، أما فإنهم شعروا بفتور وبرود كأنما كان الماء الذي أمر الشيخ بإراقته قد صب على دارهم في حب الطريق وكانوا أهل فهم وذوق وعناء فبحثوا عن سبب الفتور في وقت كان ينبغي فيه أن يكونوا أقوى ما كانوا قط في جانب الله حيث إن الشيخ حال بساحتهم، وأخذوا يتجسسون الخبر ويبحثون عن موجب الفتور إلى أن ورد من أخبرهم بما قيل في مجلس الشيخ وما فعل فإذ ذاك قالوا من هنا قد دهينا فربطوا أكسيتهم وقصدوا الزاوية وأكبوا على أقدام الشيخ يطلبون منه المسامحة ويذكرون أن لا ذنب لهم فإن تلك أفكار قد عصمهم الله من أن تخطر ببالهم، فقال الشيخ: لقد عرفت أن لا يد لكم فيما قيل عنكم ولكنني أحببت أن أعرف هل محمد الحراق بالله أو ب ثم صفح عنهم فوجدوا قلوبهم. واشترى ذات مرة من سوق الغرسة الكبيرة قدرا كبيرا من النحاس على أنه من النوع الجيد فلما اختبره وجد أن القدر من النوع الرديء، فأتى أمين

السماسرة ورد عليه القدر فقال الأمين إنك قد عرفت نوعه واشتريته على ما هو عليه، فلم يكن من الشيخ إلا أن رفع القدر وضرب به رأس الأمين إلى نغض وقال أتكذبني وترميني بالبهتان. وكان يكره الغش ولا يطيق من يخدعه في بيع أو ابتياع وذات مرة قصد سوق الحبوب ليشتري مبالغ كبيرة من القمح لدار الزاوية وكان برفقته سيدي محمد ابن الأحسن، فلما وصل إلى السوق أراه صاحب القمح نظيرا مما يشتريه وتم الاتفاق على الثمن فأخذ الرجل في فتح الغرائر فلاحظ الشيخ أن النوع الذي بها أحط مما تم عليه الاتفاق فاستوقفه وقال له: أما هذا الذي تم الاتفاق عليه فأنا أشتريه بالقيمة الأولى وأما هذا الجديد فإن علينا أن نتبايع فيه من جديد، وحصل خلاف خفيف أدى إلى تدخل أمين السوق الذي حكم بأن الصواب مع الشيخ فيما يقول فاضطر صاحب القمح إلى أن يرد كثيرا من الدراهم، فترك الشيخ ذلك المال بيده وأمر بنقل القمح ثم قصد وجهته وبينما هو سائر قدم إليه أحد أولئك المتعففين الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فاستوقفه وقال: يا سيدي لقد ولد مولود وأهل الدار في حاجة إلى النفقة على سابع الولادة وما أملك شروى نقير، فلم يزد الشيخ على أن وضع في يد المسكين ما كان باقيا في يد الشيخ مما رده عليه صاحب القمح فلما انصرف الرجل التفت الشيخ إلى ابن الأحسن وقال له: « ماذا تراه أفضل هل لو كنا تساهلنا مع صاحب القمح فنتسبب له في أكل الحرام بما ارتكبه من الغش والتدليس ثم لا تزيده دراهمنا ثروة إلى ثروته؟ أم ما فعلناه من الحزم الذي سيحمل صاحب القمح على أن لا يعود إلى ما فعل ثم ورد من أخذ الفضل الزائد وهو في حاجة إليه؟ ». وكان الشيخ لا يكاد يرد سائلا فورد عليه ذات يوم رجل ـــ وهو في الدار ـــ فطرق الباب فخرجت زيد الخير خادم الشيخ تنظر من الطارق فرجعت إلى الشيخ تقول له إن بالباب فلانا يطلب شيئا يقتات به، فقال لها الشيخ: وهل عندك شيء تعطينه إياه؟ فقالت يا سيدي ليس بدار الشيخ سوى عشر بيضات تركتهم للصغار من أهل الدار فقال الشيخ أعطيهم للسائل فأعطته ثمان بيضات واحتفظت باثنتين، فلم تمض إلا برهة وجيزة حتى طرق الباب طارق فناداها الشيخ: اقبضي منه يا فلانة فقبضت منه سلة بيض وأخبرت الشيخ فقال لها عديها، فأحصت البيض فإذا هو ثمانون بيضة فقال لها الشيخ: كم أعطيت للسائل؟ فذكرت أنها أعطته ثمان بيضات وقالت: يا سيدي لقد احتفظت لك ببيضتين فإنك لم

تذق اليوم طعاما، فابتسم الشيخ وقال: لقد ضاعت ثمان عشرة بيضة فإن الحسنة بعشر أمثالها فما أنفقته ــ معاملة مع الله ــ عوضه عليك عشرة أمثال وما ادخرته بقي بحاله. وزيد الخير هذه كانت خادما اشتراها الشيخ فسألها عن اسمها فذكرت أن اسمها زائدة فقال لها لست بزائدة ولكنك زيد الخير فصار اسما لها، وكانت من ذوات الحال والقدم وتأخرت إلى أن بلغت من الكبر عتيا فكانت تلبس العمامة والجلابة وفوقها السبحة وتدخل حلقة الذكر وكانت تحكي عن الشيخ عجائب وغرائب، ولعلني أذكر أن الشيخ سيدي إدريس الحراق حكى عنها أن الشيخ ذات ليلة كان في غرفته وهي التي كان يعمرها فيما بعد سيدي إدريس، وكانت الليلة ليلة زوجته فارح ــ فلقد كان الشيخ لا يبيت في أماكن زوجاته بل هن كن يبتن معه بمسكنه ــ فلما يرع الزوجة فارح في وسط الليل إلا نور عظيم أشرق له المكان وإذا بالشيخ مكشوف الرأس في حال عظيم وهو يقول قصيدته ــ جمعت في حسنك المطالب ــ فنادته ما بالك يا سيدي، وكان الشيخ رفيقا بأزواجه فقال لها: قومي يا فارح وتمتعي بنور رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يخرج من هذه الغرفة إلا في هذه اللحظة.

وبات الفقراء ليلة الخميس يحيون ليلة زفاف أحد إخوانهم ــ ولعله كان من عائلة سكيرج ــ فلما أصبح يوم الجمعة أصبح الفقراء على العادة متفرغين فيه للعبادة والذكر، وكان من عادتهم مع الشيخ أن يصلوا معه ظهر الجمعة بالجامع الكبير ومن ثم يقصدون دار الشيخ فيقيمون حلقة الذكر فيطعمون بها ثم ينصرفون إلى أهليهم فيزورونهم زيارة خفيفة ثم يقصدون الزاوية فيصلون بها العصر والمغرب والعشاء ويقضون الوقت ما بين ذكر ومذاكرة، فلما كان يوم الجمعة الذي أصبح السكيرج عريسا بها صلى الفقراء الجمعة على العادة وقصدوا دار الشيخ ــ وكان الفقراء يغلقون عليهم باب الدار أو الزاوية ولا يأذنون بالدخول إلا لمن هو على رأيهم ــ فبينما الفقراء يرقصون ويتواجدون وقد طاب الوقت وصفا وحنت الأرواح إلى مقرها الأصلي ونسي الناس العالم المادي وما هو فيه من عناء وتعب وشموا رائحة عالم لا تشوبه الأكدار ولا ينقضي نعيمه، إذا بالباب يطرق طرقات متوالية وفي الكثير كان سيدي محمد المكي هو الذي يقوم بحراسة الباب فإن حراسة الباب لم تكن تسند لأي

كان بل لا يقوم بها إلا خاصة الفقراء، فلما كثر الطرق بقوة صاح البواب اصبر اصبر، فإذا بالطارق يقول قد نفد الصبر و لم يبق له وقت ولا محل فلما فتح الباب دخل العريس وقد ارتدى كساءه ــ وكان العريس يلبس الكساء ــ وهو يجره في حال عظيم لم يتمكن معه من أن يتحدث مع البواب ولا أن يلفظ بكلمة فقصد الحلقة وأخذ القوال يقول:

وخــذ بقية ما بقيت من رمــق   لا خير في الحب إن أبقى على المهج

ويكرر هذا البيت وسكيرج يئن أنات تدوي في أنحاء الدار وكلما أنهى الحادي حدوه ناشده الله أن يكرر ويعيد واستمر في تواجده إلى أن صاح لبيك وسقط إلى الأرض حيث حلقت روحه إلى السماء تشرف على ذلك الشبح الذي رافقته حينا من الدهر تم الأمر بأن اندفع فيها وأسلس لها قياده، وتقدم الفقراء إلى السكيرج يحسبونه مغشيا عليه فإذا به فارق الحياة. وكان الشيخ بعد أن فرغ من الصلاة ودخل الدار ترك الفقراء في أسفلها يقيمون شعيرهم وصعد إلى الغرفة وكان ولده سيدي الغالي مريضا مرضا ثقيلا فعاده الشيخ ثم قصد غرفته، وبعد أن مات السكيرج شهيد الذكر والمحبة وارتفعت الأصوات بالذكر والتواجد أطل الشيخ من حلقة الدار فإذا به يرى السكيرج مسجى وسط الحلقة فأشار إليهم الشيخ بالهدوء وذكر الكلمة الشريفة التي كتبت على العرش فسكن « محمد رسول الله » فسكن الحاضرون، فقال الشيخ متمثلا بقول بعضهم:

اللــي ذاق شراب الحــب   كيف تبــــرد لوعتــو

اللــي مات على ربــــي   ها ذاك حلــت موتاتــو

ثم قال لا تنصرفوا إلا لدفن أخيكم الشهيد. وقد تحدث الشيخ إلى الفقراء فقال بينما أنا في غرفتي إذ رأيت عزرائيل قد دخل الدار فحسبته جاء لقبض روح ولدي الغالي ولكنه جاء لقبض روح سكيرج.

وسمع سيدي محمد الحراق رضي الله عنه المطربين يغنون بقصيدة ــ الصبح

كشريف أرخى ذيل إزارو ـــ فطرب لها طربا عظيما وتواجد إلى أن كانت العمامة ترتفع عن رأسه مقدار ذراع ثم خلع على المطربين وأحسن إليهم، فلما كان بعد ثلاث بعث وراءهم وعرض عليهم قصيدته التي هي على وزن: الصبح كشريف أرخى ذيل إزارو، والتي يقول فيها:

صاف الحبيب تظفر ببديع أنوارو وتحـــوز من بهـــاه إمـــارا

فقرؤوها عدة مرات وأداروها على أوزان القصيدة السابقة فإذا بمعانيها أجل وألطف من معاني سابقتها، فأمر بإحضار آلات الطرب فأحضرت وطفق المنشدون يرددون هذه القصيدة في ألحان شتى وقد أعجب بها العلماء والأدباء والصوفية على السواء فأمر الشيخ بأن يقام إكرام للفقراء دام ثلاثة أيام شكرا لله الذي ألهمه إلى هذه القصيدة. وكان الشيخ دقيق الإحساس شديد الشعور ينظر إلى الكون نظر الاعتبار على أصول القوم فيسايرهم في تغزلهم ومذاهبهم في القول، وكان ولده سيدي الغالي على جانب عظيم من الحسن والجمال وكان الشيخ يحبه حبا شديدا وقد أطال فيه النظر ذات يوم فلم تنفرج شفتاه إلا عن قوله:

كم تيمتنـــي بورد الخـــد والبلـــج وكلمت كبدي بطرفهـــا الغنجـــي

وقدر أن سيدي الغالي توفي في حياة والده دون أن يتزوج فحزن عليه الشيخ وذكر أن ذلك الحب لم يكن إلا مقدارا تزاحم على أمد ولده القصير، فكأنما كان من وفاته على موعد وكأنه جعل هذه الحادثة أساسا لرسالته التي يقول فيها « ما أحببت دونه شيئا إلا وبرز لك فيه بما تكره ». ومن أرق قصائد الحراق وألطفها قوله:

أماطـــت عن محاسنـــها الخمـــارا فغادرت العقول بها حيـــارى

ووجدنا الفقراء يذكرون أن السلطان عبد الحميد العثماني الخليفة التركي رحمه الله كان إذا أخذ المنشدون يذكرون هذه القصيدة يتواجد ويرقص، ولقد كان السلطان عبد الحميد أخذ الطريقة الدرقاوية عن الشيخ ظافر الطرابلسي الذي ولد بطرابلس الغرب سنة 1212هـــ ورحل إلى المغرب الأقصى وقرأ بفاس ولقي الشيخ مولاي العربي

بن أحمد الدرقاوي وأخذ عنه ثم رحل إلى الحجاز وأقام بالمدينة المنورة مدة ثم توجه إلى إصطنبول فكان له بها شأن وصل به إلى أن اتصل بالسلطان عبد الحميد وأخذ عنه الورد الدرقاوي، فكان السلطان يخلو بالمشايخ الكبار ويقيم معهم حضرة الذكر ثم إذا أنشد القائل قول الحراق ـــ أماطت عن محاسنها الخمارا ـــ قام وتواجد. وكان أصحاب مولاي العربي وسائر الصوفية والأدباء لا يلبثون أن يسمعوا قصيدة للشيخ الحراق حتى تسير فيهم سير المثل السائر، وكان فقراء تطوان لا يجدون هدية يقدمونها لإخوانهم في فاس والرباط وغيرها من مدن المغرب أفضل من نسخة لقصيدة جديدة من كلام الشيخ الحراق الذي غمر أقوال السابقين فكان يكفي عن غيره ولا يكفي غيره عنه. وتوارث المغاربة شعر فحلهم الذي لا يقذع أنفه فقد أرضى كلامه الخاصة والعامة وولع به العلماء والصوفية والأدباء، وقد أراد أحد العلماء من أقران الشيخ في السن أن ينكت عليه فقال له يا سيدي محمد الحراق لقد قيل لنا إن كلامك ابتذل حتى أصبح يقال في أوكار الفجور والفساد، فقال له الشيخ إن ذلك ليس بابتذال ولكنه كلام أرضى الجميع وإنني أحمد الله على أن صلح لهم كلامي حتى صاروا يتغزلون به لجلب السرور. وكان بفاس مجلس حضره أفضل أهل المغرب من علماء وأشراف ووزراء وغيرهم فأخذ القوالون يرددون شعر الحراق وكان بالمجلس من العلماء من لم يسبق له أن سمع تلك القصيدة فلما صار القوال يغني بها وأنصت الناس لغناه طرب ذلك العالم من متانة ما يسمع، فالتفت إلى شيخ الجماعة بفاس سيدي أحمد بن الخياط (1252ـــ 1343هـــ) وقال: يحق لنا أن نطلق على سيدي محمد الحراق ابن الفارض الصغير فأجابه ابن الخياط بل إنه ابن الفارض الكبير وأجل من ابن الفارض، فدهش المتكلم فاندفع ابن الخياط يقول إننا لا نجد لابن الفارض ـــ على جلالته ـــ من الفضائل إلا بعض ما نجده لسيدي محمد الحراق فمن ذلك أن ابن الفارض إنما اشتهر بتغزله الرقيق ولم يثبت له نسب فاطمي أما الحراق فمن آل البيت العلميين المحقق نسبهم وهو من أجلة علماء الإسلام ومن كبار المربين الذين نفع الله بهم وهذه مزايا لم تكن لابن الفارض رضي الله عنه ثم إن الحراق شارك ابن الفارض في مذهبه وأربى عليه بما أحكمه من مزج الشريعة بالحقيقة. وحكى لنا الشيخ سيدي إدريس أنه قابل بفاس رجلا بناء طاعنا في السن كان من أصحاب سيدي محمد الحراق فحدثه أن الفقيه

الورع سيدي محمد بن المدني كنون صاحب اختصار حاشية الرهوني على الزرقاني عندما كان يبني داره بفاس كان هذا البناء ممن يعمل بها ولما وصل وقت فراش الدار بالزليج بقي بها وحده يغلقها عليه ويشتغل جالسا و لم يكن أحد يجرؤ أن ينطق بشيء من الغناء أو من كلام القوم بمسمع من الفقيه كنون، وفي ذات يوم ظن البناء أن الدار فارغة فأخذ يذكر الهيللة ويخللها بأبيات من تائية الحراق واستمر فيها إلى أن أتى على آخرها ثم سكت قال فلم أشعر إلا والفقيه قد وقف على رأسي وهو هادئ تمام الهدوء، فلما وجدته أمامي وأيقنت أنه كان يسمع نشيدي اعتراني من الدهش والحيرة ما لا يعلمه إلا الله و لم أشك في أنه سيفعل بي سوء من ضرب أو نحوه ولكنه سألني في لطف عن القصيدة التي كنت أقولها لمن هي، فترددت في الجواب خشية أن يسمعني في شيخي ما لا أحب سماعه ولكنه ألح علي فقلت له هي من كلام الشيخ الحراق فاستنشدني إياها ثانيا فلما وصلت إلى قوله فيها:

ومكن بكف الشرع أمرك كله   فدونك إن لم تفعل الباب سدت

استعاده عدة مرات كأنه يحفظه، فلما فرغت من إنشادي قال لي هكذا يكون المشايخ لا كهؤلاء المبدعين أما أني لو أدركت الشيخ سيدي محمد الحراق لآخذت عنه. وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان (1276ـــ 1290هـــ) ولوع بكلام الشيخ سيدي محمد الحراق فقد بلغه بعد احتلال تطوان أن مولاي الحسين بن الشيخ سيدي محمد الحراق قد وصل إلى فاس بأهله وداره وكافة دار الشيخ سيدي محمد الحراق فارا مع الفارين بعد سقوط تطوان (1376هـــ)[1] فوجه من ورائه بقصد مقابلته، وكان مولاي الحسين قد كف بصره فلما ورد أمر السلطان بالمقابلة قال مولاي الحسين لأصحابه أسرجوا الدابة فأسرجت وفقد حزام السريجة فاستعاروه فلم يحصلوا عليه، فقال مولاي الحسين انظروا الإصطبل هل به بردعة فأتوني بحزامها فأمرهم بأن يربطوا به السريجة وسار يخترق شوارع مدينة فاس قاصدا زيارة السلطان وسريجته موثقة بحزام البردعة، فلما قابل السلطان كان أول ما قال له: لقد وجهت وراءك لتفيدني عما يريد أبوك بقوله ـــ أتطلب ليلى وهي فيك تجلت ـــ فأخذ مولاي

(1) بل سنة 1276هـ موافق خريف عام 1859 م. الذي شهد حرب تطوان.

الحسين يذكر له بعض معانيها وطاب المجلس وطابت نفس السلطان فأسنى لمولاي الحسين العطايا وذاع النبأ في فاس فتوارد الزوار والمحبون.

وكان الشيخ سيدي محمد الحراق رقيق الذوق يأكل أخف الطعام ويجتنب ما أمكن أن يدخل إلى جوفه الطعام وكان يعيش في الكثير على أسلوب خاص في نظام أكله، فقد بلغنا أن طعامه بالليل كان بقلس ويقول أهل الشيخ أن الكمية التي كان يتعشى بها الشيخ كانت عادة مقدار غرفة اليد الواحدة من الكسكسو قد صب عليها عصير فرخ من الحمام دق لحمه وعظمه فاستخرج منه الخلاصة وأفرغت على يسير الطعام وكذلك كان أكله المعتاد، ولا يتناول الطعام العادي إلا مع الضيوف أو مع الناس وكثيرا ما كان يمتنع عن الأكل إلا أن يكون في أكله تطييب لخاطر أحد من أصحابه وهو إلى جنب ذلك قليل النوم، ومع ذلك فقد كان له أربعة أزواج يقوم لهن بحق الزوجية وكان يقول لأصحابه لا تقتدوا بنا في كثرة الزواج فإننا نبحث عمن تصلح، وكان في مسكنه متقشفا لا يوجد في مكانه ستور ولا حشايا ولا مساند وإنما هي زرابي بلغت من النظافة حدا بعيدا يتهجد عليها بالليل ويكتب ما يريد أن يكتب أو يطالع أو يراجع كلام القوم، وقد وضع حدا فاصلا بين حاضره في التصوف وماضيه في الفقه فلم يعد إلى الاشتغال به وكان يقول: رغم كل الجهود فإن الفقه لا يزال يهمس في أذني بين الحين والآخر. وخرج ذات جمعة وفي عنقه إحدى عشرة سبحة صلى بها صلاة الجمعة بالجامع الكبير فقال له أصحابه هل أخذت بطريقة الخراب يا سيدي؟ فقال لا ولكنني لما هممت بوضع السبحة على عنقي حدثتني نفسي بأن لا داعي إليها حيث أن جميع الناس يعرفون أنني درقاوي الطريقة فرددت عليها بأن وضعت على عنقي كل ما وجدته بالدار من سبح كي لا تعود تحدثني في هذا الشأن ولا تتدخل في أمر الطريقة. وسأله أحد الفقهاء عن الرقص فأجابه بقوله: شيء كان عليه أشياخنا لا نتركه ولو طارت عليه أمخاخنا. وكان يقول: لولا ملاقاتي مع مولاي العربي لما مات هذا »الكنك« وأشار إلى رأسه إلا جيفة. وتحدث مرة الفقراء عن رأي الشيخ على جلالته في الرقص فقال أحد الفقراء: انظروا إلى الشيخ كيف كان يرى الحرمة للرقص وقد أصبح بعض الفقراء يضحكون في رقصهم ويتلعبون بحلقة الذكر، فأجابه الشيخ

سيدي عبد السلام أجزول ـــ ممن أخذ عن الشيخ سيدي محمد الحراق صغيرا في حكاية طويلة وكان من أعيان أركان الطريقة الحراقية ـــ ليس الضحك في الحلقة بعيب فإن أحوال الفقراء كثير فسكت الحاضرون لأنهم أمام رجل يقيم الحجة على كل ما يقول وانصرف الكل إلى حال سبيله. قال أجزول فلما أخذتني عيني رأيت في المنام كأني دخلت على جماعة عظيمة من أهل الله وكبار هذا الشأن فقام من بينهم رجل عرفت أنه ابن العربي الحاتمي فتقدم إلي في جد وقال: أنت تقول بالضحك في الصلاة ـــ يعني بها حلقة الرقص ـــ فقلت له نعم، قال ما حجتك على ذلك؟ قلت قوله تعالى: « وإنه هو أضحك وأبكى » فصاح صيحة عظيمة وقال: الله جئت لترى الأمر عيانا ثم أخذ بيدي وسرنا فإذا نحن في فسيح من الأرض ينتهي دونه البصر وبه الآلاف المؤلفة من قوم يقيمون حلقة الرقص فزدنا إلى أن وصلنا إلى القوم فأشار إليهم الحاتمي فضحكوا كلهم ثم أشار إليهم إشارة فبكوا كلهم. ورغم ما كان عليه الشيخ سيدي محمد الحراق من علو كعب في علمي الظاهر والباطن حتى إن من قرأ كلامه حسب نفسه أمام مجتهد مطلق في العلمين كليهما، ورغم ما كان عليه مولاي العربي الدرقاوي من عدم تعاطيه للعلوم الظاهرة فإن الحراق قال: لولا ملاقاتي مع مولاي العربي لمات هذا »الكنك« الرأس جيفة، وهو الذي يقول:

كفاني افتخارا أنهم لي سادة وأنهـــم مني بمـــرأى ومسمـــع

وقد اكتسب منه قسما من هذا الخلق خلق التبري من كل المزايا وخلق تعظيم من رفع الله أقدارهم أصحابه وأخذوه عنه وقد وصل إلى قمة هذا المقام خليله سيدي محمد بن الأحسن فإنه كان لا يقر له قرار إذا كان بمحضر الشيخ وكل شيء يفعله كان يحسب نفسه مقصرا فيه، فكان إذا أمره الشيخ بأن يرافقه في بعض السياحات لا يكاد ينام ليلا ولا نهارا حذرا من يحتاجه الشيخ فيجده نائما ولم يكن بالذي يطيق البقاء في خيمة الشيخ لأنه يرى أن الأدب في ذلك أمر لا سبيل إلى الوصول إليه وكان إذا غفا إغفاءة ارتاع وهو يقول: لبيك يا سيدي يحسب أن الشيخ صاح به وناداه. وذات ليلة دخل على الشيخ وفي يده حبل طويل إلى مسافة بعيدة خارجا عن خيمة الشيخ ثم وقف واجما ساكتا فقال له الشيخ: ما هنالك يا سيدي محمد؟ فقال له: يا سيدي ضع

طرف هذا الحبل بالقرب منك فإذا احتجت إلى شيء فاجذبه إليك، ولم يكن الشيخ الحراق بالذي يريد أن يعارضه في مثل هذه الأمور التي لا يدفعه إليها إلا الإخلاص والتعظيم فاستلم منه طرف الحبل وذهب ابن الأحسن إلى خيمته، فأطل عليه أحد أصحاب الشيخ فوجده قد أخذ طرف الحبل الآخر وربط به رجله حتى إذا حرك الشيخ الحبل تحركت قدمه فاستيقظ لذلك، فأبلغ ذلك الفقير الخبر إلى الشيخ فجذب الحبل جذبة لطيفة على إثرها دخل ابن الأحسن فقال له الشيخ لقد أحسنت في هذه الطريقة التي اتخذتها فيمكنك أن تنام نوما هادئا فلا خشية من أن أناديك ثم لا تجيبني، وقد أراد الشيخ أن يترك ابن الأحسن يستريح ـــ ولو ليلة ـــ فلم يحرك الحبل ولكن ابن الأحسن كان كلما أراد الشيخ حاجة شعر بقلبه يتحرك دون أن يتحرك الحبل فكان يقبل وهو يقول: لبيك لبيك فقال له الشيخ: هلا سكنت حتى أحرك الحبل فقال له يا سيدي إن قلبي يحركني. وكان الشيخ يختار ركوب البغل في مشيته فلا يكاد يرى في الطريق إلا راكبا وهذه عادة كأنها اكتسبها من علماء فاس المدينة الكبيرة التي تحتاج إلى ركوب وخصوصا من لدن العلماء الذين كانوا يترفعون عن مناكبة الدهماء. وذات مرة بينما كان الشيخ راكبا بغله القوي إذ قابل سيدي محمد ابن الأحسن فدنا ليقبل رجل الشيخ في الركاب فأوقف الشيخ البغل وأخذ يحدث ابن الأحسن في أشياء هامة وطال الوقوف وابن الأحسن مطمئن رابط الجأش يجيب عن كل أسئلة في حذاقته المعروفة وربما ابتسم، وطال الموقف كثيرا فحانت من الشيخ التفاتة فوجد الدم يسيل سائحا على وجه الأرض فحرك البغل ليبعده قليلا ليتأكد مما رأى فإذا بالدم يخرج من قدم ابن الأحسن فإنه بعد أن دنا من الشيخ وطئ البغل بإحدى قوائمه على رجل ابن الأحسن واعتمد عليها بكل ما له من قوة فتمزقت رجل ابن الأحسن وأخذ الدم يسيل منها وهو لا يظهر وجعا إلى درجة أن الشيخ لم يلاحظ عليه ذلك وخصوصا أنه ما كان يرفع نظره في وجه الشيخ قط، فاعترى الشيخ حال عظيم وصار يقول له أسيدي محمد بن الأحسن انصرف إلى حال سبيلك فما بقيت لك عندنا حاجة ويكررها ويسترجع ويستغفر الله من هذه الحادثة التي جرت دون قصد ولا اختيار وعزم على ابن الأحسن أن يترك خدمته وأن ينصرف ليدعو الله إليه، فامتثل ابن الأحسن الأمر ولكنه إنما ذهب لباب دار الشيخ ينظر مجيئه ليستعطفه كي يسمح له بمواصلة الخدمة. وكان أهل الذوق

يرون أن شدة حب أصحاب الحراق للحراق وتفانيهم في طاعته ثمرة جازاه الله بها عن أدبه الذي كان يتأدبه مع الشيخ مولاي العربي زيادة على الأخلاق الكريمة والتضحية البالغة والعلم الجم والأوصاف التي كان متصفا بها الشيخ الحراق فكان إذا أمر بأمر لا يقف أصحابه عند درجة تنفيذه فحسب ولكنهم يبالغون إلى درجة أن يكون التنفيذ على أكمل الوجوه وأتمها، و لم يكن مع ذلك يكلف أصحابه إلا يسيرا من العمل فقد كانت همته تصرفه عن أن يستغل هذه الطاعة لأي شيء من وجوه الاستغلال وإنما يوجهها فيهم إلى الذكر والعبادة على الطريقة التي يراها أصلح وأوفق فإن العمل والخدمة على العيال كل ذلك في الطريقة الحراقية ـــ كما هو في الشريعة الظاهرة ـــ عبادة من أجل القربات. ولقد أمر أصحابه من بني سالم بخدمة جنته بأبي جراح وكان يوم خدمة الجنة موسما من المواسم يجتمع فيه كلهم فيقضون اليوم في عبادة متواصلة، فلما كان المساء هبط الشيخ إلى الجنة وكان إذا كان راكبا حمل عصاه أحد الفقراء حتى إذا نزل عن ظهر البغل أخذ العصا وسبحته على عنقه لا يترك ذلك أبدا لأنه من عمل القوم، وأخذ الشيخ عصاه فأخذ ينظر ما عمله أصحابه السلميون فاعتمد على العصا واتكأ عليها في رفق فأخذت تغوص في التراب إلى أن غاص أكثر من نصفها وهي مع ذلك لا تزال غير متمكنة وذلك لأن أرض الجنة قد خدمت خدمات متتابعة إلى أن تخللت أتربتها إلى عمق طويل وذلك لا يتم إلا بجهد جهيد وتسميد كثير، فدمعت عين الشيخ وصار يدعو لبني سالم بأن يحفظهم الله وذريتهم وعقبهم إلى أن هاج الناس وماجوا وطالت حلقة الذكر والناس يبكون خاشعين إلى أن أرخى الليل سدوله. وكان سيدي الحاج عبد السلام أجزول يقول: إن المشايخ في الدنيا كثير والأولياء كثير ولكل وجهة أما الشيخ الحراق فهو من الأفراد الذين حلم بهم الزمان ولا نجد له بين طبقات القوم من مثيل حاشا ابن العربي الحاتمي وابن وفا وأفراد من هذه الدرجة لا يتجاوز عددهم رؤوس الأصابع.

وكانت الزاوية الحراقية وعامروها بتطوان على عهد الشيخ سيدي محمد الحراق بمنزلة جزيرة وسط البحر فقد كانت فيها الاضطرابات متواصلة، وكانت وما جاورها من حزب مولاي اليزيد (1204ـــ 1206) بن محمد بن عبد الله بن مولاي إسماعيل

الكبير فإنه قد التجأ إلى شمال المغرب وتحصن بمدشر الحصن من جبل العلم فقام بنصرته الأشراف العلميون واجتمعت عليه كلمتهم، ثم بعد أن بويع وقتل (1206 هـــ) بقي الأشراف العلميون متحزبين لبنيه من بعده وعلى رأس هؤلاء الأشراف عائلتان كريمتان هما العائلة الوزانية والعائلة الريسونية، فهاتان العائلتان كانتا ولا تزالان زعيمتي أشراف العلم والقائمتين برعاية مقام الشيخ عبد السلام بن مشيش الذي قد احتمى به مولاي اليزيد، فكان المطالبون بالملك من أبنائه يجدون في هذه الناحية وعاصمتها تطوان خير المساعدات فكانت تطوان مثابة لحركة المعارضة لمولاي سليمان الواقفة في صف أبناء مولاي اليزيد، وكان من المعقول أن ينضم لهذه الحركة الشيخ سيدي محمد الحراق لأنه شريف علمي وكل أبناء عمه على فكرة مناصرة أبناء مولاي اليزيد ومن هؤلاء وعلى رأسهم سيدي الحاج العربي بن علي بن أحمد بن مولاي الطيب بن محمد بن مولاي عبد الله الشريف الوزاني اليملحي العلمي وجماعة من أعيان بني ريسون، غير أن الشيخ الحراق لزم الحياد فكان وفيا لملكه مولاي سليمان ثم لابن أخيه مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى آخر لحظة. فإن الداعي النبيل الذي دعا الأشراف العلميين لنصرة مولاي اليزيد وأبنائه من بعده هو حماية ابن عم لهم التجأ إلى حرمهم واعتصم بكنفهم والداعي النبيل الكريم الذي دعا الشيخ الحراق إلى الإعراض عن هذه الخطة والاستمساك بحبل خلافة مولاي سليمان هو حق الوفاء لهذا الملك العالم الذي كان سببا في تنقل الشيخ الحراق من فاس إلى تطوان حيث أظهر أمره بها وفتح عليه فيها، فلذلك انفرد الشيخ الحراق عن أبناء عمه بمناصرة مولاي سليمان حتى إذا غلب حزب أبناء مولاي يزيد تمسك الحراق برأيه دون أن يشهر حربا أو يلجأ إلى الثورة والفتنة واستطاع بما أتاه الله من حكمة أن يرضي الأشراف الثائرين وأن لا يجعلهم كلمة ضده. وكان مما قوى النفرة بين العلميين ومولاي سليمان ما كان يراه من محاربة البدع التي ترتكب في المواسم المقامة على أضرحة الصالحين فاعتبر الأشراف أن هذه حركة موجهة ضدهم، على أن مولاي سليمان إنما فعل ذلك في الوقت الذي كانت فيه سيطرة الأشراف والزوايا قد وصلت إلى درجة عالية، فإن مولاي إسماعيل عضد أهل البيت وما هم فيه من تقاليد وكان مولاي محمد بن عبد الله على شدة ورعه يسلك نفس مسلك والده، فجاءت حركة مولاي سليمان الإصلاحية ضد المواسم والبدع التي ترتكب بها بدعا

من السلوك في حين أنه كان على ما كان عليه سلفه من تعظيم أبناء عمه من أهل البيت ولكن ضعف سياسته وقوة نفوذ الزوايا جعلت الأشراف يسرفون في أمرهم ويبالغون في الاستمساك بحقوقهم، وكان مولاي سليمان رحمه الله يعذرهم لذلك حتى أنه لم يعاتب مولاي العربي بن علي الوزاني بعد القضاء على حركة أبناء مولاي يزيد إلا عتابا خفيفا وهو محترم بالحرم الإدريسي مع أنه كان من أكبر الدعاة لأبناء مولاي يزيد ومن المؤلبين على مولاي سليمان حتى أنه حمل ابن عمه سيدي محمد بن العربي بن مولاي التهامي دفين دار الشريف من قبيلة وادراس على أن يثور في قبائل الجبل فالتفت حوله وحول بعض أبناء عمه من وزانيين وريسونيين، ورغم أن سيدي الحاج العربي صالح مولاي سليمان فإن سيدي محمد بن العربي بن مولاي التهامي بن محمد بن مولاي عبد الله الشريف أحجم عن الخضوع وواصل الثورة لحسابه إلا أن الأجل عاجله عن تتميم برنامجه. وكانت تطوان رباطا يرابط على مدينة سبتة فكان لها بذلك صيت في أنحاء المغرب وكان المتطوعون يقصدونها من كل فج فكانت قوية الشوكة بها عناصر شديدة الشكيمة تسندها كثير من مدن المغرب وقبائله، وكان برنامج مولاي اليزيد هو مواصلة الجهاد والضغط على سبتة ومناوءة اليهود فكان لذلك محبوبا في الأوساط المتطرفة التي لا ترى مسالمة سبتة ومهادنتها، وكان يستعمل قطع الأسطول المغربي مما خلفه أبوه مولاي محمد بن عبد الله في قطع غمار البحر يناوئ خصوم الإسلام. فلهذه الأسباب كان المغاربة أو المتطرفون منهم يقدمونه على مولاي سليمان الذي مال إلى السلم والدعة وحرق بقية أسطول أبيه، فكان الحزب المتطرف يستغل ميل مولاي سليمان إلى الهدوء ويرغب في أن يجد في أبناء مولاي يزيد طرازا من شاكلة أبيهم ولكنهم عجزوا عن أن يقوموا بحمل العبء وقدر تطوان وهي تلتهب حماسا لنصرة أبناء مولاي اليزيد ومعها كل عناصر القوة. ثم افرض كيف كان موقف سيدي محمد الحراق الذي كان يؤيد سياسة مولاي سليمان من شتى الوجوه في هذا الوسط المتمرد ولكن جلالته وحكمته وعدم تحمسه لسلطانه الحماس الأخرق عصمه ذلك كله من شر ما يحدث، وإننا لنستروح من تلك الكلمة وذلك الحديث الذي كان يردده ويشرحه في شيء غير قليل من الإسهاب روحه الهادئة المتزنة فكان يذكر أصحابه بحديث « الفتنة نائمة لعن الله موقظها » ويأمر أصحابه بأن يشتغلوا بإصلاح بواطنهم

والإقبال على مراجعة شؤون دينهم ويرى أن الأفضل للسلاطين أن يحملوا الناس على طاعة الله والقيام بشعائر دينه وذلك ينتج عنه طاعة السلطان، ولكنها كانت دعوة كالنور الساكن الذي يمده سليط نظيف في وسط ليلة حالكة ذات ظلمات ورعد وبرق لا ينتفع به إلا من قصده وعثر عليه. واستمر على رأيه في مولاي سليمان رغم أن مولاي العربي الدرقاوي بايع في فاس مولاي إبراهيم بن مولاي اليزيد (1236 هـ) ورغم أن أنصار مولاي سليمان قبضوا في نفس السنة على مولاي العربي الدرقاوي وأودعوه السجن، فإن كل ذلك لم يكن ليؤثر في الشيخ سيدي محمد الحراق فيصرفه عن طاعة سلطانه ويحمله على أن يختر عهده. وبعد أن وصل مولاي إبراهيم إلى تطوان وهي محل الشوكة إذ ذاك في نفس سنة 1236 هـ مرض بها ومات فاتفق أهل تطوان ومن انضم إليهم على مبايعة مولاي السعيد بن اليزيد (1236 هـ)، واجتمع بمسجد الباشا سائر الزعماء والأشراف والقواد والأعيان بقصد أخذ يمين البيعة وكان من جملة من دعي لحضور هذا الاجتماع الشيخ سيدي محمد الحراق فقد حضره على أمل أن يحمل الناس على الانتظار إلى أن يظهر من أمر مولاي سليمان ما غم عليهم، فإن كل ما في الأمر إنما هو إشاعات تقول بأن مولاي سليمان قد تخلى عن الملك مع أن التخلي فسخ لعقد بين السلطان والرعية يلزم ثبوته بالطرق الشرعية المفيدة لليقين، ولكن حماس الجمهور ووجود الأشراف الكبار وسائر أهل الحل والعقد منع القوم من أن يسمعوا للشيخ الحراق ما عساه أن يقوله لهم سيما وهو معروف بالميل إلى جهة السلطان مولاي سليمان الذي كان يجل العلماء وينفر من المدعين للتصوف، فلما خاض الملأ في حديثهم عن هذا الموضوع وطال المجلس كثيرا فإن هذه الاجتماعات تستمر الساعات المتطاولة وقر رأي الناس على خلع القائد الحاج عبد الرحمان بن علي أشعاش وتولية القائد محمد العربي بن يوسف المسلماني، تظاهر سيدي محمد الحراق بأنه يسبغ الوضوء فألقى الكساء عن منكبيه وقام متجردا وخرج كأنما يقصد بيت الماء خرج إلى الشارع دون كساء ولا جلابة فقابله بعض أصحابه فطلب من السترة فلبس جلابة وركب بغله وحركه مسرعا جاعلا وجهته باب المقابر، فلم ينتبه أحد لظنهم أنه سيقصد الزاوية غير أنه خرج من باب المقابر ومن ثم إلى قبيلة الحوز في فرق من بني سالم فمكث بها عند أنصاره وكلهم له أنصار إلى أن زالت غيوم الفتنة فرجع إلى تطوان وقد رجع أهلها إلى

طاعة السلطان (1237 هـ) فعرف له ذلك مولاي سليمان واستبان للناس أنهم لم يكونوا على صواب فيما فعلوه، فكان ذلك من الأسباب التي زادت في حب الناس للشيخ سيدي محمد الحراق وأصبح قبلة يقصدها الحزب الموالي للسلطان، وعلى هذه الخطة بقي سيدي محمد الحراق حتى بعد وفاة مولاي سليمان (1238 هـ) فإنه جرى على خطته تلك مع مولاي عبد الرحمن بن هشام (1238ـ 1273 هـ)[1] وعليها بقي إلى أن لقي الله عز وجل.

وفي سنة 1271هـ كان بالمغرب الوباء «وهو إسهال مفرط يعتري الشخص ويصحبه وجع حاد في البطن والساقين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد لون فإذا تمادى بالشخص حتى جاوز أربعا وعشرين ساعة فالغالب السلامة وإلا فهو الحتف، وفي هذا الوباء مات شيخ الطريقة أبو عبد الله سيدي محمد الحراق التطاوني وبموته أقلع الوباء من تلك المدينة » الاستقصا[2].

وكان الشيخ سيدي محمد الحراق مع هذا عارفا بالرماية فقد اتفق أن وصل في سياحته إلى البهاليل للمرة الأولى يطلب منهم الضيافة فقال له حدرة القوم إننا أهل رماية فإن كنت من الرماة فمرحبا بك وإلا فلا مترل لك عندنا، قال: أتطلبون أمارة على ذلك؟ قالوا: نعم، فقال أتوني بالعدة فأمدوه بها ونصبوا له أهدافا في غاية الدقة والصعوبة فأخذ البارودة وردها إلى صدره وخيرهم في محل الإصابة فما اختاروا محلا إلا وقعت عليه الرصاصة كأنما يضعها بيده، فأعادوا التجربة واجتمع أهل الحي فرأوا ما أدهشهم من الشيخ المعمم الوقور فكتفوا أيديهم وراء ظهورهم وانحنوا على ركبهم يطلبون السماحة والتسليم، فقال لهم الشيخ: إنما أنتم إخواني في الرماية ومن ثم أخذوا عنه الطريقة حتى كادت البهاليل تكون خالصة للحراق، وكان منها سيدي محمد ملوك الذي حدثنا عنه الشيخ سيدي إدريس أنه قصده للزيارة فوجد شيخا طاعنا في السن يناهز التسعين من العمر ووجده جالسا في كوخ ضيق حقير مظلم قد ملأه الدخان حتى لم يستبن جليسه إلا بعد برهة من الزمان، قال سيدي إدريس فجلست في مجلس بهذا

---

(1) بل سنة 1276 هـ.

(2) ذكر البلدة بدل المدينة، انظر الجزء 9، ص.70، دار الكتاب، الدار البيضاء.

الكوخ فالتفت إلي سيدي محمد ملوك وقال: سبحان الله لقد جلست في المكان الذي كان جالسا فيه قبل دخولك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لازم سيدي محمد ملوك ـــ بعد وفاة الشيخ سيدي محمد الحراق ـــ سيدي الخضر الشجعي فلذلك يعد من أصحابه أيضا. ولم ينس سيدي محمد الحراق مسقط رأسه شفشاون فلقد كان يزورها كثيرا ويقف على مراسم أسلافه وكان أهل شفشاون يحبون وليد تربتهم الحراق فلذلك أقبلوا على الدخول في طريقته حتى قال سيدي محمد العربي الرباطي عندما ترجم لشيخه سيدي محمد الحراق ترجمة مختصرة جعلها مقدمة لما جمعه من كلام الشيخ الحراق نظما ونثرا فترك لنا ذخرا عرفنا به من هو الشيخ الحراق، قال «وأما أهل شفشاون فقد كادوا يدخلون جميعهم في طريقته وتوارث الأشراف العلميون » شرفاء القوس «أعقاب مولاي علي بن راشد العبسي طريقة الشيخ الحراق فهم إلى يومنا هذا لا يزالون على ذكر الاسم المفرد بعد الصبح وعقب المغرب في مسجدهم بالقوس من مدينة شفشاون يفعل ذلك منهم من له ورد ومن لا ورد له ».

وعندما حلت فرنسا بالتراب الجزائري (1245هـ[1] ـــ 1830م) وقام الجزائريون بالدفاع تحت إمارة الأمير عبد القادر بن محيي الدين المختاري (1248هـ ـــ 1833م/ 1263هـ ـــ 1848م) أخذ الأمير عبد القادر يستنجد ويكاتب أعيان المغرب وعلماءه فكان من جملة من كان يكاتبهم في ذلك الشيخ سيدي محمد الحراق الذي كان كغيره من العلماء وباقي المسلمين يعطفون على الجزائر وجهادها، وكان التطوانيون بالخصوص لهم عطف زائد على إخوانهم في الجزائر حيث كانت تصلهم الأنباء عن قرب من بلاد الريف، وقد عرف الجزائريون أن المغاربة التطوانيين يشاركونهم في ألمهم فطفق أهل العلم والخير وقوم من المستضعفين يلتجئون إلى تطوان فكانوا يصلونها أفرادا وجماعات في أوقات مختلفة فأدخلوا معهم إلى تطوان العوائد التركية وكثيرا من ثقافة الجزائر وأخلاقها، فأخذ التطوانيون يأخذون عنهم الحضارة التي جاءوا بها وضموها إلى الحضارة الأندلسية المغربية التي كانت موجودة بالبلد، وكان التطوانيون يحسنون إلى المستضعفين من المهاجرين وأبناء المهاجرين فكان للشيخ الحراق رزق معلوم في اليوم

(1) بل سنة 1246هـ.

يدفعه إلى قوم منهم وربما سقط بينهم من له مال يشح به أن ينفقه على نفسه، فكان الناس يقولون للشيخ الحراق أتنفق على فلان وهو في سعة من الرزق؟ فكان يجيبهم بقوله: أعطوه ما طلب فإن ما تحت يده من المال ليس هو له فبعد أن مضت أيام قلائل سطا اللصوص على الجزائري وسلبوه حتى لم يتركوا له بيضاء ولا صفراء ثم بعد أن توفي الشيخ بقي ولده مولاي الحسين يقوم للمهاجرين بما كان يفعله معهم أبوه من قبله، وكان من جملة أولئك رجل جزائري كان في زمن صباه ذهب إلى حج بيت الله الحرام فكان يدعو الله في موطن الإجابة أن يرزق سبع بنات فقدر أن تزوج وهاجر من الجزائر إلى تطوان وولد له السبع بنات وكان ضعيف الحال فأخذ يتضجر من بناته ومن كفالتهن، فقال له يوما أحد الفقراء من أصحاب الشيخ الحراق لماذا تهتم ببناتك ولهن رزق معلوم؟ فقال (بالله الذي لا إله إلا هو إن بناتي خلقن بلا رزق إني أطلب الكرام وأقدم لهن ما يأكلنه لمتن جوعا) فبقيت نادرة يتنادر بها الفقراء. وكان سيدي محمد الحراق يطيب نفوس أصحابه بجميع الوجوه فذات يوم كان الشيخ ضيفا على سيدي محمد الحصار في جنة من جناته وكان مع الحصار قريبه سيدي عبد السلام أجزول وهو شاب غرير على جانب من الذكاء والقوة لا يفكر إلا في تجارته وعمله وشؤون صباه، ففي هذه المرة كان يقوم بخدمة الشيخ والحصار فلما خلا الثلاثة قال الحصار للشيخ: يا سيدي إنني أريد أن أغرس هذا الشاب في حياتي فإذا تكرمتم بتلقينه الورد فإن ذلك من منن الله علي وعليه، فدهش أجزول وطافت في رأسه الاضطرابات وكيف يصنع بهذا الواجب الثقيل الذي لا رغبة له في حمله، فأدرك الشيخ ما عليه أجزول من الخير فلاطفه وأدناه منه وقال: يا فلان أجب دعوة قريبك فإنه صادق الفراسة وإنني سأوسع عليك لأمر فسألقنك الورد ثم أنت غير ملزم بذكره كل يوم بل كلما تيسر لك فاذكر ولقنه الورد على هذا الشرط الذي أزال حيرة أجزول ثم صار يذاكره في شؤونه التجارية لتزول وحشته. قال أجزول فبينما أنا بعد ذلك بأيام مار في طريقي إذ قابلت الشيخ راكبا على بغله وأنا لابس أجمل اللباس كأحسن فتى موجود في تطوان فأوقف الشيخ البغل حين رآني مقبلا على زيارته، فلما سلمت عليه استوقفني ورفع ذيل الكساء فأخرج من جيب العباءة «العجمي» رسالة وردت عليه وقال إن له صحبة بفلان فهل تعرف خطته؟ فقلت نعم فناولني الكتاب وقال: لقد صعب علي قراءة

كتابته فاقرأ علي الرسالة، قال أجزول فأخذت رجلاي تصطكان من الهيبة والدهشة إلا أنني قرأت الكتابة كما ينبغي قال أجزول فذلك إذن الشيخ لي بقراءة الأسرار. ولقد كان أجزول من أدق الناس فهما وأشدهم استبصارا بمذاهب القوم وآرائهم وأحوالهم وقد كان يحفظ الفتوحات المكية عن ظهر قلب وإنه بعد أن توفي الشيخ سيدي محمد الحراق لازم سيدي محمد بن الأحسن وكان يضع فيه مولاي الحسين كل ثقته، فقد حدث أجزول أنه كان ذات يوم ـــ بعد وفاة ابن الأحسن ـــ في بيته إذ طرق الباب طارق فإذا به رسول مولاي الحسين يبلغني احتياجه إلى حضوري فقمت من ساعتي ولبست جلابتي وقصدت دار الشيخ، فإذا بمولاي الحسين جالس على رخامة باب الدار قد بسط له شيء فوقها فسلمت عليه فقبض على يدي وقال: هل أنت أجزول؟ لأن بصره كان قد كف فقلت نعم يا سيدي، وكان حاضرا ولده سيدي محمد فصرفه لحاجة من حوائجه فلما انصرف فتح كفه وقال انظر ما هذا؟ فقلت يا سيدي إن هذا قرطاس به عشرون لويزا ذهبيا فقال سبحان الله لقد أصبحنا وما في البيت ما يقوت النفر الواحد فحمدت الله وشكرته وخرجت لأجلس فلم أشعر إلا بيد تفتح يدي وتضع فيها شيئا فخشيت أن أدفعه لولدي سيدي محمد فيستقل بما فيه فوجهت إليك، والآن يا سيدي عبد السلام ادع الفقراء للمبيت عندنا فهذا رزقهم ساقه الله إليهم. وكان أجزول يحدث عن أخلاق ابن الأحسن بما لا قبل به إلا لأفراد قلائل من خيرة هذه الأمة فقد ذكر أنه كان كثيرا ما يجد ابن ألأحسن وكأنه في انتظاره فيقول له ماذا تفعل هنا يا سيدي؟ فيقول له أريد أن أزور سيدي فلانا فإنه من أصحاب سيدي محمد الحراق أخذ عليه العهد في تاريخ كذا ثم حرفته متاعب الدنيا عن زيارة الزاوية، فأقول له هلا أرافقك؟ فيفرح لذلك حتى إذا وصلنا إلى السوق تباطأ ابن الأحسن قليلا وأخذ ينظر في الدكاكين ويدخل يده في جيبه فيفهمه أجزول ويقول له يا سيدي هلا نشتري شيئا نهديه لأخينا في الله فلان؟ فيفرح ولا يكون جوابه إلا فتح الله عليك أبواب الخير، وكأنما قدمت له الدنيا بما فيها فلا نزور الفقير إلا ومعنا شيء وفي الكثير كان هؤلاء من الضعفاء المغمورين الذين يسكنون مع الجيران فيطول انتظارنا بالباب فإذا دخلنا دخلنا إلى بيت صغير أو مخزن فيه ذلك المخلوق الذي تنكر له كل شيء ولم يبق يحن عليه إلا قلب سيدي محمد ابن الأحسن وكان عدد هؤلاء كثيرا جدا. وبعد أن توفي

الشيخ سيدي محمد الحراق واجتمع لحضور جنازته والعزاء فيه خلائق كثيرة من سائر جهات المغرب خلا بعضهم إلى بعض وتذاكروا في شأن ما يفعلونه بعد وفاة الشيخ، فاقترح البعض منهم إقامة موسم ليوم وفاته وأخذوا يبدون آراءهم في شكل الموسم وصورته وابن الأحسن مع ذلك ساكت واحم إلى أن ضاق ذرعا فرفع رأسه وقال: إننا كنا على عهد الشيخ نعرف أن الموسم لا ينقضي عليه إلا بالدين رغم الاحتياطات التي يحتاطها وإن ما يجلبه الفقراء من الهدايا لم يكن يكفي لسد نصف النفقات ولكن الشيخ كان يتحمل النفقات ثم يفتح عليه فيسدد الديون، أما اليوم فإن مولاي الحسين على ما تعرفون لو جاءت إليه الدنيا بحذافيرها لما أصبح منها إلى الغد شيء فإذا كان منكم من يتحمل نفقات الموسم فذلك وإلا فلا تكلفوا دار الشيخ ما لا تطيق، فانقطعوا عن الكلام وأعرضوا عن تقرير الموسم ولم يمنعهم ذلك من أن يقوموا بالزيارات في أوقات غير ثابتة.

ولما توفي الشيخ سيدي محمد الحراق (1271هـ) كتبت في الحين الرسائل بذلك إلى جميع الجهات فطفقت الوفود تتوارد وبقي الشيخ مسجى في كفنه يومين كاملين واتبع الفقراء خطة أن كل مقدم من مقدمي الطريقة يدخل الغرفة المواجهة للطالع في الدرج وبها كان يستقر، ويدخل مع المقدم الفقراء الذين يترأس عليهم فيذكرون الاسم المفرد على الطريقة الحراقية وهي لا إله إلا الله مائة مرة وبعدها سيدنا محمد رسول الله عليه سلام الله مولانا محمد رسول الله عليه سلام الله حبيبنا محمد رسول الله عليه سلام الله ثم اسم الجلالة الله ثلاثمائة مرة بعدها سيدنا محمد رسول الله الخ ... وقد حدث ابن مقدم قبيلة جبل الحبيب عن والده أنه كان مع أبيه وهو صغير السن فلما أخذ الفقراء يذكرون الاسم المفرد ــ الذكر السابق ــ شاهد الثوب يرتفع عن وجه الشيخ من تأثير الذكر كأنه يذكر ويتنفس فالتفت مندهشا إلى والده وأشار له إلى الحركة الظاهرة الصادرة عن تنفس تحت الكفن فوضع أبوه سبابته على فمه إشارة بالسكوت.

وكان يشاع في هذه الأيام (1271هـ) أن النصارى سيهاجمون تطوان فقر رأي الراشدين من الأصحاب على أن يدفن الشيخ بمدينة فاس، وقبل تهيئة ما يلزم لنقله يدفن مؤقتا في الزاوية الحراقية من تطوان وعلى أساس نقله في تابوته فركبت فيه حلق الحديد

والأشرطة والحبال حتى إذا طرأ طارئ لم يكلف الأمر أكثر من الحفر ثم حمل التابوت. وقدر أن مدة الخلاف طالت وأتت أوقات شبيهة بالهدنة إلى أن كانت سنة 1276هـ فكانت وقعة الحرب المغربية الإسبانية التي دخل فيها الإسبانيون إلى تطوان و لم تنقض على وفاة الشيخ إلا ثلاث سنوات وبعض أخرى، ولكن الناس عندما هاجروا المدينة نسوا قضية حمل الشيخ ويظهر أن مسألة نقله لم تكن من رأي سيدي محمد ابن الأحسن الذي قام مع مولاي الحسين بالهجرة إلى فاس و لم يهتم بنقل الشيخ، فأسدى بذلك معروفا إلى تطوان إذ بقيت بها رفات سيدي محمد الحراق الذي آثرها في حياته على سائر مدن المغرب فما ينبغي أن تخالف إرادته في الاستمرار الأبدي بالتربة التي نما فيها وظهر أمره وفتح عليه بما لم ينله إلا الخواص من هذه الأمة.

و لم يخلف الشيخ من الولد إلا مولاي الحسين وكان يقول في حقه: إن ولدي هذا سينال درجة القطبية في الوقت الذي يصبح فيه لا يملك درهما ولا دينارا، فكان من المقادير أن أتى مولاي الحسين على كل ما خلفه الشيخ من عقار ورباع وصامت وناطق حتى إن العدلين كتبا في الشهادة بعد موته: مات مولاي الحسين و لم يترك إلا رحمة الله الواسعة، وكان كثير التزوج لم يعرف أنه في وقت من الأوقات كان في عصمته أقل من أربع حرائر وحدثت بعض أهله أن أزواجه لم يكن يتركن أحدا يتحدث عن فتاة فإذا انجر الحديث وضعن سبابتهن على أفواههن يشرن للمتحدثة بالسكوت حيث كان كفيف البصر، فإذا وقع ونزل وسمع بذكر فتاة من الفتيات اجتمعت الأزواج وقلن فيما بينهم لتنتظر إحدانا الطلاق وكذلك يكون الأمر فإنه يختار واحدة لطلاقه ثم يتزوج بهذه الفتاة الجديدة وطالما كان يلومه على ذلك الفقراء فكان يمضي في خطته وهو يبتسم. ولقد ترك الشيخ سيدي محمد الحراق أموالا كثيرة أتى عليها مولاي الحسين بالبيع حتى لم يترك منها شيئا وحتى جنة الشيخ خارج المدينة بالمكان المدعو بأبي جراح باعه مولاي الحسين وكان الفقراء لا يستغنون عنه فهو بمثابة الزاوية الصيفية، فلما رأوا أن موطن أجمل الذكريات قد بيع قاموا وجمعوا ثمنه فيما بينهم ثم ردوه على مولاي الحسين فباعه ثانيا ثم ردوه فباعه ثالثا فاشتروه لا على أنه يرد لمولاي الحسين بل ليبقى حبسا يتتره فيه أعقاب الشيخ ويتسع فيه الواردون من

الفقراء وبهذه الحيلة بقي البستان تابعا للزاوية. وقد ولد لمولاي الحسين كثير من الولد حتى كان يقال إن أولاده إذا ناموا متراصين وأطلق عليهم حائك صوف ستر المتطرفان منهما بأهدابه لا يصلهما شيء من نسجه، وكان أحب شيء إليه أن يكون الفقراء في اجتماع دائم وهو ينفق عليهم. وعندما غلبت جيوش أودونيل[1] على جيش مولاي العباس[2] (1276هـ) وأوشكت تطوان على السقوط غادرها أغلب الناس ولم يبق منهم إلا القليلون، وقد تفرق التطوانيون طرائق قددا فأخذ كل فريق مذهبا من المذاهب فالبعض قصد القبائل والبعض أم شفشاون وقوم جعلوا وجهتهم القصر الكبير وجماعة قصدت فاسا عاصمة القطر وكان من هذه الجماعة مولاي الحسين الذي أخذ معه حرم أبيه وأولاده وذريته وذهب في صحبته سيدي محمد ابن الأحسن فبقوا بفاس إلى أن وقع الصلح بين مولاي العباس وأودونيل، فبعد ذلك رجعوا إلى تطوان فإذا بجيش الاحتلال قد أخذ من الزاوية الحراقية مستشفى للجرحى من رجال الجيش. وكان فيمن بقي بتطوان من الناس سيدي عبد السلام أجزول فقد حدث أنه يوم الاحتلال بينما كان بالسوق الفوقي إذا بهرج الفرسان ومرجهم وأمام الجميع رجل طويل على فرس أبيض (بريم[3])، فلما قرب منه وقف الفارس فوقف بوقوفه جميع من خلفه وترطنوا فيما بينهم دون أن يفهم أجزول كلمة واحدة، قال ففهمت أنهم يطلبون معسكر الجيش فتقدمت أمام الفارس وأخذت في السير فتبعني وتبعه من خلفه فلم أزل سائرا بهم إلى أن أوصلتهم إلى القصبة ثم رجعت وتركت الناس على ما هم عليه بعد أن عرفوا من مشهد القصبة أنها حصن المدينة. وكان أجزول يزور الزاوية الحراقية في هذا الوقت فحدث أن القوس المقابل لوجه الداخل إلى الزاوية بعد صعود الدرج الذي به اليوم قبر سيدي إدريس الحراق كان مخزنا للأغذية وقد ركزوا مسامير معوجة الرأس في الحائط يعلقوا عليها اللحوم، وكانت المسامير لا تزال في مكانها إلى آخر يوم فلقد كانت قريبة من السقف فلم تدع حاجة لإزالتها فبقيت أثرا لهذه الذكرى التي أصبحت فيها الزاوية مستشفى للأبدان زيادة على أنها مستشفى للأرواح والنفوس. وذكر عن أجزول أنه

---

(1) الجنرال ليوبولدو أودونيل رئيس الجيوش الإسبانية التي احتلت مدينة تطوان في حرب سنة 1860.

(2) أمير علوي عينه أخوه السلطان محمد بن عبد الرحمن خليفة عنه وأسند إليه رئاسة القوات المغربية في حرب تطوان (1859. 1860.

(3) الجنرال خوان بريم إي براط من أشهر القواد الإسبانيين في حرب تطوان.

زار امرأة عجوزا طاعنة في السن خلفها الجهد وقلة النصير فسألها حالها فوجدها تحمد الله وتشكره وقامت فأرته خيرا كثيرا فسألها عن ذلك فقالت: إن جماعة من الروم يسكنون بالقرب مني وقد صعدوا إلى سطح الدار فحسبوها فارغة فأطلوا علي من الحلقة وأخذوا يرطنون بعجمتهم فأصابني خوف شديد ثم إني خرجت إلى وسط الدار وأخبرتهم بأني امرأة فقيرة ففهموا حالي، فذهب البعض منهم ثم رجع وفي يده قفة كبيرة ممتلئة خبزا وإداما فأدلاها لي من ضوء الحلقة ففسختها وأخذت ما فيها ثم ربطتها ودعوت لهم فأخذوا كل يوم يفعلون هذا معي ختم الله عليهم بالإيمان. وكان أجزول يتفقد الدور من ذوي قرابته وغيرهم ليعرف أحوال المستضعفين فكان أجزول بهذا من ذوي الجدة الذين لم يبارحوا تطوان، فبعد أن رجع الناس صاروا يقعون في أعراض المتخلفين مع أنه كان يقوم بوظيف نبيل كما سبق ثم بعد رجوع الناس أخذ كل واحد يعيد آثاره لما كان عليه ويمحو منه أثر الفتح والاحتلال فعادت الزاوية إلى ما كانت عليه واطمأن الناس.

وكان لمولاي الحسين عدة أبناء كان منهم سيدي أحمد وقد رزق مزمارا من مزامير آل داود فلم يكن يعرف في المغرب صوت له سحر وجمال كصوت سيدي أحمد الحراق، وإن فاسا مركز الطرب والغناء كما هي مركز العلم والأدب والفن ومع ذلك كان إذا حضر سيدي أحمد حمل راية الأصوات الحسنة الحلوة الجميلة، وكان يذكر أمره للشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون وهو ما هو في حبه للفن والغناء فكان يتصامم عن قول أصحابه ثم صاروا يلحون عليه في أن يأمر بإحضاره فلما أكثروا عليه قال: لم يبق لعبد السلام شغل إلا أن يبعث لحفيد القطب يغني له؟ فلما وصل هذا النبأ إلى سيدي أحمد الحراق ورقت عيناه بالدموع وقال: كم يكن لي من الشرف العظيم أن يطرب القطب ابن ريسون من صوتي ثم قام من ذات نفسه وحضر بمجلس سيدي عبد السلام ابن ريسون فأطرب وطرب على أساس هذا التعظيم والإجلال، وإنما يعرف الفضل لذوي الفضل ذوو الفضل، ولم يكن لسيدي أحمد هذا عقب.

وقد توفي سيدي محمد ابن الأحسن بفاس فدفن في قبة خارجها ثم لما مات مولاي الحسين سنة 1290هـ دفن بجوار ابن الأحسن وقبرهما معروف. وترك مولاي الحسين

من الذكور الذين لهم عقب سيدي محمدا وسيدي الطيب وسيدي عبد الواحد وسيدي إدريس وسيدي البشير، أما سيدي محمد ــ وهو أكبر الإخوة والذي تولى أمر الزاوية ودار أبيه من بعده ــ فإنما خلف البنات و لم يترك ذكرا، وأما سيدي الطيب فخلف سيدي الخضر المولود حوالي سنة 1329هـ، وأما سيدي عبد الواحد فخلف من الذكور سيدي الحسين وسيدي أحمد، وأما سيدي إدريس فخلف خمسة من الذكور هم سيدي عبد الله المولود حوالي سنة 1322هـ وسيدي محمد المولود حوالي سنة 1326هـ وسيدي عرفة المولود حوالي سنة 1330هـ وسيدي المكي المولود حوالي سنة 1332هـ، وهؤلاء الأربعة أشقاء أمهم الشريفة مولاتنا العزيزة بنت سيدي محمد ابن عبود وهي أخت شقيقة لسيدي أحمد بن محمد ابن عبود المثري الشهير، ولسيدي إدريس ذكران آخران هما سيدي عبد العزيز المولود حوالي سنة 1346هـ وسيدي عبد المالك المولود حوالي سنة 1351هـ وأمهما الشريفة مولاتنا فاطمة بنت سيدي محمد العلوي وأخوها هو العدل سيدي عبد السلام بن محمد العلوي، وأما سيدي البشير ــ وهو لا يزال على قيد الحياة ــ فله ثلاثة من الأولاد الذكور سيدي 154154 المولود حوالي سنة 1333هـ وسيدي محمد فتح الله المولود حوالي سنة 1340هـ وسيدي البشير شقيق سيدي إدريس.

قلت: وما ذهبنا إليه من أن وفاة الشيخ سيدي محمد الحراق كان سنة 1271هـ وهو ما ذهب إليه صاحب الاستقصا في صفحة 206 من الجزء الرابع وهو الصحيح وإن كان خلاف ما هو مكتوب على جدار ضريح الشيخ، فإن تلك الكتابة لم يقل بها أحد من أهل التحقيق وإنما هي عمل معلم يشتغل بصنع الزليج وعندما ألصقت بالجدار لاحظ الفقراء الخطأ الذي فيها وعزموا على إصلاحه ولكنهم تركوا مكانها مشتغلا بها ريثما يتم العمل في كتابة أخرى وتعلق مكانها فأدى الإهمال إلى أن بقيت بمكانها. ولقد كان الشيخ سيدي إدريس يحدثنا بأن تلك الكتابة عارية عن الصحة وكان يذكر في صراحة أنه لم يمض على وفاة الشيخ سيدي محمد الحراق إلا أربعة أو خمسة أعوام في قبره حتى احتل جند سبتة مدينة تطوان، وذلك يؤيد ما ذهب إليه الناصري الذي اعتدنا منه الضبط والتحقيق وربما يكشف الحال عن بعض مخطوطات للشيخ تأخر تاريخها عن

سنة 1261هـ [بل 1271هـ] فعلى الباحث أن لا يعتمد على كتابة لوح الضريح والعلم كله لعلام الغيوب.

بسم الله الرحمن الرحيم

نشأة سيدي إدريس الحراق

يقول سيدي إدريس بن الحسين بن محمد الحراق عن نفسه إنه لا يذكر عن سيدي عبد السلام ابن ريسون إلا يوم وفاته حيث كان الناس في هرج ومرج والناس يتحدثون بوفاة السيد. وإذن فقد كان سيدي إدريس في السنة التي توفي فيها سيدي عبد السلام ابن ريسون في نحو الثالثة من عمـــره وكانت وفاة سيدي عبد السلام ابن ريسون سنة(1299هـــ)، فتكون ولادة سيدي إدريس الحراق حوالي سنة 1296هـــ وكانت وفاته يوم الأحد 5 جمادى الآخرة عام 1353هـــ موافق 16 شتنبر سنة 1934م فعمره 55 سنة، وتوفي والده مولاي الحسين وهو غير مدرك وذلك حوالي سنة 1354هـــ[1] فكفلته أمه. وقام بكفالة دار الشيخ بكل ما فيها سيدي محمد بن الحسين الحراق وقد عانى في تربية إخوته شدة حيث لم يترك له أبوه من شؤون الدنيا إلا مسؤولية ترزح تحتها الأعناق وكثيرا ما كانت تكتفي دار الشيخ بأكلة خشنة في الصباح وأخرى مثلها في المساء، وقد نال سيدي محمد بعض الوظائف الحكومية وحصل على وظيف العدالة فكان يتغلب بذلك على هذه العائلة الكبيرة من أهل بيت أبيه وجده مضافا إليها عائلته هو، وقد كان الناس وفقراء الزاوية يعرفون له هذا الفضل فكانوا لا يفترون عن المساعدة سيما وقد ترك لهم الشيخ سيدي محمد بن عبد الواحد الحراق الوصية بداره

---

(1) خطأ في تاريخ الوفاة إما بالسهو وإما عند الطبع بل حوالي سنة 1290هـ بفاس كما مر بنا. وهذا التاريخ يتناقض مع مولد ابنه سيدي إدريس حسبما هو مبين أعلاه، وإذن فالمرجح هو أن مولد هذا الأخير كان في سنة 1286هـ وليس في سنة 1296هـ ووفاة والده الحسين وهو غير مدرك عام 1290هـ. وأما ذكره عن وفاة الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون وهو ابن ثلاث سنوات فلا يعقل إلا إذا كان تاريخ ولادته هو ما افترضناه.

وأهله فكان يقول لهم: « عليكم بزيارة هذه الدار ولو لم يبق فيها إلا الفئران » وكأنه كان يشير بالفئران إلى هؤلاء الأطفال الصغار، وقام مع هذا سيدي محمد بشأن الزاوية وتلقين الأوراد غير [أن] انهماكه في الكسب لبني أبيه وبنيه لم يكن يترك له الوقت اللازم للقيام بالزاوية وشؤونها فكان يقوم بذلك سيدي عبد السلام أجزول الذي تابع قدم سيدي محمد ابن الأحسن وقدم الشيخ الأكبر سيدي محمد الحراق، فكان بمجلسه مجلس وقار وعلم وأدب وكان ذا شخصية قوية تطغى على شخصية سيدي محمد سيما وله من الجاه والنفوذ ما لم يكن لسيدي محمد منه إلا القليل، فكان لذلك يغار من أجزول إلى درجة أن يطرده من الزاوية فكان أجزول ينصرف تارة لمسجد سيدي الحاج علي بركة وتارة ينصرف إلى زاوية سيدي محمد الخلنجي ـــ من أعيان أصحاب الشيخ سيدي محمد الحراق ـــ فإذا انصرف سار في أثره معظم الفقراء ولم يبق بالزاوية الحراقية إلا قليل من الناس من المشاغبين، ولم يفكر أجزول قط في بناء زاوية لنفسه مع أن من هم أقل منه خطرا بحيث لا يصلون إلى كعبه قاموا ببناء الزاوية لأنفسهم واستقلوا بشؤونهم وكيف يفعل ذلك أجزول وهو الرجل الذي لا يملأ عينه أحد في الدنيا كما يملأها الشيخ سيدي محمد الحراق فكان يود أن لو جمع الدنيا بأسرها وجعلها تأخذ بالطريقة الحراقية، وقد تعلم من ابن الأحسن أن يصرف كل حبه للزاوية ودار الشيخ فلذلك كان يلازم الزاوية ولا يفارقها إلا مضطرا مرغما لأنه لا يحب أن يعارض سيدي محمد بن الحسين معارضة تؤثر عليه رغم كون سيدي محمد لا يقصر من جهته في إذاية أجزول. وأظن أنني سمعت أن الرجلين اجتمعا ذات يوم بعد أحد الخلافات التي عرف فيها سيدي محمد أنه متحامل على أجزول فحضر وقت افتتاح الذكر فأشار أجزول إلى سيدي محمد بأن يفتح فاستحيى هذا، فقال له أجزول يا سيدي محمد هل من الآن فما بعد سنتذاكر؟ يشير له أن الأمر مفروغ منه وأن أجزول لم يكن من قصده في يوم من الأيام أن يتصدر للمشيخة مستقلا بنفسه. وكان سيدي محمد شديد التأثر والانفعال على عادة أصحاب القلوب الصالحة الذين يتأثرون بسرعة ويظنون الخير في كل من يحدثهم بشيء. قال سيدي إدريس وكنا ونحن صغارا كثيرا ما نسمع تخاصم الفقراء واصطلاح الفقراء، وهكذا مرت هذه الفترة فإذا اجتمعت الكلمة لازم الجميع زاوية الشيخ وحضر أصحاب الأذواق وطابت المجالس. قال

سيدي أحمد حلحول رحمه الله ولقد كنا نجتمع الجمعة تلو الجمعة وتمتلئ الزاوية بالفقراء فيقضون الوقت كله في المذاكرة دون أن يقيموا حلقة الذكر، فإذا حضر وقت صلاة المغرب صلوها في أول وقتها ثم عادوا إلى المذاكرة إلى أن يصلوا العشاء حتى كانت الجمع التي تقام فيها حلق الرقص قليلة بالنسبة للتي لا رقص فيها. وكان أجزول ذا صوت صحل جميل النبرات وكان معه من أصحاب الشيخ جماعة من المطربين فأخذوا ينظمون قصيدة البردة للبوصيري وجعل لكل قطعة منها صوتا من الأصوات بعد أن كانت تتسرد سردا كما لا تزال تتسرد في قبائل الجبل، فأحدث فيها وأجزول ومن جرى مجراهم أنغاما على عدد نوبات الموسيقى الأندلسية الإحدى عشرة وأصبحت تقرأ بتطوان على الصورة التي تقرأ عليها اليوم، وكان الويدانيون خير حلقة اتصال ربطت بين الفقراء الحراقيين وأصحاب سيدي عبد السلام بن ريسون فأجمعت الطائفتان على نغمات البردة بصنيعة واحدة. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لهمزية البوصيري فهذه اختلف تطريبها فيما بين الحراقيين والريسونيين فوضع لها الحراقيون أنغاما ووضع لها الريسونيون أنغاما أخرى، ولذلك تجد الحراقيين ومن تبع مدرستهم يقرؤون الهمزية على طريقة أساتذتهم وتجد الريسونيين يخالفونهم في أساليب التطريب فيقرؤون الهمزية على نسق المدرسة الريسونية وكانت الزاويتان تتسابقان في هذا النوع من الفن. ولقد كنا نسمع في بعض الأحيان من الشيخ سيدي إدريس أنغاما في البردة والهمزية لم نسمعها من سواه حيث كان المطربون الأولون يستعملونها ثم اختصرها من بعدهم لصعوبتها. وكان أجزول يحفظ الموسيقى الأندلسية كلها بأبياتها وصنائعها وسائر أدوارها وكانت الاحتفالات المتتابعة تساعد كثيرا على فشو الصناعة وتقدمها سيما وبالمدينة مدرستان متحابتان في هذا البيان المدرسة الريسونية والمدرسة الحراقية. وقد تابع الناس قراءة البردة بنغماتها الجديدة حتى في الجنائز فكان الناس يستدعون الفقراء الحراقيين لقراءة البردة بنغماتها الجديدة وكان أجزول يحضرها على رأس الفقراء، وكان من العادة أن يعطى كل واحد من قراء قصيدة البردة على رؤوس الإشهاد فكان سيدي عبد السلام أجزول يقبض نصف خبزته ويضعه أمامه حتى لا يخجل المساكين المحتاجون فإذا هم بالقيام وضع نصف الخبزة في جيبه إلى أن يخلو بأحد المساكين فيقدمه له صدقة، وكان سيدي محمد زوزيو وغيره يتبعه في ذلك.

وكان أجزول يقول إن الفقير الصوفي لا بد له من قسطه من التجريد وحظنا منه استلام نصف الخبز على مرأى ومسمع من أقراننا وذوي طبقتنا، وكان أجزول يحرص الحرص كله على ولده سيدي محمد أن يحضر اجتماعات الفقراء وينشد الأناشيد حتى صار في ذلك نسخة من أبيه. ولقد أتى وقت لم يكن في تطوان من يحفظ بيتي الطويل إلا سيدي محمد بن عبد السلام أجزول وعنه أخذها من أخذها في الأيام الأخيرة، ونحن الآن نتحدث عن تطوان بعد رجوع المهاجرين إليها وفي أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجريين فهذا هو الوقت الذي ازدهرت فيه المدرستان وأخذ فن الطرب والموسيقى مركزا ساميا حتى أن بعض آل ويدان ـــ وكانوا من أهل الجاه والثراء ـــ ذهب إلى فاس بقصد التجارة وأخذ معه رأس مال كبير وبقي بعاصمة المغرب مدة سنوات ثم رجع إلى تطوان، فلما سأله أبوه عن تجارته أخذ بيده وأراه عدة صناديق فلما فتحها لم يجد بها إلا دفاتر القصائد وصنائع الغناء من كل صنف ونوع فهان الأمر على الأب و لم يعد هذه التجارة خاسرة. وقد اجتمع فريق من المطربين في ليلة شاتية بإحدى جنات تطوان وأغلقوا النوافذ والأبواب اتقاء البرد ثم أخذوا من المساء يغنون وكلما انتهى ميزان دخلوا في ميزان إلى أن شفوا غلتهم، فالتفت البعض منهم وقال لقد اشتد الحر بالمكان فافتحوا نافذة فلما فتحوها إذا بالشمس طالعة فقد انصرم ليل الشتاء بطوله دون أن يشعر أحد بمرور الوقت. وكان لسيدي عبد السلام ابن ريسون غرام بالطرب أدى به إلى اختراع آلة جديدة من أدواته ذات وتر واحد سماها «محسن النغم»، وكان من أصحابه من أخذهم الفن جملة وتفصيلا فلم يترك فيهم بقية لغيره منهم الحاج عبد الكريم بن المهدي بنونة أخو الحاج العربي فقد كان الرجل قد استحال إلى فن وذاب في الموسيقى ذوبانا فكان في بيته سائر أدوات الطرب يعزف عليها جميعها زيادة على عزفه المستمر بمحضر سيدي عبد السلام ابن ريسون، وقد رق شعوره ودق إحساسه إلى درجة الذهول حتى أن رقة الشعور حملته ذات يوم على أن يلبس ملابس النسوة في ذوق لطيف وينضد مفاصله بالزهر ثم خرج في طربه إلى الشارع يغني ويطرب حتى قال لهم السيد: إن فلانا قد أخذه الجمال فلا يرده إلى حسه إلا شيء من مشاهدة الجلال فمروا به على السجن والمارستان ليرى بعينه الشقاء فذلك شفاؤه فكان الأمر كما قاله السيد. وكان الشيخ سيدي إدريس الحراق إذا حدثنا بهذه

القصة وكثيرا ما حدثنا بها يغلب عليه الوجد ويختنقه البكاء ويذكر لبنونة من مقام الجمال ما يجعله منضما إلى طبقة عتبة الغلام وابن وفا، وكان يقول انظروا إلى إخلاصه لله في فنه وعمله كيف أنتج[1] له أنه نزل به الموت وهو صحيح معافى يقرأ همزية البوصيري بضريح سيدي عبد السلام ابن ريسون فلقد أصابته إغماءة شديدة بين الأصوات الحسنة وروائح الطيب ثم حمل إلى أهله بدار الحاج العربي بريشة فلم يمكث إلا لحظات حتى أسلم الروح لخالقها وذلك في أوائل العشرة الرابعة من القرن الثالث عشر هجري[2]. وبنونة هذا كان يجد الموسيقى في كل شيء ويستخرجها من نبرات سقوط المياه ومن هبوب الرياح ومن القصيدة العصماء والفتاة الحسناء، وقد حدثنا المرحوم السيد الحسن النبخوت ـــ أحد أصحاب سيدي عبد السلام ابن ريسون ـــ أن الأصحاب كانوا جالسين يشربون الشاي ولم تكن لديهم أدوات طرب فأخذوا يترنمون بقطعة موسيقية، فدعت بنونة داعيته إلى الطرب والدق على أدوات الطرب فأفرغ الكؤوس البلورية وأخذ يصب فيها الماء فملأ بعضها وجعل بعضها إلى النصف وأقل وأكثر إلى ما فيه قطرة إلى الفارغ ثم أمسك بقضيب صلب فساوى بين نغم الكؤوس البلورية كما يساوي بين أوتار العود إلى أن تم له منها ما يريد، فأخذ يعزف عليها عزفا محكما مستقيما فأتى بأداة جديدة من أدوات الطرب ولكن أين هي الملكة التي يمكنها أن تضع المقاييس الصادقة التي لا تزيد بشعرة ولا تنقص بشعرة عما تقتضيه أصول الفن. وبينما القوم في فنهم واستغراقهم فيه وصرفهم ذلك في سبيل الاستعانة على العبادات بما تحدثه من رقة وقابلية إذا بجماعة من أصحاب الفقه والورع يشددون النكير على هؤلاء القوم ويحرمون الطرب فكانت أقوالهم تصل إلى السيد فيقول: إن كان ما نحن فيه مباحا فما كنا لنتورع عنه وإن كان حراما فهو من الذنوب التي نستغفر الله منها. على أن سطوة الزاويتين الحراقية والريسونية لم تتأثر بترهيب المتنطعين وقد ارتفع شأن الموسيقى بتطوان حتى ضرب المثل المغربي القائل «ولدت الموسيقى بفاس وتربت بتطوان».

وفي هذه الظروف كان الطفل سيدي إدريس الحراق ينشأ طفلا صغيرا فقد سبق

(1) لعل الصواب انتهى.

(2) بل الصواب الرابع عشر هجري.

أن ولادته كانت حوالي سنة (1296هـ) [1] وفي بيت الحراق نبتت أسنانه الأولى فكان في صباه ليس على شكل الأطفال العاديين وإنما كان من الشواذ الذين كانوا يرون الغيب من تحت ستر رقيق، وقد بقي سبع سنين لا يستطيع الوقوف على قدميه وربما مكث الأيام العديدة لا يذوق فيها طعاما ولا يشرب شرابا، وكانت رائحة العود الهندي أحب شيء إليه فكانت تقوم له محل الطعام وكان أهله يعتقدونه شديد الاعتقاد قد ألبسوه جبة خضراء ووضعوا فوق رأسه خمارا أبيض فكانت النسوة يقصدنه من سائر أطراف المدينة، وكان أزواجهن يجزن لهن ذلك فليس في الأمر شبهة فما هو بالشبوه ولا بالساحر وإنما هو طفل سليل العلماء والأولياء يلتحق في نسبه بأشرف المرسلين صلى الله عليه وسلم، وكان ينظر بنور بصيرته كأنما يبصر بنور بصره فإذا أحدقن به ألقين البخور في المجمر ثم ذكرن الهيللة حتى تجتمع إرادة الطفل فيخبر صاحبة الحاجة بحاجتها ويدلها على ما تفعل وينبئها بما في خاطرها فترضخ له بيسير من الدراهم ثم تنصرف مقضية الحاجة. فكان من مقادير الله أن آل البيت كانوا يجدون قوتا من جراء هذه الموهبة فكأنما خلق سيدي إدريس ليمد الناس بأرزاقهم فلقد كان سببا في رزق أهله وهو طفل ثم دام رزقا لهم ولغيرهم إلى أن أتاه اليقين وقد أوثرت عنه حكايات في هذا الصدد، ونشأ على حالته هذه من العبادة والذكر والطهر إلى أن صار له من العمر نحو أربع عشرة سنة فتعلقت رغبته بأن يأخذ طريق القوم وأن يصحب شيخا من أهل الله. وكان أخوه سيدي محمد رحمه الله لا ينتظر أن ينظر أحد من بني أبيه إلى غيره بل وإلى غير سند يتصل بجده سيدي محمد الحراق، وحينما كان سيدي إدريس يقرأ في كتاب من الكتاتيب قبض الله له ولدا يعظمه ويجله ويذب عنه وهو المرحوم الفقير الذاكر السيد عبد الغفور ابن كيران فقد كان هذا يعتقد في سيدي إدريس ويخدمه من كل قلبه وجوارحه وكان أكثر منه سنا بكثير وقد دامت هذه الصحبة بين الرجلين على ما كانت عليه في زمن الطفولة إلى أن لقيا الله عز وجل. وكان ابن كيران حسن الصوت فكان يجتمع مع بعض رفاقه على الشيخ سيدي الحاج عبد القادر بن أحمد ابن عجيبة وكان ذا أحوال وعلم يغلب عليه السكر أكثر من الصحو وكان في أول الأمر يجمع عليه الناس بقصد تذكيرهم ووعظهم وهدايتهم بأحد

(1) بل سنة 1286هـ كما بينا سابقا.

المساجد الصغرى، وكان يأتي رجل من أعيان هذه المدينة وهو سكران من الخمر فيدخل حلقة الذكر فيفرح لذلك الشيخ سيدي عبد القادر ابن عجيبة وهو يقول: إن السكر يغلب على فلان حتى تشم منه رائحة الخمرة الحسية و لم يكن يظن أنه سكران سكرا حقيقيا. وكان أجزول إذا ذكر له حال الشيخ سيدي عبد القادر ابن عجيبة يقول إنه شيخ طريق والمشايخ كثيرون ولكننا نريد طرازا من شاكلة سيدي محمد الحراق، ورغم ما كان يحمله له أجزول من التعظيم فإنه كان لا يكلم ابن عجيبة فإذا سئل عن ذلك قال لا أريد أن أتصل به فإنني إذا فعلت فعلت عن نية وصدق فيمدني بحاله من الجذب ولا رغبة لي في ذلك. وقد جر ابن كيران سيدي إدريس إلى مجلس ابن عجيبة فرأى حالة البساطة وسمع كلاما لا تشوبه صناعة ولا تزويق ولما عرف سيدي إدريس قال له لقد بسط لي جدك كساءه فجلست عليه والآن عرفت تأويل ذلك فلقد كان رضي الله عنه يشير لي إلى تربيتك، ثم تردد سيدي إدريس مدة على ابن عجيبة وبعدها طلب منه أن يلقنه الورد فامتنع من ذلك عدة أيام وفي النهاية لقنه الورد وقال له: لقد قال أبو العباس المرسي لابن عطاء الله لا أرضى لك بمقام جدك وأنا أقول قول المرسي: والله لا أرضى لك بمقام جدك ولكن بزيادة التصوف إن شاء الله.

وبعد أن بلغ الخبر إلى سيدي محمد الحراق بأن أخاه سيدي إدريس قد أخذ الورد عن سيدي الحاج عبد القادر ابن عجيبة غضب غضبا ما عليه من مزيد وحاول أن يصد أخاه على عمله بالقوة فضربه ضربا مبرحا، وبلغ الخبر إلى ابن عجيبة فساءه الأمر جدا حتى إذا حضر بمجلسه سيدي إدريس قال له: قل لأخيك إن ابن عجيبة يقول له إن كل ضربة يضربك بها فإنه يستقص منه بعشر أمثالها فليقلل أو ليكثر، فلما وصل النبأ إلى سيدي محمد خاف من التهديد فإن لكلام الولاية صولة سيما وقد تواترت كرامة ابن عجيبة في هذا الشأن، وكف سيدي محمد عن ضرب أخيه ولكنه تصدى له بالإذاية من جميع الوجوه وبلغ الأمر به إلى أن طرده من البيت، فلازم سيدي إدريس الزاوية الوزانية يبيت بها ويظل في وجه النهار يتكفف الناس على طريقة التجريد وللمرة الأولى عند مد يد السؤال بأمر الشيخ أخذ يذكر الهيللة جهارا ــ وكان حسن الصوت ــ فأصاب الناس ذهول حتى أنه إذا كان يمد يده بالسؤال لشخص لا يشعر ذلك الشخص بماذا يفعل، وقد بلغ من تأثر رجل خراز أنه ناوله فردة نعل وهي في قالبها دون أن

يشعر بما فعل وأغمي على البعض منهم فكان ذلك يزيد في حنق أخيه سيدي محمد.
قال سيدي إدريس و لم أذكر حياة ألذ من المدة التي قضيتها بالزاوية الوزانية فقد كنت أظل في التسول وأحمل القفة بما فيها إلى الزاوية الوزانية فأطبخ ذلك ويأكله معي من حضر من الناس وبالأخص قيم الزاوية الوزانية سيدي أحمد العمراني ـــ وكان رجلا صالحا خفيف الروح ـــ والسيد عبد الغفور ابن كيران وغيرهما، فإذا جن الليل ذهب كل واحد إلى حال سبيله وبقيت منفردا أعاني برد الشتاء وطول ليله وكنت أقضي الليل في التهجد والذكر فإذا حصل الأنس أشعر بأن صوتا يذكر معي وأتأكد فإذا بالصوت صوت حقيقي ما في ذلك ريب ولا شك وفي الكثير كان يأتي من جهة القبر المبني تحت قوس صغير عن يسار القائم في وسط المحراب مستقبلا للقبلة بالزاوية الوزانية. ولأول مرة قمت فيها بالسؤال أخذت ما حصل عندي وكان شيئا كثيرا فقصدت به الشيخ ابن عجيبة ودفعته له فما قبله مني ورده ودعا لي بخير، وإني ما كنت أستطيع أن أقصد الزاوية الحراقية فقد طردني أخي سيدي محمد منها كما طردني من الدار فكنت أقصدها في زلف من الليل حينما تنام العيون وتهدأ الأصوات، وبينما أنا بالزاوية في داج من الليل إذا بي أحس بشخص يدخلها فلما صعد الدرج وكنت في ظلام وكان بيده فانوس مضيء فرآني على ضوئه فلما يميزني أما أنا فقد عرفته من أول ما دخل الزاوية فلا يمكن أن يخفى عني صوت سيدي عبد السلام أجزول، فأخذني الدهش كيف يعمد رجل في مثل جاه أجزول إلى أن يقصد الزاوية منفردا في حالك الظلام فالمدينة مظلمة الشوارع لم تكن بها أنوار تضيء بالليل و لم تكن مرصوفة رصفا جيدا بل إن أغلب حجارة الرصف مقلوعة مبعثرة تجعل السير عسيرا وتعرض المار للسقوط، وعندما عرفني أجزول صاح بي من هذا؟ السيد إدريس أنت؟ أنا معك ثم قضينا الباقي من الليل في تهجد وذكر وكنت أجد في أجزول نعم المؤنس والسلوى، وكنت إذا اشتقت إلى أمي أختار الأوقات الليلية التي يكون فيها جفن أخي سيدي محمد نائما فأصل رحمها وربما قصدتني إلى الزاوية الوزانية فتبكي وأبكي معها ولكن لا سبيل إلى الرجوع عن الطريق، وقصدت ذات مرة الشيخ ابن عجيبة وتضرعت بين يديه وشكت له مما تقاسيه وأقاسيه من أخي وأن السبب الأكبر في ذلك إنما هو للخراب وللتجريد، فإن الشيخ كان قد أوصى عندما أخذت عنه الورد أحد الفقراء

بأن يحضر له عصا طولها أربعة عشر شبرا فلما أحضرت أعطانيها وأمرني بأن أحملها في السوق فكانت هذه العصا وحدها كافية لإلفات النظر إلى حد بعيد، وراودت الشيخ على أن يعفيني من التجريد فرد عليها بقوله له أن يختار واحدة من خلال ثلاث: فإما أن يتسول وإما أن يسيح وإما أن يذكر في الأسواق، فطال تحينها أن يعفي ولدها فلما أعيتها الحيلة قالت له: ما أنصفت بين ولدك وولدي، أما أبناؤك فتوجههم إلى فاس يقرؤون العلم وأما ولدي فتأمره بالسفه وخلع جلباب المروءة وأغلظت له في القول فسكت إلى أن انصرفت، فلما دخل عليه أصحابه قال لهم (قط فاس حارت معه الناس) وكانت أم سيدي إدريس فاسية وهي أخت المطرب الغازي الشهير، ثم التفت إلى سيدي إدريس وقال له لا تقرأ خليلا ولا رسالة خل الناس يقرؤون الألفاظ واقرأ أنت المعاني. قال سيدي إدريس وكنا قبل ذلك بيومين أو ثلاثا طلبنا من الفقيه سيدي أحمد الزواق أن يقرأ معنا الرسالة فلما قال الشيخ ما قال انقطعت عن حضور الدرس، وقد دخلت عليه ذات مرة ومعه ملأ من الفقراء فأدناني منه وأجلسني معه على السرير وقال: اقبض ببنانك وعض بأسنانك كي لا أطير وأتركك. قال وكنا نجتمع مساء في دار الشيخ برأس الرخامة وعلى مقربة من خوخة جامع حارة العيون فكنا نجلس في فناء الدار وفي البيت وكان للشيخ حمار لا يربط فكان يدخل فناء الدار ويدور معنا كأنه واحد منا والشيخ لا يأمر بربطه ولا يشغله عما هو فيه، وإذا طابت نفس الحمار أخذ في النهيق فيسكت الشيخ حتى إذا فرغ الحمار من نهيقه قال لأصحابه إنه يقول في نهيقه لعنة الله على المكاس. قال سيدي إدريس وكنا قليلي العدد حينما أخذت عن الشيخ ابن عجيبة فلم يكن يحضر بداره إلا جماعة قليلة من الناس ثم طفقوا يأخذون عن الشيخ زرافات ووحدانا، فاقترح بعضهم أن يجعل الشيخ مقدما للفقراء يقوم بالنقابة عليهم فلما ذكروا ذلك للشيخ في مساء أحد الأيام قال لهم إذا كانت لكم رغبة في المقدم فإن المقدم هو سيدي إدريس الحراق، فسكت الفقراء إلى أن صلوا المغرب وذكروا أذكارهم مع الشيخ ثم خرجوا وأخذ بعضهم ينتظر البعض فاجتمعوا في درب مظلم يتبادلون الرأي فيما قاله الشيخ من إسناد وظيف مقدم الفقراء إلى سيدي إدريس، وأخيرا قر رأيهم على أن يراجعوا الشيخ في ذلك حيث أن سيدي إدريس لا يزال صغير السن وتحامل بعضهم على سيدي إدريس إلى أن قال إن الديك لا يتقدم

على النسور، ثم طفقوا يرشحون للنقابة من يرونه صالحا فاختاروا العدل الفقيه سيدي عبد الوهاب لوقش وقرؤوا على ذلك الفاتحة وهم بموقفهم بالدرب المظلم فلذلك كان سيدي محمد الشرقي ـــ مجذوب من أصحاب ابن عجيبة وصهره على بنته ـــ يقول في حق لوقش «مقدم الظلام»، ولما جاء وقت دار الشيخ تصدر للكلام معه في شأن المقدم كبراء الفقراء وأخبروه بما قر رأيهم عليه من إسناد النقابة للوقش فوافقهم على ذلك، ولما اختلى ببعض أصحابه قال ألا يستحيون أن يسموا حفيد الشيخ سيدي محمد الحراق بالديك ويسموا أنفسهم بالنسور ما كان ينبغي لهم ذلك. قال سيدي إدريس: على أن الشيخ ابن عجيبة كان يذكر من فضل لوقش الشيء الكثير وسمعناه ذات مرة يقول له على رؤوس الإشهاد أنت لوقش أنت لوقشة «زنبرك» الطريق إلى الله. قال وكان الشيخ كثير الاستغراق فلربما قصدناه الأيام المتابعة دون أن ينطق بكلمة واحدة حتى إذا حضر وقت صلاة المغرب أشار لأحد الفقراء بأن يقيم الصلاة دون أن يكلمه ثم يتقدم فيؤم الفقراء وبمجرد ما يفرغ من الصلاة يشير إليهم بالانصراف فينصرفون، وفي بعض الأحيان كان ينحرف عن القبلة إلى أن نخشى أن تكون صلاتنا باطلة وإذا أخذ في التلاوة لم يتل على النسق الذي يتلو عليه الأئمة بل إنه يتابع المعنى فيعطي لكل آية اللهجة والأسلوب الذي يقتضيه معناها وهو مع ذلك يشير بيده إشارة كبيرة فيرفعها تارة ويخفضها حينا ويبسطها وقتا بحسب ما يتطلبه معنى الآية وكثيرا ما كان يكتفي بالآية الواحدة في صلاته «مدهامتان» «ذواتا أفنان» وما نحى هذا المنحى من قصار الآي وذلك حينما يغلب عليه السكوت، وإنه إذا رجع إلى حسه أخذ يتحدث بأسرار وحكم يستغرق في ذلك الساعات الطوال حتى إن مؤذن المغرب يؤذن فلا يسمعه ويستمر في حديثه إلى أن يقرب وقت آذان العشاء فإذ ذاك يصلي المغرب ثم يأخذ في الذكر فلا ينصرف الفقراء إلا بعد العشاء بحصة من الزمان وكان في حديثه يتحدث عن كل شيء حتى لتحسبه أنه يعرف كل ما هو موجود من أصناف العلم، وكان بمجلسه جماعة من الفقراء على رأسهم لوقش فإذا تناول مسألة فقهية أو نحوية تمللوا وفرحوا وبعد أن ينصرفوا يأخذون في الحديث عن الشيخ وأنه يطلع على النحو والفقه أيضا. وكان ابن عجيبة يتكلم حسب الأوقات ويساير الأحوال فربما أتى الموضوع الذي يتكلم فيه عن حقوق المرأة وما لها من الفضائل والمزايا ثم يشفع قوله

بالاستيصاء بهن وحث أتباعه على أن يكونوا ذوي حسن معاشرة مع أهليهم، ثم بعد ذلك يتعرض لفتنتهن وبعض مساوئهن فيذكر قول الله سبحانه حاكيا عن عزيز مصر مخاطبا لأهله «إن كيدهن عظيم» وبذكر ما ورد في التحذير من فتنتهن، فلاحظ ذلك القائد أحمد الدراوي ــ من أصحاب الشيخ ــ فلما خلا إلى بعض أصحابه ذكر لهم أن الشيخ ابن عجيبة إذا كان مصالحا لأهله أمر الفقراء بمصالحة أهليهم وإذا كان مخاصما لها أمر ببغض النساء ومقتهن والحذر منهن !. وكان سيدي إدريس يحدثنا عن شأن الطريق وأن طريق الرجال وليست بطريق الأطفال وأن أمرها سماوي أكثر منه أرضي فذكر في هذا الباب قصة لابن عجيبة حكاها عن نفسه فقال: إنه (ابن عجيبة) لما كان بالمشرق قصد الحج وكان في أحد البقاع المعظمة سمع طبلا بين السماء والأرض لا يعلم عظمه إلا الله، فضرب عدة ضربات جعلت ابن عجيبة يتنبه كل التنبه فإذا بهاتف ينادي يا ابن عجيبة يا ابن عجيبة يا ابن عجيبة « فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى » ففهمت عن الله أن ذلك إذن بمصافحة الناس، فلما كنت بمصر جمعتني الأقدار بجماعة من أهل العلم وكانوا على جانب عظيم من التواضع والانصراف فسألوني عن نفسي فأخبرتهم عما سألوا وذكرت لهم عن الطريق وشأنها عندنا في بلاد المغرب فأعجبهم حديثي، ثم سألوني عن الرقص فأخرجت لهم تفسير البحر لأبينا سيدي أحمد ابن عجيبة فتصفحوه وقرؤوا منه في مواضع عدة فالتفت بعضهم إلى بعض وقالوا لقد كان لصاحب هذا التفسير علم وقدم، فقلت لهم لقد كان من ذكرتم يرقص ويديم الرقص وكانت العمامة ترتفع عن رأسه مقدار ذراع فدهشوا وسكتوا ثم صاروا ينصتون لما أحدثهم به فلم ينفض المجلس إلا وقد أخذوا عني الورد. ثم كان سيدي إدريس يتبع هذه القصة بما حدث أنه وقع له عن الإذن في الانتصاب للناس وتلقين الأوراد فحكى أنه ذات ليلة رأى الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون في محفل مهيب فخلا به ووضع يده في يده ثم أدنى ابن ريسون فمه من أذن سيدي إدريس وأخذ يقرأ عليه قوله تعالى « يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » إلى أن وصل إلى قوله تعالى « يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين »، ثم قطع القراءة وأخرج من جيبه كبكبة (هكذا بهذه الكلمة كان يعبر سيدي إدريس) تتعاظم وتتضام وقال هذه بقية ما لقناك إياه. قال سيدي إدريس فهذا سندنا في قراءة

يس وفي الاشتغال بالموسيقى والطرب، ثم ذكر أنه ذات ليلة وهو بين النائم واليقظان وسط البيت الواقع تحت درج دار الشيخ وإذا فتح الشق الأيمن بالنسبة لمن بداخل البيت — من بابه سد مسلك الدرج — فإذا بي أشعر برجل ربعة قد دخل البيت ودنا مني وقال أنا جدك محمد الحراق ثم أخذ بيدي ولقنني الورد الحراقي ففتحت عيني ولا أزال أبصر شخصه. قال سيدي إدريس وكنت ذات يوم مستغرق الشرد قد سقطت عني الحجب فإذا بي أسمع النداء (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) فكان إذنا من الله بأن أنتصب للخلق. وكان يقول في أخريات حياته بودي لو أذنت أحد أصحابي بتلقين الورد وأكف أنا عن ذلك فإن الإذن الإلهي الصادر إلي بتلقين الأوراد شديد على الخائنين ولا أحب أن أكون سببا في النكاية بأحد. وقد كنا ذات يوم بمشربة الزاوية وكان سيدي إدريس حاضرا فأقبل السيد عبد الغفور ابن كيران وكان إذا أقبل تهلل وجه سيدي إدريس وغلب عليه السرور والابتسام، فأخذ الرجلان يتحدثان عن أيام انقطاعهما إلى الشيخ ابن عجيبة ويذكران من طبع الشيخ أشياء غريبة فمن ذلك أنه كان كثيرا ما يسأل من يسلم عليه من أصحابه بقوله من تكون في الناس؟ وقد يقول ذلك لأقرب الناس إليه، وانجر الحديث إلى أخلاق الشيخ وتساهله ونظره إلى الحياة فذكرا أن دار الشيخ ابن عجيبة كثيرا ما كان يرد عليها فتيات من القبائل لاجئات من العقاب أو خادمات فكان يهتم الشيخ بأمرهن ولا يهدأ له خاطر إلا إذا زوجهن، وقد حضر ذات يوم أحد الفقراء فاستدعاه الشيخ وقال له أتتزوج بهذه؟ ثم دعا فتاة وعرضها عليه فقبل الرجل ما عرضه عليه الشيخ ابن عجيبة فقال الشيخ هل عندك خمسة أريلة فقال لا فقال له وأربعة فقال لا إلى أن وصل إلى نصف ريال فقال لا فقال له الشيخ والله لا تصلح للزواج. قال ابن كيران وكان الشيخ ابن عجيبة يسألني هل أنا متزوج فلا أقول له نعم ولا أقول له لا فإن قلت نعم كذبت وإن قلت لا خشيت أن يوجب علي الزواج، فكنت أجيبه بأن لا رغبة لي في الزواج وأذكر له من سوء حالي ما يحمله على أن يوافقني على عدم التزوج ثم لا يلبث أن يراجعني في الموضوع، وأشد ما كنت أخشى هو أنني كنت أنظر إلى فتاة خادم في دار الشيخ رغب الجميع أن يتزوجها وكان رأسها مصابا بمرض القرع الفاحش فأخاف أن يحملني الشيخ ابن عجيبة على أن أتزوج بها ولا طاقة لي بذلك.

قال سيدي إدريس وهو يضحك إلى أن جرت مآقيه بالدموع لقد كان فلان ـــ أحد أتباع الشيخ من سكان القبائل المجاورة ـــ كلما أتى لزيارة الشيخ أصحب معه تيسا أو معزى يقدمها هدية للشيخ و لم يكن يدفعها لأحد بل يمكن منها إلا الشيخ نفسه، فكان إذا حضر وجد الشيخ على سريره وحوله الفقراء قد جلس بعضهم إلى جنب بعض متراصين فيدخل صاحبنا ومعه معزاه يجرها وسط الفقراء تطؤهم إلى أن يمكن الشيخ وهو بسريره من حبلها فلا يعترض عليه الشيخ ولا ينتقد عليه وإنما كان الفقراء يغلبهم الضحك، وقد لاحظهم الشيخ يضحكون ذات مرة فقال لهم من سره أن ينظر إلى ملك من ملوك الجنة فلينظر في وجه فلان. قال سيدي إدريس و لم يكن الفقراء يذكرون أورادهم بعد صلاة الصبح وإثر صلاة المغرب بمحضر الشيخ إلا إذا كان المصباح طافئا، قال و لم يكن المصباح بذي النور الوهاج ولكنه قنديل به فتيلة كليلة لا تضيء حتى على القنديل وإذا بالغنا في شأنه قلنا إن الرجل يستطيع أن يميز على ضوئه الأشباح ومع ذلك فإذا أخذ الشيخ في الذكر أشار بيده عدة مرات أن أطفئوا القنديل فيفعلوا. وكان الشيخ ابن عجيبة إذا رأى من أصحابه إقبالا على الدنيا زاد في أوراده ذكر الموت عشرين مرة يقول فيها الفقراء الموت الموت، قال سيدي إدريس وكان إخلاص الشيخ والفقراء يجعل هذه الكلمة تنبعث من أفواههم وكأنما أمر نازل حتى أنني لو قلت إنني كنت أشم رائحة حنوط الأموات لصدقت، و لم يكن الشيخ بالذي يتحمل الكلفة أو يلزم أهله من الأعمال ما لا يطيقون فكان إذا حضر الموسم وأقبل الزوار من سائر الجهات أول ما يقول لهم: يا أيها الإخوان إنكم قد جئتم لزيارتنا وأنتم في بلدة بها كل ما يلزم من المرافق ففيها يباع الخبز والحوت والزيتون والفواكه والخضر وإن السوق الفوقي نزهة للنفس من حيث توفر الأرزاق فللزائر أن يأكل ما يشتهيه وليشتر ما يريد ومن لا دراهم له فإنه مسرح من يومه فلينصرف بالسلامة إلى أهله، وكذلك يكون الأمر فلا يطمع طامع أن يعتمد على دار الشيخ في المطعم بل كان ابن عجيبة آخذا بما أخذ به السلف الصالح من التقليل من شؤون الدنيا وزهرتها لا يعلم شيئا عن أهل الدنيا وما هم فيه من ترف ونعيم، وقد بلغه أحد أصحابه أن الوزير الفقيه السيد محمد الصفار قد جعل له السلطان مولاي الحسن بن محمد أجرة قدرها ستون ريالا في الشهر، فلما سمع هذا العدد أصابه الاستغراب وأخذ يوزع المال على الأيام

فوجد أن كل يوم من الأيام يقبض فيه الصفار ريالين اثنين فقال لأصحابه وماذا يفعل بهذا المال وكم يتصدق منه وكم يأكل، فذكر له بعض المنتصرين للصفار أن له كثيرا من النفقات على الدواب وعلى الأصحاب فقال ابن عجيبة: وكم يأكل الدواب وكم يأكل الأصحاب؟ إن رجلا واحدا يقبض ريالين في اليوم دليل على أن الأرض قد أخرجت أثقالها، ثم صار لا ينسى هذا الاستغراب فإذا ذكر الثراء والرفاهية يستشهد بأن رجلا واحدا من هذه الأمة يستلم ريالين في اليوم، وهذا في نفس الوقت الذي بلغت فيه حالة القبائل من الفقر إلى درجة أن الأرض لم تكن تباع بالمال وإنما كانت تباع ببضعة أمداد من الذرة وربما بيع البعض منها بزريعة الخلنج حسبما تشهد بذلك رسوم البيع. وقد عثرنا على رسالة وجه بها بعضهم إلى صديقه يقول فيها إني قد وجهت إليك خمسة عشر ريالا لتشتري بها زوجا من الثيران للحرث، ودام هذا الرخاء إلى الأيام الأخيرة فقد ذكر العلامة الفقيه سيدي محمد بن محمد المرير أنه حوالي أوائل العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري كان قد أنهى دراسته بفاس ورجع إلى تطوان فضاقت له أسباب المعيشة إلى أن قدر أن ظهر له وظيف بطنجة فشق ذلك على شيخه الفقيه ابن اللبار فكتب له رسالة يرغبه بها في سكنى تطوان والإقامة ويشوقه إلى بلده ومسقط رأسه، فذكر الفقيه المرير أنه أجابه برسالة تؤكد حنينه إلى بلده وذيلها بقوله لو وجدت بها من الرزق ما أحصل به على خمسة عشر ريالا في الشهر لما فارقت بلدي. على أن ابن عجيبة كان مطلعا على كتب السيرة وتراجم الرجال وفيها من سعة الرزق عليهم في عصر الفتوح الإسلامية من خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما ما بلغ الأمر بعمر أن يقول للناس في توزيع الغنائم إن شئتم حسبنا لكم وإن شئتم كلنا لكم وترك بعض الصحابة من الأموال ما كان يجر بالفؤوس إلى غير ذلك مما هو معروف، ولكن ميول ابن عجيبة عن الدنيا وشهواتها والتقلل من حاجياتها صورت له ريالين في اليوم في أفظع ما يمكن من الصور. وقال سيدي إدريس كنت بحكم الضرورة أجتمع مع الفقراء الحراقيين وأسمع من سيدي عبد السلام أجزول ما يحدثهم به فبلغ خبر ذلك إلى الشيخ ابن عجيبة فقال لي ذات يوم يا ترى ما عسى أجزول يقول للفقراء ومن أين يأتيه ما يحدثهم به؟ فأجابه سيدي إدريس إن الفقراء يأخذون في سرد بعض كتب القوم ثم يتحاورون في معانيها فيدلي كل واحد منهم بما يراه، فقال ابن عجيبة:

عجبا إن العلم لا يؤخذ من الكتب والأوراق وإنما يؤخذ من أفواه الرجال والله ما بين بلاد وادي نون إلى خراسان لا يوجد إلا رجل أو رجلان يشير بذلك لنفسه. على أن أجزول كان ذا فن آخر صاحب تحقيق وتدقيق واعتماد على ما قاله المحققون من أهل هذا الشأن وكان ابن عجيبة يقصد إلى المواهب والفيوضات التي ترد على خواطر الذاكرين المتفرغين للعبادة القائمين بوجوب العبودية. ولقد كان أجزول يشرع بقراءة كتاب من الكتب الجدية ثم يأخذ رأي أصحابه في المسألة حتى رأي أصغرهم سنا وكان يقول إن يوم الجمعة يوم محاسبة تظهر فيه النتائج فإذا اجتمع الفقراء كان على الشيخ أن يسمع إلى أقوالهم وخواطرهم ومن ذلك يمكنه أن يعرف ما كانوا عليه في الأسبوع الماضي من جد وتراخي. وكان ابن عجيبة ينفق من فتوح الله في الوقت على أن الفقراء كثيرا ما كانوا يسردون بين يديه عدة كتب فيحدثهم بما فيها ويذكر ما ظهر له في ذلك وكان لا يتقيد بحدود ولا يلتزم عبارات الأقدمين وتعبيراتهم، فكان يكثر عليه بسبب ذلك اللغط فلقد كان يحدث أصحابه ذات مرة ومعهم سيدي إدريس الحراق فجاء في الحديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الشيخ سيدي عبد القادر ابن عجيبة يذكر من منن الله على رسوله إلى أن تعمق في الموضوع فحاول أن يفهم أصحابه على وجه التقريب فقال لهم: إن محمدا محمدان محمد الصغير ومحمد الكبير، أما محمد الكبير فهو القبضة التي قبضها الحق من نوره وقال لها كوني محمدا فكان منها بناء هذه العوالم عاليها وسافلها، وأما محمد الصغير فشيء من هذه القبضة تكثف وانتقل من الأصلاب الطاهرة إلى أرحام الطاهرات إلى أن أودع بطن آمنة بنت وهب فكان هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم، وإن محمدا الصغير مندرج في محمد الكبير فالعارفون حينما يصلون على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يصلون على معنى هذا الاسم الشريف الواسع كما فعل الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش وسيدي إبراهيم المتبولي ومن على شاكلتهما ممن صلى على القبضة، ومن لم يصل مقام هؤلاء الرجال تمشى مع ظاهر الحال ووجه صلواته إلى سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم دون أن يبعد بها إلى أبعد من ذلك. فلما فرغ الشيخ ابن عجيبة من تقريره ولم يكن بمجلسه إلا قليل ممن يفهم هذه العبارات الغامضة الموجودة بكثرة في كلام القوم طفق الفقراء يتحدثون في هذا الأمر ويذكرون أنهم لا يعرفون في الدنيا

إلا محمدا واحدا بعثه الله رحمة للعالمين وهداية للمؤمنين، وقصد البعض منهم أهل العلم وسألوهم هل في الكون محمدان أو محمد واحد؟ فأجاب الجميع بأن ليس هناك إلا محمد واحد فأخبروهم بأن الشيخ ابن عجيبة يذكر أن لله محمدين، فسارع إلى الإنكار أهل الإنكار الآخذون بظواهر الألفاظ وحتى من كان من العلماء من أصحاب الشيخ خافوا على نفسهم فصرح واحد منهم بأنه يقلد الشيخ في خصوص الأمور الباطنية وما يتعلق بالطريق أما ما يرجع إلى علم الظاهر فلا، وحدثت ضجة لولا أنه كان بمحضر ابن عجيبة أقوام فهموا كلامه على حقيقته فليس هنالك إلا محمد واحد وهذا التنويع إنما هو لكي يفهم الناس أن سائر العوالم هي مشتقة من نوره الذي لا يتجزأ وإنما تنوع وتشاكل لحكمة أرادها الله سبحانه، فهذه الأشياء في الحقيقة ما مادة واحدة لا تختلف ولا تتغاير وإنما الحكمة التي نسقتها وأحكمت أوضاعها جعلت هذه الأوضاع تختلف كما اختلفت هذه الكلمات والحروف التي نقرؤها فلها معان متباينة فتغايرت و لم تكن تتغاير لولا أن قلم الإرادة يسطرها على ما يمليه الفكر والعقل، فلو بقي المداد مدادا والورق ورقا لكانت هذه الكتابة رتقا في غير فتق إلا أن هنالك إرادة للمحرك والكاتب خصصت بعض مادة المداد بشكل حرف الكاف وآخر بأشكال الحروف الأخرى إلى أن تم التعبير طبق الفكرة، وإذا فهمت هذا سهل عليك فهم معنى محمد الكبير وسهل عليك أيضا فهم وحدة الوجود التي ربما تعرضنا لها فيما بعد إن شاء الله.

وبالأمس القريب وقفت في واجهة دكان فوجدت قطعا من الصابون منسقة منسقا خاصا يسهل على كل واحد أن يقرأها فيها «صابون الأسد» فتذكرت أن الصابون هو الصابون، وهذه المعنى التي أداها هذا الترتيب الخاص أليست هي كل ما في الكون من سر؟ فأمامنا أصل وأمامنا صورة فما كان من صورة فإن لك أن تسميه محمدا إذا رفعته إلى مقام الفرق. وكان ابن عجيبة سريع الرجوع إلى ظاهر الشريعة فقد كان أصحابه يردون عليه يسألونه عن أمور دينهم فكان يجيبهم لا كما يقضي به ظاهر الحال بل كما تقتضيه الظروف المحيطة بالمسألة، فجاءه مرة فقير قد فارق زوجه وطلقها ثلاثا في لفظ واحد ثم ندم على ذلك فاستفتى الشيخ فأفتاه بمراجعتها اعتمادا على الأقوال القوية التي ترى أن الطلاق الثلاث لا يكون في لفظ واحد بل لا يصح إلا ثلاث مرات بحيث لو كان مرة واحدة هي طالق ثلاثا لاعتبار أن تلك طلقة واحدة ثم إذا راجع

وطلق فتلك ثانية وتليها ثالثة، ولكن فقهاء المالكية أخذوا بالأحوط فيما يقتضيه ظاهر الثلاث فلو قال مرة واحدة طالق ثلاثا يحرم عليه نكاحها إلا بعد أن تنكح زوجا غيره، وعندما أفتى ابن عجيبة بجواز الجمع بين الرجل وأهله أكبر ذلك الفقهاء فوجه القاضي وراء ابن عجيبة وسأله عن عمله فقال إني تائب إلى الله لا أعود لمثلها. وقال سيدي إدريس الحراق كان لابن عجيبة همة عالية ونظر سام فكان يحدثنا عن وظائف البشر في الأرض فيتكلم عن أصحاب المهن والحرف ثم يقول: وأولئك الحراس الذين يبيتون ساهري الجفن للمحافظة على دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم إذا قابلتموهم فتبركوا منهم وادعوا لهم بخير واطلبوا منهم أن يدعوا لكم فلولاهم لما أمكننا أن نغمض جفنا. وكان الشيخ ابن عجيبة قد زوج إحدى بناته إلى سيدي محمد الشرتي وكان يغلب عليه في بعض الأحيان حال لا يضبط معه شؤون تفكيره فسأل الشيخ عن عمله في الصلاة فذكروا له أنه يصلي ويذكر الأوراد ثم يراجعه المرض فقال: إن جذبه نوراني، وكان يأمر الفقراء بأن يعودوه من مرضه فوجه ذات يوم لعيادة الشرتي سيدي إدريس الحراق ورجلا آخر وأمرهما بالرجوع بعد العيادة ليخبراه بحالة الشرتي ففعلا ما أمرهما به الشيخ، وحدث أن رجلا استوقف سيدي إدريس الحراق فحادثه طويلا فلما قصد دار الشيخ وجد الرجل قد سبقه وحدث الشيخ بعض الحديث، فعندما استقر سيدي إدريس بمجلسه سأله الشيخ عن حالة الشرتي فذكر له أنها آخذة في التحسن وأنه لم يبق به من بأس فقال الشيخ: «والله والله إن النور إنما يبصر النور والظلمة لا تبصر إلا الظلمة» فانتقع لون الرجل ودهش الحاضرون و لم يعرف سيدي إدريس ما هو السبب، فلما أذن الشيخ للقوم بالانصراف أخذ بعض الفقراء بيد سيدي إدريس وقال له أتدري ماذا حدث؟ فقال لا، فقال له إن فلانا لما دخل قبلك بيسير سأله الشيخ عن حالة الشرتي فذكر له أنه في أسوأ الحالات ثم لم يطل الأمر إلا قليلا حتى دخلت أنت فسألك فذكرت خيرا. قال سيدي إدريس وعندما اشتد الأمر بالشرتي طلب أهله من الشيخ أن يرقيه فدعا بطبق فخار مدهون ...

[هنا انتهت الصفحات الغير مكتملة من الجزء الثاني والتي عثر عليها كما أشرنا في التقديم وقد ارتأينا أن نضيفها لاستكمال نص الرواية الذي لم يكتمل بعد]

الفهرس

والزاوية شاهدة على صاحبها وعصـره بما قدمه من وصف ممتع لكثير من أوجه الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية وما سجله من روايات وأخبار تبرز عقلية مختلف الشـرائح الاجتماعية وطريقتها في التفكير. وقد حظي النص بعناية كاتب آخرالذي عده سيرة ذاتية لأنها تعبير مباشر عن ذات المؤلف ويعرض للقسـمين اللذين يتألف منهما النص : الأول ذات المؤلف وتجربته في طلب التصـوف والثاني وهو تاريخ الشرفاء الحراقيين، وكلا القسـمين يرتبطان بنيويا ودلاليا باعتبار المتكلم هو الوزاني ذاته والفضاء هو الزاوية ولعل الإحساس بالتغيير على المسـتوى الذاتي لدى التهامي الوزاني حيث يقف على عتبة مرحلة أخـرى من حياته يكون هو الدافع عنده لكتابة سيرته أو تاريخ الكتابة عن تجربة الانخراط في سلك التصـوف والهجرة إلى الزاوية الحراقية بحثا عن الخلاص من الحيرة وإشفاقا على قلب هو "أشد حسـاسية من عدسة المصور وقد تحطم هذا القلب بالحب والغرام...". ومن هنا فإن اختيار المؤلف للزاوية عنوانا لسـيرته الذاتية لم يأت جزافا وإنما أتى امتنانا لمؤسسـة لعبت دورا أساسيا في حياته مثلما فعلت في مجتمعه. وإن اتصـال المؤلف بمجتمعه وإلمامه بأوضاعه وآماله ومعرفته بعاداته وأخلاقه جعل سيرته الذاتية صـورة حية عن الحياة بمدينة تطوان من خلال تعرضه لأدق الجزئيات وأبسط الوقائع، واعتماد أسلوب الرواية الكرونولوجية والوصف كأداتين أساسيتين في التعريف بالذات ومن خلالها بالعالم عبر سيرورة زمنية تدريجية لما سيكون عليه في صباه وشبابه وكهولته.

منشورات باب الحكمة

تطوان.المغرب : 0539 70 15 82

baytalhikma@outlook.sa

نشر هذا الكتاب

بدعم من



وزارة الثقافة

والشباب والرياضة

ISBN: 978-9920-653-18-3

9 789920 653183

السعر: 70 درهما